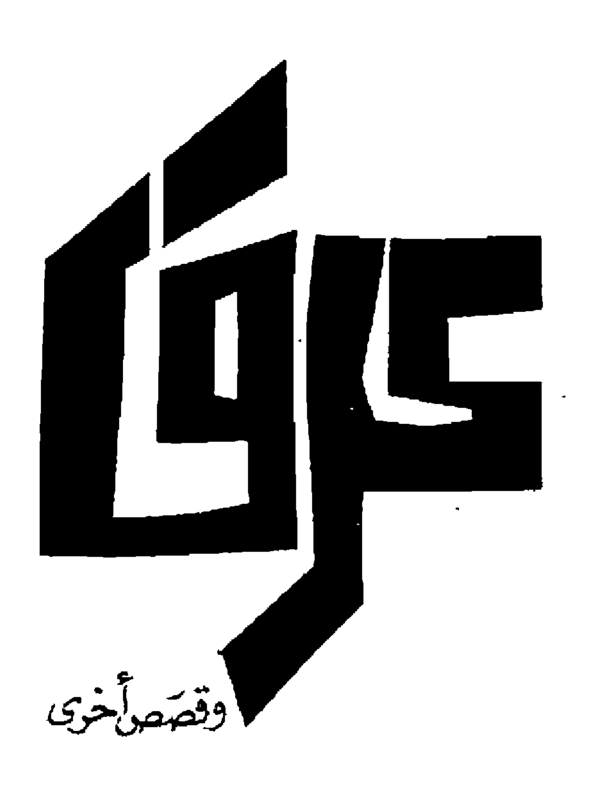
عرق

وقصص أخرى

جبرا ابراهيم جبرا



منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ـ ١٩٧٤

تصميم الغلاف : لجينة الاصيل

الى لميعة

الطبعة الأولى ـ ١٩٥٦

محتوى الكتاب

عبر الأرض البوار

بقلم : توفيق صايغ

لكنت أشعر بشيء من التطفل في نقدي لنتاج جبرا ابراهيم جبرا القصصي ، لو أني نظرت الى مجموعة « عرق » هـذه ، والى روايـة « صراخ في ليل طويل » التي سبق نشرها ، على انها قصص فحسب ، لا على أنها قصائد أيضاً . ولا أقصد من هذا اخافة القارىء وحمله على الاعتقاد بأنه قد خدع فيما اشترى ، كما لا أقصد الباس هذه القصص ثوباً لم ينسج لها ، أو الدخول عن طريق هذه البلبلة الى بحث عن العلائق بين القصة والشعر : فجل ما عنيت أن هذه القصص التي سأنظر فيها لا تقوم ، في نظري ، على الحادث أو الشخص أو الحوار بقدر ما تقوم على الرموز والايحاءات ، التي شلحها المؤلف بتفنن وعناية ، هنا وهناك ، كما يفعل الشعراء في قصائدهم .

وقد كتبت قصص هذا الكتاب والكتاب السابق في أمكنة وأجواء مختلفة ، في القدس وبغداد وفي لندن وبوسطن ، وفي أزمان متفاوتة خلال السنوات العشر الاخيرة • لكنك تجد الشقة بين احداها والاخرى ضيقة ، قام يحد منها أكثر من جسر ، كعودة المؤلف مرة تلو مرة الى ذات العالم الذي استمد منه وراح يخلقه، وكشخص البطل الذي هو أبداً هو وان سمي أسماء مختلفةوتبدلت الأدوار التي أعطيها قيمة بين قصة وأخرى ، وكالرمزية الواحدة وان اختلفت فيها الظلال •

في طليعة الرموز : المدينة ، وعلى وقوفنا على مظاهر هذه المدينة، وعلى العلاقة التي تنشأ بين البطل وبينها ، يعتمد فهمنا لقصص جبرا ودرسنا لها • وجبرا بحق شاعر المدينة في أدبنا العربي المعاصر ، يكاد لا يستطيع صرفها عن ذهنه ، وكأنها تقف أمامه كلما شاء أن يكتب ، بعبعا مقيتا ، يهوي عليه ويدوسه ليلقاه ما زال واقفاً كما كان • لغيري أن يدرس هـذه الظاهرة على أساس اجتماعي مجرد ، وأن يربط علاقة البطل بالمدينة بصبا المؤلف القروي وتطلعه الى أوساط المجتمع المدني ، لكني أرى أن مثل هـذا الدرس ثانوي ولا يفسر الظاهرة تفسيراً كاملا ولا يبرر اهتمام المؤلف ، سنوات طويلة وفي قصص وقصائد عديدة ، بتشريح تلك الجثة ، المدينة ، وبطريقة رمزية غير مباشرة • ومن الابتعاد عن الصواب ، أيضاً ، أن نخال المدينة التي يتعرض لها مدينة معينة بالذات ، أو انها مدينة لا قرية أو بلدة ، كأنما هو رومانطيقي جديد همه العودة الى البداءة والطبيعة • فالمدينة عنده رمز وليست واقعاً ، وان أصر قارىء على أن يعرف لها اسماً أو يرى لها مخططاً ، فانما هو كقارىء

يصر على أن يعرف أسماء ويرى مخططات للمدينة السماوية والمدينة الهلاك في « سياحة المسيحي » ، أو للقلعة في « قلعة » كافكا ، أو للأرض في قصيدة ت٠س٠ اليوت « الارض الخراب »، مثلا • ولكل أن يفسر الرمز كما يشاء ، وكما يتيح له المنظار الذي يستعمله • فمنظار ماركس ينقل لعينيك غير ما ينقله منظار فرويد ، وهما غير ما ينقله المنظار المسيحي أو الوجودي أو سواهما • أيها الاصح ؟ هل تذكر قصة الفيل والعشرة العمي؟



مسرح الأحداث في معظم هذه القصص هو المدينة ـ ولكننا في قليل منها نرافق البطل قبل وصوله اليها ، ونلمح فيها المبرر الذي يحمله على ارتيادها • منذ الصبا يعرف البطل أن عليه أن يقوم بتجواله ، أن يهجر قريته ويؤم المدينة حين يكبر • انه لا يعرف لماذا عليه أن يفعل ذلك ، لكن جهله لا يزعجه ، اذ هو يدرك انه صغير بعد ، وان هناك أشياء يتعذر على الصغير فهمها • فليترك ذلك للأيام •

وهو في صباه يعيش في فقر مدقع ، لكنه أيضاً يعيش في هناء ورضى • انه ألف محيطه ، وقنع به ، ورأى فيه الجمال الذي ينشد والطمأنينة التي يحب • فهنا « الرجال والنساء والاطفال يغنون ، ويقرعون الكف بالكف ، وكؤوس العرق الصغيرة أمام الرجال الكبار ، وقد تربعوا في شبكة الظلال تحت الافناء الضامرة ، يغنون على دلعونه ، ثم يتوقفون حابسين الصوت والنفس ، بينما يرسل أحد الرجال تنهدة اوووف »•حتى الفقر الذي يؤلمه لا يصبغ الدنيا أمام عينيه بالسواد : في « المغنون

في الظلال » يذهب الى وليمة ممنيا النفس بأكلة لحم فيحرم من تذوقلقمة منها ، لكنه يعبأ ويأكل خبزه الجاف وكأنه أكلاللحمـ
واذ يأكل قطعة الخبز نرى رجليه اللتين وصفتا لنا وهما في طريقهما للوليمة « مغبرتين » ، تغسلان بالماء النقي الصافي ٠

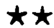
هو اذ ذاك في حال البراءة ٠ لكن هذه البراءة لا تدوم٠« البريء والجميل لا خصم لهمـا غير الزمان » ، يقول ييتس في قصيدة له ـ والزمان سيجزر تلك البراءة ويمسخ هذا الجمال ٠ في قصة « الشجار » نرى التطور الذي طرأ على المحيط الذي عاش فيه البطل ، نرى البراءة الاولى وقد بدأت تغيب مخلفة وراءها مرارة الاختبار ٠ فلم يبق في ذلك المحيط ممـا كان فيه غير الفقر ، وهو الآن فقر مؤذ ممض ، وزال منه ما كان فيه من طمأنينة ومرح ، فلا شيء الآن الا الشـجار الذي يشتبك بين الجيران وصوت الشتائم والزعيق وما يثيرانه في نفس الصبي من خوف دائم ٠ بـدأ عالمه ينقلب الى عالمين متضاربين ، عالم الواقع وعالم الحلم ، العالم كما هو والعالمكما يشاؤه أن يكون٠ صار يسمع الشتائم ويحلم بالرقص والغناء ، يعيش الفقر ويحلم بعطايا ينوء بحملها ، ويـرى الناس لا يلتقون الا للاشتباك والشجار ويحلم بأنهم يلتقون لجمع الزيتون في أحضانهـم ٠ ويفيق دوما من أحلامه ليسمع صوت الشجارما زال ينبعث ٠ انه أخذ يشعر بأن العالم الذي هو فيه ليس العالم الذي يود أن يكون فيه ، بدأ يطمح الى تركه الى « مكان بعيد » ، الى الذهاب « الى المدينة » ٠ صارت هذه الهجرة موضوع أحلامه ، وموضوع نجواه لرفيقه ، وموضوع الحديث في عائلته ٠ وأبوه يضعه أمام مسؤولياته ، ويفهمه أن عليه الانتقال من محيطه عندما يكبر٠

وان أخذ يقص عليه قصة ، كتعويض عن الضجيج في الخارج والجو القاتل المحيط به ، قاطعته عودة الشجار ـ فتتضح للبطل ضرورة الانطلاق بوضوح أجلى : اذ مهما حاول أن يتخلص من الواقع (بالحلم ، بالقصة ، بالتقرير عن المستقبل) ، فانه ما دام وسط ذلك المحيط فانه لم يتخلص منه بالفعل بعد ٠ ويتمخض الشجار عن جريمة ، فيحط الموت في الحي ، وتتلطخ في البطل الصبي حتى أحلامه ، فلا تعود صافية تبتعد به عن محيطه ، بل تختلط هي بمحيطه وتصبح شبيهة به ، مما يقوي فيه النزعة للانطلاق ـ « ورأيت نفسي أركض في الحقول وقد امتلأت شجراً مفعماً بالنوار ٠٠ ولكن شيئاً مريعاً لا أدري ماهو يلحق بي ، وقد برزت له أنياب كالكلاب ، حتى اذا ما أمسك بي أفقت من نومي منذعرا » ٠

فالبطل حمل منذ صباه على انتظار الوقت الذي يتمكن فيه من دخول المدينة ٠ عرف انه لا بد له منها ، لسبب ما أو آخر ، وفعل فيـه الفقر فعله ، فزاد في اقتناعه بضرورة ارتيادها ، وأبوه مات « وكان علينا أن نقصد المدينةكاللاجئين » ، والاختبار فتك بالبراءة ، والاثم دخل المشهد وأخذ يلاحقه بسياط دامية في واقعه وفي أحلامه ٠ فلم يكن له بد من أن يجيء المدينة ٠ أصبحت المدينة في نظره أرض عسل ولبن ، جاءها بآمال واطماح ورؤى ، خالها الملجأ الذي يمنحه ما حرم ، فقصدها وهو يطمع أن يأخذ منها وأن يستدر خيراتها ٠

لكن المدينة لم تكن ما أمل فيها أن تكون ٠ قصدها بعد وفاة أبيه ، وهجر « التلال والوديان والكروم » ـ الى ماذا ؟ « الى الحي المظلم بما فيه بيوت كالقبور ومراحيض فائضة وهواء ملوث» ٠

في سائر قصص جبرا ، والبطل فيها أصبح في شبابه ، وصفه ورموز مستفيضة للمدينة ، لا كما خالها أولا بل كما وجدها وقد عاش فيها • انها الآن ليست مدينة ، متروبوليس ، بل هي مدينةموتى ، نكروبوليس ، ليست أرض عسل ولبن ، لكنها أرض جدباء خربة•وكأن وصفها صورة أدبية جديدة لاسطورة قديمة، أسطورة الارض البوار ، التي حاقت بها اللعنة ، فأقحلت بعد خصب ، وخبا في أهلها بريق الحياة •



المدينة ، اذا ، كما وجدها البطل ، موطن الموت ، لا الموت الفعلي بل ما هو أرعب : الموت الروحي ، الذي تعرض له الأدب والفكر الحديثان وأسمياه الموت ـ في ـ الحياة • أفرادهـا أموات ، « ماتوا من جوع قلوبهم » ، وخلوا من الهدف والطموح ، لا لانهم فشلوا فيما كانوا يهدفون له ويطمحون اليه ، بل لانهم لا يعرفون أساساً ما يريدون • انهم تعابى ، استبد بهم الوهن ، أجسام انسانية ، لكن بغير حياة ، بغير روح • أحدهم يسمي بيتهجهنما، وآخر يدعو الزقاق جحيما ، وثالث يلخص وصف المدينة الىصورة هائلة : « أو لو آخذك بيدك يا رشيد فأقتادك ، كما أقتاد فرجيل دانتي ، في جحيم المدينة القديمة ، وأطلعك على طبقة فوقطبقة من أناس يتلوون مرضا ، وأطفال ينافسون الكلاب على عظمة في القمامة ، ونساء يزعقن لله من الجوع في أحشائهن • ولسوف ترى هناك رجلا يطعن آخر بسكين من أجل قرش ، ونساء تنشب البعض أظفارها في وجوه بعض من أجل بضعة دريهمات اكتسبها ولد لهن هزيل مصفر • ولعلك حينئذ يغمى عليك وتقع أرضاً كالجثة الهامدة » (صراخ في ليل طويل) •

لا خلق في المدينة ، ولا حركة ، ولا نشاط • أبدا لا نسمع فيها ضوضاء البناء ، أبدا لا نشهد فيها الحركة أو الحياة ، ولا نلمس قلبها ينبض ـ على الرغم من أنها ليست بالمدينة الكبيرة الهرمة ، بل فتية كما يبدو ، لكنما بدون عزم الفتوة وآمالها • لا صخب في المدينة ، لا عنف • أفرادها يفكرون بالانتقام من عدو لكن الانتقام لا يتعدى التفكير • أحدهم يقتل منافسا له في حبه ، لكنه يقتله في أحلام اليقظة لا في الواقع • انهم أعجز من أن يقرروا شيئاً ، وان أفلح أحدهم صدفة في تقرير أمر قصر عن تنفيذه •

أشخاص القصص لا يسعون الى افتداء الزمن ، بل يعملون دوما على قتل الزمن • المقهى هو المكان الوحيد الذي يجمع شملهم ، واستكانات الشاي وأرباع العرق هي الشركة الوحيدة التي تربط الانسان بالانسان في أرض البوار هذه ـ شركة خرقاء لا تعمر ، ولا تنجم عنها نشوة في الروح بل قيء يعم القاعة • العرق هو الملجأ الوحيد الذي يفيئون اليه ، تخدير الاعصاب وقتل الحس ، ولو أن بمقدورهم أن يخدروا ذاتهم أكثر من ذلك لفعلوا ـ لو أن بمقدورهم أن ينسحبوا من الحياةلانسحبوا، لفشا الانتحار : لكن الانتحار يستدعي عزما ومشيئة ليسا لهم• مرة واحدة نرى شخصا ينتحر (في « النهر العميق ») ، وفي ظروف مبهمة ، ومرة ثانية نرى فتاة أخرى تلجأ للانتحار (في « الاختان وفاكهة من الشوك ») ـ لكنها تأخذ جميع الاحتياطات مسبقا كي لا تموت • لكن لا حاجة لابناء المدينة أن ينتحروا ، أن يطلبوا المـوت عوض الحيـاة ، فهم أمـوات ، أموات في هذه الحياة •

ليس في المدينة غير الأسى والذل والحقارة ، ليس فيها الا « قبح الجوع والمرض ، قبح البيوت التي لا يدخلها هواء ولا شمس ، قبح الحياة وقد امتدت بها السنون ولم تعرف يوما طعم الحب »٠
أهــل المدينة ذاتهم يرون هذه القبائح ، يحسون بوجودها ، يتحدثون عنها ، لكن لمجرد التحدث لا أملا في تقويمها ، يتحدثون عنها بلا مبالاة وبغير ندامة وبدون برامج للاصلاح ٠ يتحدثون عنها لأنهم يعجزون عن التحدث عن أمــور سامية ، عن قضايا كبرى ، عن اختبارات ذات معنى ٠ كلهم يتكلمون عن الحقائر والوضائع ـ وكأنهم كالمرأة التي شبهها المؤلف ، في روايته ، « بتمثال عبوس فوق حوض تنصب من فمه القاذورات » ٠ واذا لقينا رجلا لا يرى المباذل والاقذار التي حوله ، بل يجلس على عتبته ويدقعلى عوده ويغني ـ فهذا الرجل هو عزيز٠٠٠الاعمى٠
قد نرى أهل المدينة يتعرضون أحياناً لقضايا أدبية وفكرية ، انما يفعلون ذلك في مقهى عام شعبي ، ونشعر في الحال انهم يرددون أقوالا ، وانهم يعودون الى المواضيع ذاتها يوما بعد آخر بدون أدنى تقدم ٠ أشخاص القصص انصاف مثقفين ، تنبعث عن شفاههم أحيانا كلمات كبيرة عن مواضيع هامة ، لكنها لا تؤثر في حياتهم ٠ دوما يتكلمون عن الشيء ذاته ـ ودوما يتكلمون٠ وكأن أحاديثهم مونولوجات ، وكأنهم غرامفونات تعيدالاسطوانات ذاتها مرة بعد مرة ٠ ان أحاديثهم ومجالاتهم الطويلة هذه لهي أيضا رمز للملل في المدينة ، وللحركة البطيئة المتثائبة ،وللانحلال والاحتضار ٠ انها ليست هدفا في ذاتها ، لكنها سبل للتخلص م نالسأم والفراغ ـ كالعرق الذي يلجأون اليه ٠ ان الكلام لهم لهو الوسيلة التي يخدعون بها ذاتهم ، فيشعرون (في قول جان كوكتو) بأنهم أحرار ، ويبذرون تلك الحرية في ثرثرة لا حد

نها ، كرجل يركض ويركض ، أسرع وأسرع ، لانه خائف ، أشخاص قصص جبرا ، أبناء المدينة التي يصورها لنا ، ثرثارون لانهم خائفون • انهم يتكلمون بكثرة ، كالمرضى • انهم يتكلمون بكثرة - لانهم مرضى •

لكن السأم والبطالة والفراغ الذي تعيش فيه المدينة ، متأصل فيها ، بحيث لا يستطيع أبناؤها أن يحتالوا عليه بالكلام المتواصل فالسأم متفش بين الجميع ، والمقاهي تعج لانها تعطي الاهالي مجالا واسعا سطحيا مؤقتا للقضاء عليه • وهم يقبعون فيها معظم النهار والليل ، بدون حراك ، بدون عمل ، اذا مشى أحدهم مسرعا ، لسبب ما ، استغرب ذلك رفيقه وتساءل : « مستعجل ؟ عندك شغل ؟ » • ان الشلل قد أقعدهم جميعا ، انهم قد أصيبوا باللعنة ، التي يؤكد أحد أشخاص القصص بأنها ستصيب جميع السكان ، قد أصيبوا بما أسماه الناقد الاميركي ايفور ونترز « سبات الروح » ووصفه بأنه « الخطيئة المميتة العظمى » • حتى أعمق وأقسى مشاكل الفرد لا تثيره • في قصته « عرق » يوبخ عباس صديقه مصطفى لانه لا يفعل شيئاً وحبيبته ستزوج من غريمه خليل : « انه سيتزوج عما قريب من اميمة ، وما الذي ستفعله أنت حينئذ ؟ ستجلس معي في المقهى ، وتحصي الغادين والرائحين » • المصيبة الكبرى في المدينة أن أهلها عاجزون عن العمل ، لا أنهم يعملون ما لم يكن ينبغي عليهم أن يعملوا • في معرض مقال لاليوت عن بودلير يقول انه الى الحد الذي نحن فيه بشر ، ما نفعله يكون اما شرا واما خيرا ، والى الحد الذي نفعل فيه شرا أو خيرا ، نحن بشر • ويزيد : وانه لافضل ، وهنا المفارقة ، أن نفعل شرا من أن لا نفعل

شيئاً : فاننا ، والحالة هذه ، نكون قد أثبتنا وجودنا على الاقل • أهل المدينة الميتة لا يستطيعون حتى أن يفعلوا شرا ــ انهم لا يفعلون شيئاً ، ان وجودهم ذاته موضع شك •

وليست في المدينة أية علاقات انسانية بين الفرد والفرد ، ليست ثمة شركة أو تماس أو اتحاد • الروابط معدومة ، والوحدة مسيطرة ، وكل امرىء جزيرة وبمعزل عن سواه ، وخلو من أي احساس بمسؤولية تجاه مجتمع أو اتجاه أفراد • ولا عجب : فالمدينة ميتة ، المدينة جحيم ، و « انني لاسمين هذه المدينة جهنما وفوضى ، حيث كل امرىء معني بذاته وما من أحد معني بسواه » ــ كما كتب روبرت كاولي في قصيدة قبل أربعة قرون •

هذه الغربة الروحية من أبرز مظاهر الارض البوار ، وجبرا يصورها لنا بقوة عن طريق الاحداث البسيطة التي لا تعني كثيراً بعد ذاتها ولا تزيد في سياق القصة أو تنقص ، لكنها كرموز تبدو ذات أهمية • فعلاقة الاشخاص واحدهم بالآخر هي على الدوام علاقة تافهة ، يلتقيان حول كأس أو فنجان ويتحدثان عن سفاسف ، أو يتجادلان وسواهما حول قضايا مهمة انما بطريقة تقلبها عادية • الاشخاص تائهون ــ حتى القطة أيضا « في حيرة » • أفراد المدينة نكرات ، مجهولون ، لا أسماء لهم ولا كيان ولا شخصية ، لا رباط بينهم ــ ان اجتمعوا خارج مقهى فليس في حلقة أو ناد أو معبد بل في سينما ، حيث يقضي الظلام على أي رابط قد ينشأ بينهم ، وحيث يلفظون خارجا بعد ساعتين أو أقل فيعودون كما كانوا • أفراد المدينة مجرد أشكال ، لا وجود لها ــ يمر البطل ، في الرواية ، بساحة المدينة الكبرى ، « وهي قلب المدينة » ، فاذا كل ما يراه « أشكال سوداء

لرجال واقفين على عتبات الابواب ، لفظهم سيل البشرية ، فاتكأوا على الجدران ، والسجائر متدلية من أفواههم ، وأيديهم مغروسة في جيوبهم » • واذ يتابع سيره ، وحيدا ، عاجزا عن لقاء انسان يتحدث اليه كانسان ويخرج بنفسه الى نفسه ، ينطلق من الظلمة انسان ويحادثه ــ انما هذا الانسان قوادة ، والحديث بينهما : « أتريد فتاة حسناء هــذه الليلة ؟ » أو ينطلق آخر ويصافحه ويحييه ــ لكنما يكتشف بعد لحظة انه صافحه وحياه خطأ اذ أنه لا يعرفه • التماس موقت وتافه وناجم عن خطأ • البطل فريد ، كل انسان فريد ، لا علاقات ، لا معرفة صحيحة • الناس في ظــلام فلا يعرفون ، وان رأوا الغير فانما يرونهم بشــكل لا يعرفونهم به ، كما في وصف البيت الذي كان يسكنه البطل في المدينة : « كنا ننام جميعا على الارض ، ولم تكن في غرفتنا كهرباء ، بل قنديل نفط لعين الرائحة • ولم تكن لنا نوافذ تطل على أشجار وزهور ، بل فتحات في الجدران تكاد تكون على مستوى أرض الزقاق ، فلا نرى الا سيقان المارة ، فنعرفهم من سيقانهم » • (في « الكتب وحفنتان من تراب ») • في هذه القصص قلما نلقى الاشخاص داخل بيوتهم ، أو مع حبيباتهم ، أو مع أصدقائهم ، انهم دوما وحيدون ، أو مع السوى لكنهم هناك أيضا وحيدون ، يتذرعون على الوحدة بمختلف الوسائل المبتورة •

في حال غربة الفرد عن الآخر هذه ، المجتمع كله يضحي مريضا• الفرد مريض ينقل عدواه للمجتمع ، والمجتمع المريض يفتك بالفرد فيعديه بدوره • الفراغ الروحي لافراد المدينة يبعث الشلل الاجتماعي ورائحة جثثهم تلون المدينة بالفساد ، والشلل

الاجتماعي يفتك بهم ويزيد في فراغهم الروحي • حلقة مفرغة خبيثة ، لا مخرج منها في المدينة الميتة •

وفي المدينة لا حب ، اذ الموت حل مكانه • لا أن الحب اختلط بالموت ، كما هو يفعل في الحياة وفي الادب وخاصة الرومانطيقي ــ بل ان الموت طرد الحب واعتلى عرشه ، كما في حلم بطل « صراخ في ليل طويل » عن سمية ، التي انبعثت رمزاً للحب وقائدة لسفينة العشاق لكن شبح الموت أهوى عليها وأغرق العشاق • فأشخاص المدينة ، الذين يعجزون عن الحياة ، يعجزون أيضا عن الحب • وقد أصبح « الحب يغذي الموت ، والمضاجعة رمز للموت » ، بدل أن يكون الحب والمضاجعة رمزا للرجوع الى الرحم ، للعودة الى ما قبل المدينة ، الى ما هو عبرها •

الحب في المدينة حب عيي ، قوامه الكبت والحرمان ، يضربان الرجل فيها كما يضربان المرأة ، ويفقدانهما بهجة الحياة ، ويقعدانهما عن الانتاج ، فيقويان فيهما بذور الانحلال • في سائر القصص نلمح تلهف الرجل على المرأة وتلهف المرأة على الرجل ، دون أن يستطيع أيهما تحقيق آماله أو الوصول الى الحبيب • في الحب ، كما في مرافق الحياة الاخرى ، أفراد المدينة أعجز من أن يخرجوا عن التفكير الى التنفيذ • انه حب جامد لا يتحرك ، حب منعزل عازل بالحبيب عن الحبيب ، حب يسميه المؤلف برفق « لعبا بالانف » • حب موقت ، حب فورة لا تؤول الا الى قيء • نداء الحب في المدينة نداء تقويد ، والحبيبة فيها هي المرأة البغي ــ والمومس في هذه القصص شخص رئيسي وان كانت لا تظهر على المسرح • الحب حب خصي ، يكتفي منه المحب بالتحدث عن الحب ، وبنظم القصائد

فيه • نقرأ في بعض القصص عن حب لاهب عارم ، نقرأ مصطفى يستعيد حبه لاميمة ، واصفا اياه حبا « بالدم ، ولفائف اللحم، وتلافيف الدماغ ، بالاحشاء والكبد والمرارة » ، فنخاله محبا ناجحا توصل الى الحبيبة ووفق بين روحية الحب وجسديته ـ لكننا نكتشف في الحال انه انما كتب فيها شعرا وانه ما حصل منها الا على « قبلة مختلسة منذ سنة أو أكثر » • ويبلغ الحب الانحطاطي ذروته في حسين في « أصوات الليل » ، الذي يرتاد الماخور بانتظام ، يذهب الى فتاته المفضلة فيه وبيده قصيدة ـ ويعود دون أن يمسها ، وفي مصطفى في « عرق » ، الذي « يلتف خياله حول ساقي اميمة ، ولكنه يكتب عن عينيها ، يتمنى لو يجرها من شعرها الى ضفة دجلة ويتمرغ معها عارية في الطين ، ولكنه يكتب عن لوعة نظيفة نقية » •

ليس في المدينة حب ناجح ، كامل • جل أشخاص القصص عازبون وعزباوات أنهكهم الكبت ، أو لم يجدوا غير المواخير منفذا لشهواتهم المتحرقة • لكن المتزوجين منهم هم أيضا لم يصلوا الحب الكامل الناجح • فيوسف في « الغرامفون » ، الذي يبيع آخر ما تبقى له من متاع الدنيا ليحصل على قبلة (قد لا يكون حصل عليها) من امرأة رخيصة ، ليس بأكثر فشلا في الحب من رشيد في « صراخ في ليل طويل » ، الذي اذ يجتمع في حلقة مع عدد من العازبين الكابتين الاشقياء يحمل على نظرتهم الى الحياة والى المرأة ويردها الى العجز عن الزواج والحب الناجح والاتصال بالمرأة ، متناسيا ان حبه هو ليس بالحب الناجح وأن زواجه لم يوصله الى الجنة المبتغاة ـ ولعل من أبرز المظاهر لاندحار الحب في المدينة أن الشخص الوحيد فيها الذي يدافع عن

المرأة والحب هو رشيد هذا ، المتزوج من امرأة لا تحبه وتخونه بانتظام ٠ انه يستمع الى رفاقه ، ويلمح حبهم مجرد عمل جنسي ذاتي ، فيروح بثقة خرقاء يداعب جسد زوجته على مرآهم ، لكن مداعبته لها هي أيضا عمل جنسي ذاتي لانها غير متبادلة ـ وحين يصيح في وجوههم بعنطزة مضحكة : « لكم أن تتمرغوا بالزبل ان شئتم ، أما أنا فلي زوجتي » ، نبتسم بأسى ونجيب : وزوجتك ذاتها ، أليست هي زبلا زبلا ؟

والحب في المدينة ، بالاضافة الى هذا كله ، حب مبتور لان رجال المدينة فقدوا القوة الجنسية ـ كأنما تلك اللعنة التي قرأنا انها لا بد ستصيب المدينة هي ذات اللعنة التي قضت على القوة الجنسية للملك في أرض البوار الاسطورية وبالتالي على قوة شعبه جميعا ٠ فرجال المدينة « تصيبهم العنة ـ والعنة متفشية فيهم حتى غدت أكثر نساء المدن أما مساحقات أو متهتكات ، لان أزواجهن عاجزون عن تمتيعهن ٠ حب مبتور ، لانه حب عقيم : في جميع هذه القصص نلمح بوضوح انجابا لاولاد ، المرة الوحيدة التي نقرأ فيها عن امرأة في المدينة حبلت ، هي عن احدى الفتاتين في قصة « الاختان وفاكهة من الشوك » ـ لكن حبلها ذلك كان ادعاء كاذبا فحسب ، زد الى ذلك انها حين ادعت أنها حبلت ادعت أيضا أنها أجهضت : لا أثمار في المدينة الميتة ٠ في القصص نقرأ هزءا بالمظاهر الانثوية التي ترمز للصحة والعافية والمقدرة على الانتاج ، ونرى اهتمام رجال المدينة ، في معرض التحدث عن جسد المرأة ومايبعث من شهوة ، مصوبا بتكرار الى مؤخرة المرأة ٠

في المدينة نجد نوعا فريدا من الزمالة والرفقة ، زمالة الاشخاص الذين قتل فيهم الحب والذين قعدوا عن الحركة : فالظاهرتان

متصلتان تمام الاتصال • كما نجد هؤلاء الاشخاص يعملون جهدهم على تقريع القلائل الذين فكروا في الحب (ولا نقول أحبوا) ، وعلى القضاء على حبهم قبل أن يهيأ له أي نجاح •

في القصة التي سميت هذه المجموعة باسمها نقرأ عن عباس ، المحاسب ، الذي « اهترأت أطراف أصابعه بعد الدنانير ، دون أن يستطيع أن يضع شيئاً منها في جيبه » • ان في هذه الصورة وصفا رمزيا لرجال المدينة وعلاقتهم بالحب والمرأة : يتحدثون عنهما طوال نهارهم ، ويتململون في فراشهم لاجلهما معظم ليلهم، دون أن يفلحوا في التعرف الصحيح اليهما أو التمتع بهما أو الوصول الى الذروة في علاقاتهم معهما •

هذا هو الحب في المدينة ، شأنه شأن تمثال الزهرة ، الهة الحب ذاتها القابع في دار ركزان ، في رواية جبرا • التمثال الذي ينظر اليه البطل ، ويحدق في الالهة فيـه ، فيراها وقد بدت « كغصن يابس منحن » • الهـة الحب ، الجميلة ، الغيناء ، المتشقة ، تبدو في المدينة « كغصن يابس منحن » •

كذا الحب في المدينة لان اللعنة قد ضربتها والموت نشب فيها وفي الحب أظفاره • لكنه كذا أيضا لان أهل المدينة يكادون ، في القصص ، يكونون مقصورين على الرجال دون النساء • فالمرأة، التي هي دوما مدار الحديث ، قل ظهورها في القصص ، وانما نحن نقرأ عنها ونحس بوجودها ونكاد ننقم عليها دون أن نسمع صوتها أو نراها الا قليلا • • والرجال لا يتحدثون عنها الا ليهاجموها ، ولا ترد على لسانهم الا لتصب عليها بسائر أجزائها قاذورات ذلك اللسان • فالمرأة لرجال الارض البوار جسـد فحسب ، فيـه طاقات للشهوة ولاشباع الشـهوة ، لكن عقلها

« لا يشترى بفلسين » • المرأة أنانية انتهازية همها ارواء صدى فيها غريزي ، المرأة سادية لعينة فاتكة ، المرأة أبدا مبعث شك ، ومصدر بلايا وشرور • ولعل في قصيدة عدنان في «أصوات الليل» خير تلخيص لفكرة المرأة في المدينة الميتة ، تلك القصيدة التي فحواها : « ان النساء يعظمنك رمزا لشهواتهن لكي يصلبنك يوما على نخلة وفمك فاغر لغبار الهجيرة • فيسكبن الخمر على قدميك ، ثم يأكلن عينيك ويندبن شفتيك لان ليس من يقبلهما، ثم يرقصن حول أوصالك وهن يقطعنك عضوا عضوا ، يسكبن الخمر من جديد ، ثم يفرغن مثاناتهن ، فينمو الشوك كثيفا حول بقاياك » • والمرأة على الدوام موضوع سخرية لرجال المدينة ، حتى الشيء الوحيد الذي يعجبهم فيها ، جسدها ، لا ينجو من نسج سخريتهم ، فتراهم يصبون هزءهم ودعاباتهم المنحرفة حول أجمل أعضاء جسدها ، مؤخرتها • فاذا كانت هذه نظرة نصف أهل المدينة لنصفه الآخر ، فكيف يتأتى لها أن تكون بمنجاة عن اللعنة ؟ بل ان اللوم في هذا لا يقع على نصف واحد دون الآخر ، فالمرأة بدورها ميتة هي أيضا • وفي مدينة كالتي يصفها المؤلف ، يصعب علينا أن نلوم الرجل على نظرته الشوهاء هذه الى المرأة ، فالمرأة ذاتها لا تستحق نظرة خيرا من تلك بكثير •

والمرأة في مفهوم رجل المدينة واحدة من اثنتين : امرأة يتصل بها لينفس بهذا الاتصال عن حاجات فيزيولوجية بحتة ، وامرأة يتشوق الى أن يتصل بها لكنه ، في نطاق هذه المدينة الميتة ، لا يتاح له هذا الاتصال • المرأة واحدة من اثنتين : مومس ، وأثيرية ، كل منهما ليست المرأة التي تعرفها المدينة الحية ، ليست المرأة التي عن طريقها يرجى الخلق والانتاج والخلاص•

ولان احدى هاتين المرأتين أثيرية ، تظل مجهولة لاشخاص القصص، حتى ان التقوا بها وخالوا انهم قد عرفوها لم تكن هذه المعرفة الا وهمية واهية • فالمرأة غير المومس لغز أبدي لهم • نلاحظ هذا أوضح ما نلاحظه في « ملتقى الاحلام » وفي «صراخ في ليل طويل » ، حيث نرى جهل الرجل بالمرأة وما يؤول اليه هـذا الجهل مـن كوارث • البطل يتعرف الى امرأة ليست مومسا ، فيخالها أثيرية ويحادثها كما لو كانت أثيرية ، يتغزل بها وكأن ما أمامه ليست امرأة انسانا بل شيئا خارقا فوق تفكيره ،وعبثا تحاول هي أن تجره الى الواقـع ، ان تقنعه بضرورة الدمـج والتوحيد • انه يرى ساقي سمية في أول علاقته بها فيتساءل : « أي نحات نحت ساقيك ؟ فضحكت وقالت : خيالك أنت ! فقلت: انك أشبه بتماثيل الاغريق ، ولكن لعلك لم تصنعي من الرخام بل من أوراق الزهور ، فقالت : بل مـن لحم ودم » • وحين يلتقي بها لاول مرة ، وسط عاصفة ماطرة في مكان غير مأهول ، يسألها : « أسيدة في حرج ؟ » كأنما هو فارس وسيط يسعى لتخليص « سيدات » البلاط ـ فتجيبه بتهكم لطيف وواقعيةوفهم: « نعم ، ومنتقعة أيضا ! » وأنور يقول لرباب : « أنت الارض الغنية بالكنوز ، أنت البحر في الليلة المقمرة ، أنت غابةالشعراء ••• أنت نار في أيام البرد ، وطعام في أيام الجوع » ، فترفع يمناها لتوقفه وتقول مستضحكة : « أجل يا أنور أنا كل هذه الاشياء معا ، ولكنني أيضا مخلوق ضعيف ، أخشى الزكام اذا تعرضت للريح ، يصيبني الصداع في بعض الليالي فلا أنام ، أكره بعض الناس وأود لو أشنقهم لاتخلص منهم » • ان بطل الرواية في كافة علاقاته بسمية ، في طور حبه لها ، وفي طـور الزواج ، وفيما بعد تركها له ، لا يفتأ ينظر اليها كلغز يتعذر

عليه حله ، فلا يعرف لماذا تتصرف معه كما تتصرف ، ولا يعرف لماذا تركته حين تركته ، ولماذا عادت اليه حين عادت • انها لغز أبدي ، لم يفهمه منذ البداية ، ولن يفهمه ـ الا عندما يحين الخلاص •

اذن فلأن المرأة مومس لن يتأتى في المدينة حب كامل ، ولان المرأة مجهولة لن يتأتى فيها حب صحيح • لان الرجل ينظر اليها كأنها هذه أو تلك ، اذا كانت مومسا لم تكن انسانا واذا كانتمجهولة أغرقها بالتأليه حتى يكتشف أنها ليست أهلا به فتعود في نظره الى مصاف المومس ـ لانه ينظر اليها هذه النظرة لا يعرفها امرأة حقا ، حرية بأن تعيش في المدينة فتقلبها من الموت الى الحياة • لذا فهو عاجز دوما عن دمج فكرتي المرأة في واحدة ، عن النظر اليها كانسان ، كمخلوق له جانبه الجسدي وله جانبه الروحي ، عن الخلاص من الاضداد والوصول الى ما يسميه جميل في « الكتب وحفنتان من تراب » « فترة الغسق » ، التي « نتأرجح فيها بين الاضداد ، فنلمح الفراديس لحظة وهاويات الجحيم لحظة أخرى ، ونكاد نلمس العفاف بيد والدنس باليد الاخرى ••• ان المحظوظين القلائل منا يعيشون في فترات من الغسق متوالية » • ومن المفارقات أن الشخص الذي اهتدى الى الضرر الناجم عن هذه التجزئة ونادى بضرورة الدمج ، هو رباب ، ورباب هذه ، كما يرى القارىء ، ليست شخصا واقعيا بلوليدة خيال ـ انها ليست أحد سكان المدينة •

هذا الجهل للمرأة ، والقعود عن محاولة اكتناه السر ، يقود للفشل ليس فقط في العلاقات الانسانية والحبية في المدينة ، بل انـه يؤول للفاجعة الكبرى في السياق الاسطوري للأرض

البوار • فالاسطورة تشدد على أن على البطل أن يعرف سر الاشياء اذا شاء أن يعيد للأرض البوار خصبها وانتاجها وخلقها، وعليه أن يرتاد كنيسة الاخطار ويسأل فيها عن كنه الامور والاشياء ، واذ ذاك فقط تمحي اللعنة التي حلت على الارض • لكن البطل في قصص جبرا يعجز ، ما دام في المدينة ، عن فعل ذلك ، ولا يتمكن من معرفة السر • لذا تظل المدينة ميتة ،ويظل هو خصيا ما دام فيها ، ويكاد يصغي الى هذه العبارات تصب على مسمعه ، كما صبت على مسمع الفارس في قصة « بريدور » حين لم يصل الى الوقوف على الاسرار ولم يستفسر عما رآه في قلعة العجائب : « لو انك فعلت ذلك ، لعادت الى الملك صحته وعاد الى ممتلكاته السلام ، لكنه من الآن فما بعد سيكون عليه أن يتحمل الحروب والمشاكل ، وسيفنى فرسانه ، وسترمل الزوجات ، وستترك العذارى بلا نصيب ـ وكل هذا بسببك أنت» •

★★★

هذه ، اذا ، هي المدينة التي يجيئها بطل قصص جبرا ، المدينة التي خالها مدينة خلاص فألفاها مدينة هلاك فماذا يفعل ؟

المنفذ واحد : طالما هو داخل المدينة هذه لا أمل له في النجاة • في أساطير الارض البوار ، على يد الفارس يأمل الملك وتأمل مملكته الشفاء • لكن بطل هذه القصص ليس فارسا فلم يفعل ما كان مفروضا في الفارس أن يفعل ، لم يستفسر عن مغزى الرموز في كنيسة المخاطر ، لم يحاول الوصول الى كنه الاشياء في المدينة ، نفر من المجتمع الذي حوله ، تهكم بالمرأة بدل أن يعرفها كانسان ، لم يعرف أبناء المدينة الا عن طريق المقهى ،

كان متجفجفا وحيدا ، لم يسع الى حمل البعث الى المدينة الميتة
ـ بل كان همه أن يبعث هو وأن ينجو من الهلاك المحيق به ٠
انه لم يأت المدينة أساسا ليخلصها بل أتاها ، كما يذكر القارىء،
اما مرغما أو طامعا في الحصول على أمجاد فيها وعلى راحةوثروة٠
انه لم يأتها ليعطيها بل أتاها ليأخذ منها ٠ لذا ، أثناء اقامته
فيها ، لم ينج من الجراثيم المنبعثة عنها ، بل تعرض لها كما
تعرض لها أبناؤها ذاتهم ٠ ففي سائر القصص نرى البطل في
وضع غير مستقر : فهو ، في « أصوات الليل » مثلا ، من الاشخاص
وليس منهم ، يجالسهم ، يستمع اليهم ، يتحدث قليلا ، لكنه يرى
أحاديثهم ومشاكلهم بدائية بالنسبة اليه ويشعر بتقصيراتهم ،
هو معهم معظم الوقت ، لكن ليس طيلته ، فهو يوزع اهتمامه
من اهتماماتهم واهتمامات سواهم ، فيضطر لذا لتركهم وللذهاب
الى مستوى ومحيط وآفاق لا يعرفونها ، لكن هذه الآفاق ذاتها ،
كما نكتشف بعد قليل ، ليست في الواقع أرحب ، ولا المستوى
أعلى ، من آفاق صحبه ومستواهم ٠ بل انه لا يستطيع أن يتركهم
وقتا طويلا ، فهو يعود الى المقهى ، وحين لا يجدهم فيه يلحق
بهم الى المقصف ، ليلتقي هناك بهم وبرفيقهم المسيطر ، القيء٠
انه أصبح منهم الى حد كبير ، فصار عرضة لفتك مرضهم الجماعي
به ـ فمرض ، وصار يرى الناس مرضى ، والمدينة عليلة ، لا لان
الملك فيها مريض ، بل لانه هو ، الطبيب الذي كان يمكن أن
يكون ، هو مريض ٠ أصبح كأبناء المدينة ، وصار مثلهم في حكم
الميت ، لكن يستدرك في الحال ويقول له : « ولكني أراك ميتاً»٠

غير انه ما زال هو البطل ، ما زالت له رسالة ٠ انه يشعر أن
عليه أن ينتفض ، وأن يسعى للخلاص ٠ لكن هنا أيضا ، مفهومه

المخلاص يختلف عن مفهو الفارس الاسطوري ، فسعيه انما هو لخلاص ذاته لا خلاص المجتمع ، حتى ولا خلاص القلة التيتضع يدها في يده ، مثل ركزان التي يقول لها باصرار : « عليك أن تبحثي عن حياتك الجديدة وحدك » • فلا نجاة المدينة تهمه ، ولا عودة الرجولة للملك ، ولا خصب الارض ، ولا حياة الناس والمواشي والنباتات ، تعنيه ـ كل ما يعنيه أن ينتفض هو ، وأن يخرج هو من المدينة ، وأن يجد المجد وراحة البال والظفر، الذي عجز عن ان يجده في المدينة • هدفه اذا ليس أن يعيد الحيــاة الى الارض البوار ، بــل أن يجتازها هو وأن يجــد الظفر عبرها •

وهو الآن يعبر الارض البوار بوعي وادراك ، فينجح فيعبورها، لا بجهل وعن اضطرار كما دخلها ، ففشل في اقامتــه فيها • ترك المدينة يجب أن يكون تلقائيا وواعيا ، المعالم يجب أنتكون واضحة لــدى البطل ، ليتسنى لــه الظفر • لا مثل يوسف في « القرامفون » ، الذي ترك عالمه ـ المدينة الى عالم آخر ، لكنما فعل ذلك مرغما لا مختارا ، فظل طيلة عيشه في عالمه الجديد يتحسر على القديم الذي ترك ويسعى للعودة اليه ، ظل كزوجة لوط التي انقلبت لذا الى عمود ملح ، أو كيوريديسه التياختفت عن زوجها الى الابد •

أما الطريق التي بها يخرج البطل مــن المدينة ويعبر الارض البوار ، فتبدو لنا واضحة ، اذا ذكرنا أن المؤلف وبطله ليسا بعيدين واحدهما عن الآخر ، وان جبرا ، في الكتابين اللذيننحن بصددهما ، انما يفعل ما يفعله كثير مــن الادباء حين يخطون « رسما للفنان كـ ••• » ، فيخط هو هنا « رسما للفنان كعابر

للأرض البوار » • فهذا العابر ، هذا البطل ، هو فنان ـ لذا فطريق الخروج والظفر لن تكون غير طريق الفن • والبطل يدرك ذلك على الدوام ، منذ صباه ، حين كان في محيطه الضيق المرهق يجد في الكتب منفذا من محيطه وتغلبا على قيوده ونسيانا لواقعه، بل ان بعض سكان المدينة الذين يشعر نحوهم البطل بعطف لا يشعر بمثله نحو سواهم من مواطنيهم يدركون ذلك ، مثل عفيف في « نوافذ مغلقة » ، الذي يجد في الغناء نصرا على الواقع الممض ، ومثل أنور في « ملتقى الاحلام » ، الذي يترك المدينة ليكتب كتابا فيسترد بذا ثقته في الناس • فالفن ، وقل الادب، لبطل قصص جبرا ، تعويض عن انعدام الالفة والتماس بين أهل المدينة الميتة ، وهو « النقطة التي تتوازن فيها الاضداد ،والشكل الذي تترتب فيه الالوان ، قاتمها وزاهيها ، بانسجام » ، وهو الملجأ الذي يلجأ اليه حين يفشل في علاقته الحبية مع زوجته التي هجرته ، متنقلا بذا من « الجدب » الى « الخصب » ، من الارض البوار الى ما هو عبر الارض البوار•

لكنما البطل فنان وليس مرتزقا ، لذا فالفن وحده كفيل بفتح الطريق ، لا الكتابة أيا كان شكلها • على هذا فاحتراف الصحافة، الذي يميل اليه بعض أشخاص المدينة ، لا يجدي ، ولا كتابة الابحاث والقصائد في قضايا السياسة والمجتمع والاخلاق ، التي يميل اليها البعض الآخر ، ولا ما يلجأ اليه البطل ذاته في فترة من حياته ، حين يكتب حسب الطلب كتابا كبيرا عن تاريخ أسرة ركزان وعنايت ، حين يكتب للارتزاق لا للفن لسواه لا لذاته ، حين يهدف الى خدمة المدينة والمجتمع ، « فيلتزم » ، وكأنما بالتزامه يضع حزام عفة على أعضاء فنه الحساسة ، بدل أن يكسر

الاحزمة عنها وييسر لها المتعة والخلق والاثمار • ان أدبا مثل هذا الادب كفيل بأن يجعل كاتبه عضوا فعالا في المجتمع ،فيصبح مواطنا صالحا • لكن هنا الفشل : البطل ، عن طريق هذا الضرب من الادب ، يصبح مواطنا صالحا انما في مدينة ميتة • المأساة أن البطل اذ يلجأ الى هذا الضرب من الادب ، يتناسى برهة أن هذا الادب غير الحي لا يمكن أن يحيي ، فلا المدينة تنتعش به ، ولا هو ذاته ينتعش • المأساة أن البطل يريد أن يبدع وينتج لكنما يريد أن يظل مواطنا ـ والاثنان متضاربان : فالمواطن في المدينة الميتة ميت ، وعبثا يؤمل أن ينبثق عن الميت ابداعوانتاج• فما دام البطل يسعى الى الخلاص ، الى خلاص ذاته بالدرجـة الاولى ، كان عليه أن ينسحب من المدينة أولا ، وما دام فنانا ، كان عليه أن ينسحب عن طريق الفن ، وأن لا يمومس فنهبقضايا المجتمع ، واما كان عليه أن يختار بين أن يكون مواطنا (ميتا) أو فنانا (خلاقا) ، فعليه أن يختار الفن والخلق •

أي ان على البطل أن يرفض المدينة ، أن يرفضها بعد أن يكون قد اختبرها ، وعاش فيها ، وحصل عليها • عليه أن يرفسها حين تنتفت هي اليه ، وأن يصد عنها بعد أن ترتمي هي عليه •

هذا الرفض الظافر هو الذي نراه في ختام قصة « عرق » •طوال القصة عباس هو سيد الموقف ، هو اللسان السام البذيء ، هو المدمر ، والمؤثر على مصطفى الى حد أن يجعله مثله يرىالبراءة فجورا ويتصور حبيبته النائية مومسا • عباس هو المدينةالميتة، ومصطفى ، البطل ، بصداقته له واستماعه اليه ، أصبح أو كاد يصبحمثله ، على الرغم من مثاليته ومن انه يحب ويكتب الشعر• لكن القصة لا تنتهي على هذا الشكل : ختامها ختام ظافر ،فعباس

يأخذ كتب مصطفى التي لا تفارقه ، ويقذف بها أرضا ، فيثور مصطفى ، و (وهنا الذروة) يضرب عباس ، وبعد المعركةيعود مصطفى ، لا ليصالح عباس الذي يتوق الى مصالحته ، ولا ليدفع ثمن العرق ، بل ليأخذ كتبه ، لينقذ فنه ومثاليته من المدينة الهالكة ــ « غير انه انحنى فوق الكتب الثلاثة التي كانت مبعثرة على الارض ، وقد داس عليها الرائحون والغادون أثناء المعركة ، والتقطها واحدا واحدا » • هذا الرفض الظافر هو الذي نراه في قصة « الرجل الذي كان يعشق الموسيقى » ، حيث يصرف « الرجل » عمره يطلب الثروة ، حتى اذا ما تجمعت له بفيض أكثر مما تجمعت لاي سواه في المدينة الجشعة ، هجر المدينة الى الجبال ، ومزق الاوراق النقدية عن آخرها • هذا الرفض الظافر هو الذي نراه في الرواية ، حيث ينتفض البطل وينبعث من تراخيه وخموله اللذين انتقلت عدواهما اليه من المدينة ، ويقف مترفعا على حبه الضرير المزري : كنا نتائها حائرا ممزق العواطف والافكار ، يريد لمسة ، مجرد لمسة ، من سمية ، لكن عندما تكون الذروة وتأتيه سمية ، تأتيه هي بدل أن يذهب هو اليها ، تأتيه بكاملها ، بجسدها كله وبنفسها كلها ، يطردها ، يرفض أن يمسها ، يرفض أن يبقيها في غرفته ، يرفضها خارجا • هذا الرفض الظافر هو الذي نراه في « نوافذ مغلقة » حين تعود الى البطل حبيبته الهاجرة ، وتعرض ذاتها عليه ، بشهوة وعنف واصرار ، فيتطلع في عينيها ويرى فيهما لا الحب بل الشهوة ، وهي كل ما تستطيع المدينة أن تقدم للمحب ، فيتركها ولا يعبأ بتوسلاتها وارتمائها ، ويترك البيت كله « دون أن ألقي على البيت نظرة أخيرة • وخيل الي أن السماء كلها تضحك ، وأن المدينة بجلبتها وضوضائها ترقص وتغني » ــ لاول مرة ترقص المدينة الميتة ،

له ، وتغني • هذا هو الرفض الايجابي الظافر ، لا رفض يوسف في « الغرامفون » ، يتم للبطل بعد أن يحصل على المدينة ، لا بعد أن يفشل فيها • يتم عندما يدرك مع أوروب في « قدموس » سعيد عقل ان « أشهى من الحياة » ، ان كانت هذي هي الحياة ، أن يزدري بالحياة » •

هذا الظفر يجيء البطل في خاتمةمطافه ، فيرفض المدينةويهجرها• يجيئه مع البعث ، الذي يعبر عنه جبرا في روايته بالانفجار • في أساطير الارض البوار الماء والمطر رمزان أساسيان ، لا بد من ظهورهما على المسرح قبل أن ينجح الفارس في مهمته ويحمل الخصب للديار الجدباء • وهما يظهران عددا من المرات في هذه القصص ، نذيرين دوما بأحداث هامة في سياقها ، لكنهما لايؤولان أبدا ، كما في الاساطير ، الى الخاتمة الظافرة ونجاة المدينة • فالماء بحد ذاته لا يكفي لبعث مدينة جبرا الميتة : هناك ما هو أفعل من الماء ، وعلى البطل أن ينتظره حتى يتسنى له الانبعاث• في الانجيل ان فوق معمودية الماء معمودية النار ــ وعلى البطل أن ينتظر النار •

ويكون الانفجار ــ النار في نهاية الرواية • تجيء سمية البطل متهالكة عليه ، تفتح له المدينة أبوابها وتهبه مفتاحها الذهبي ، لكن المطر يكون قد بدأ بالانسكاب ، فلا يستجيب لها • لكنها لا تتخاذل ، تعيد المحاولة ، واثقة من انه سيلين ، ويكاد يلين ، لان المعمودية ما زالت معمودية ماء فحسب ، حين تكون المعمودية الكبرى ، معمودية النار ، فيخرق الفضاء صوت الانفجار الشديد، ويتراءى للبطل البعث المرتقب • فبعد « الليل الطويل » الذي عاشه ، واقعيا ورمزيا ، طوال القصة ، حل الفجر ، « ونظرت

من النافذة ، واذا النهار قد انبلج رماديا صافيا ، ولم أكن قد لاحظت ذلك » • ويسمع الانفجار من جديد ، ويدرك بوضوح وجلاء أن « الليل » قد ولى ، والجدب قد زال ، وشوكة الموت قد كسرت ـ « فأدركت أن تلك نار مطهرة ، اندلعت هناك لتقضي على جراثيم سارية ـ لقد اندلعت لانقاذي أنا ، لتطهير لحمي ودمي • وتسمرت بالنافذة مسحورا بما أراه ، وبودي لو انفجر في ضحك متواصل كقصف انفجارات متواصلة متواصلة » •

اذ ذاك ، واذ ذاك فقط ، يستطيع أن يفرح ، وأن يصرخ في وجه سمية ـ المدينة : « ألا ترين النار ؟ انها تحرقك أنت » • اذ ذاك ، واذ ذاك فقط ، يرى انه كان يقطن مقبرة لا مدينة ، فيثور على الموت ويتخلص منه ، ويقول لسمية : « انظري الى نفسك : صفراء كالموت ، ذابلة كالموت • ولست أريد الموت بعد اليوم » • اذ ذاك ، واذ ذاك فقط ، ينجو من المدينة الميتة ،يعبر الارض البوار •

هذه النجاة عن طريق الرفض ، أسلبية هي ؟ انهزامية هي ؟ ان كل من كان عليه أن يقف يوما في وجه ماض بكامله ، تعلق به حتى صار جزءا منه ، وان ينظر اليه نظرة جديدة صائبة ، ويثور عليه ، وكأنما هو يمزق لا الماضي وحده بل يمزق ذاته شقفة شقفة ، ـ من كان عليه أن يطعن في فؤاده وفي فكره وفي حنايا جسده حبا عاش فيها وعمر ولكنه ظل فيها غريبا لميتوطن، ـ من كان عليه أنيصرخ الصرخةالاعمق والادمى : « لن أخدم »، مكررا مع بطلجيمس جويس في « وصفللبطل كرجل في شبابه »: « لن أخدم بعد ذاك الذي لم أعد أومن بـه ، سَمِّهِ بيتي أو موطني أو مذهبي » ، ـ يعرف أن هذه النجاة عن طريق الرفض

فيها ايجابية وفيها ارادة وفيها قوة ، وان فيها توغلا في الذات قل ان يوجد في النجاة عن طريق القبول ٠

وهذا السعي للخلاص الذاتي دون خلاص المجتمع ، أهو فردية ولا اجتماعية ؟ أنه يبدو كذلك ، الا اذا ذكرنا أن بطل جبرا فنان وليس فارسا مهمته ما كانت مهمات الفرسان في القرون الوسطى التي ظهرت فيها أساطير الارض البوار ، واذا ذكرنا أن البطل ــ الفارس في قصيدة اليوت « الارض الخراب » ، حين يشعر في آخر القصيدة بأن احياء الارض قد تعذر عليه ،يتساءل:
ألا أصلح اذا أرضي أنا على الاقل ؟ » ، وان نوح حين خرج من أرض الدمار صنع فلكا واحدا ولم يبن أسطولا أو يلتفت الى مواطنيه لينقذهم٠ان نوح أدرك ، بوحي من الله ، انمواطنيه غرقى حتى من قبل أن يغرقهم الطوفان ، فلن ينقذهم أنيحملوا الى جبل عال لم تصل ذروته المياه ٠ أدرك أن مهمتهالانسانية ، الاجتماعية ، هي أن يترك الارض الغرقى الى الجبل السامق ، ومن هناك يبني مجتمعا جديدا ٠

هذا بالذات ما يفعله بطل جبرا ٠ انه فنان يسعى لان « يصلح أرضه هو » ، ويركب الفلك لوحده ، مصطحبا معه فنه وحده قرينا له ، ليخلق عن طريقه مدينة أفضل وأرضا خصيبة ٠

في هذه المجموعة قصة عنوانها «الرجل الذي كانيعشق الموسيقى»، تختلف شكلاً وقالبا عن القصص الاخرى فيها ، ويصفها المؤلف ذاته فيها بأنها « قصة غريبة » ٠ وهي في الواقع كناية مطولة (اليجوري) ، يخص فيها جبرا ما كنا نقوله في الفقراتالسابقة، عن رفض بطله للمدينة بعد الحصول عليها ، وعن ابتعاده عن المدينة ، وخلاصه وحده من الموت فيها ، ولجوئه للفن لا سواه ٠

بطل هـذه القصة يثري بعد فقر ، ويحصل على المال الوافر والجاه الرفيـع ، لكنه يهجر المدينة على غير انتظار ، ويقصد الجبال والفلاء والصخور • لكنما في المدينة العامرة نقرأ انــه كان يعيش « في منزل متواضع » ، أما في الجبل الصخري الموحش فنقرأ ان « لم يكن البيت الذي ابتناه هناك مجرد كوخ بسيط ، بل كان أشبه بالقصر » • يعيش وحده ، يستمع الى اسطوانات موسيقية ، ويمزق أوراقه النقدية المتراصة ، نافضا عن نعليه الغبار الذي لحقهما من المدينة ، ويلجأ للفن ــ ويموت ، اذ قد أتم رسالته •

ما تقوله هذه القصة تقوله القصص الاخرى ، لكن فيها تقدما على تلك : فبطل هذه القصة لا يغلق على ذاته النوافذ حين يستمع للموسيقى ، لا يدفن فنه ، بل يرفع صوتها أعلى ما يستطيع ، يجعلها تعم الفضاء • بهذا يفعل نوح ــ يهجر المدينة ولكن يحمل معه نواة لغزو المدينة ولقلب المدينة أفضل مما كانت • انــه يغزوها بالالحان الموسيقية ، يغزوها لا ليأخذ منها وليسلبها لكن ليعطيها وليبعثها من جديد •

الفن الذي يلجأ اليه البطل حين يرفض المدينة الميتة ويهجرها ، سيكون هو الاداة لاحياء المدينة • طريق الفن التي يسلكها البطل ليعبر الارض البوار ، ومحجة الفن التي يقصدها حين يعبرها ، ستكون هي الماء ، والبزر ، والمني ، التي ستخصب الارض البوار ، وتعيد لحقولها الاخضرار ، ولملكها وشبابها الرجولة ، وتزيح عن عذاراها جدبة في أحلامهن وفي أجسادهن •

١٩٥٦ توفيق صايغ

عـــرق

« خذ خليل مثلا • هل يتردد في فتح فكيه ليتلقى بينهما سيلا من الفلوس ؟ صورة رائعة ! خليل ، بشفتيه الغليظتين ، وشاربه الاشبه بفرشاة أسنان قديمة ، يغمض عينيه ويفتح فكيه ـ أكثر فأكثر ، واذا الفلوس الدافقة تراب يستقر في حلقه وعلى لسانه، واذا هو يسعل ، ويبصق ، ويتفتف ، ويشتم شرف فلان وفلان ، ويتمنى لو ينهش بأسنانه أعراضهم جميعاً •

« لم أنم ليلة البارحة الا ثلاث ساعات . ذهبت عند فضيلة . فضيلة . سامح الله والديها . سأسمي ابنتي خطيئة ، لكي تنتبه الى وجودها . لم أنم لانني كنت أفكر في الفضيلة والرذيلة . أين نضع خليل مثلا بين طرفي الفضيلة والرذيلة ؟ ما هي الخطايا المميتة السبع ، وأيتها تنطبق عليه ؟

« ولكنني أتساءل أحياناً لماذا أوزع على الناس أحكاماً دون أن أحكم على نفسي ؟ هذه هي على الاقل فضيلة يجب أن أتحلى بها . سأحكم على نفسي أولا ، ثم على الآخرين . ومن حلت عليه لعنة الآلهة لا يرى ضيرا في حلولها على غيره . واللعنة لا بد من حلولها ـ اليوم ، أو غداً ، أو بعد غد . فلا ترفع خشمك علينا ، لانك أنت أيضاً ستكون هدفاً للعنة .

« وكنت قبل لحظة على وشك القول : ماذا يهمك من أمري حتى أقحمه عليك ، وأنت تريد الحديث عن خليل ، عدوك الوفي وحبيبك اللدود . ولكن أمري مهم لديك أهميته لدي . لانني أقود وأنت تتبع . لانني وضعت السلم لك لا لتصعد عليه ـ وذلك مستحيل ـ بل لتنزل عليه ، أسفل ، فأسفل،

فأسفل . ولكنني سأكون هناك قبلك . سأكون هناك مع الحاقدين والمحبين ، مع الذين يقضون الليالي على السطوح متأففين من القمر ، والذين يشتمون الحمام في الصبح لنواحه البغيض . مسكين ذلك الشاعر الذي بكى لنوح الحمام السجين في بغداد ولم يبك للناس :

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمعي المهراق

أم انه بكى لنفسه السجينة ؟ مسكين . اننا اليوم لا نبكي . بل نصخب ونشتم . ولهذا فانني فجر هذا اليوم ، وأنا في سريري على السطح ، عندما حطت حمامة على مقربة مني أمسكت بكأس الماء التي كانت على المائدة الصغيرة قرب فراشي وقذفتها بها بكل عزمي ، ففرت وهي تنوح ، وكست الشظايا الارض حولي . وبعد خمس دقائق قمت من الفراش، ودست على شظية منها دخلت قدمي بنعومة ، فرقصت من الالم : حمار ، حمار . كيف تنسى الشظايا بهذه السرعة ؟ ولكن هذا الحمام شيء مزعج في الصباح المبكر ، كأنه بهديله الكئيب المتلاحق عند الفجر

يحذرك من التفاؤل ، ويذكرك بأنك ما زلت تهبط السلم • درجة ، درجة ، درجة •

« خليل الصفافيري ، كما قلت ، لا يأنف من شيء ما دام الفلس فيه مضمونا • جلد ثخين ، رأس صلب ، معدة طحانة ، هذا خليل • يحمل شهادته الجامعية كدرع يصد عنه تهمة من يقول انه (غير مثقف) • ثقافة ؟ الثقافة هي أن تملك بيتاً فيه عشر غرف ، وسيارة ، وعدة مئات من الاسهم ــ والبقية تأتي • انها حينئذ تأتي طائعة مختارة : زوجة (جميلة في الغالب) ، مركز (محسود في الغالب أيضاً) ، و • • • • • • فلوس أخرى • ولكن يجب أن تستعد كخليل لان تفعل ، لا كل ما يجوز فعله ، بل كل ما يمكن فعله ، وتتذكر الفارق •

« خليل ، بالاختصار ، رجل ناجح • قد يقال انه شره ، طماع ، بخيل ــ هذا ليس الا كلام الحاسدين • أما أنت ، فما الذي تفعله ؟ تأتيني كل يوم لتحدثني عن صداقتك القديمة بخليل ، وترفض الاعتراف بأنه ناجح • وما يضيره انه صغير العينين ، كبير الشفتين ؟ انه سيتزوج عن قريب من اميمة ، وما الذي

ستفعله أنت حينئذ ؟ ستجلس معي في المقهى ، وتحصي الغادين والرائحين ، وسأحدثك كيف ضاجعت أمس فضيلة بعد أن شربت ربعاً من العرق ، وتحدثني أنت عن القصيدة التي نظمتها وخجلت من تلاوتها . حين تكتب تموع نفسك ، يا مصطفى ، يلتف خيالك حول ساقي اميمة ، ولكنك تكتب عن عينيها ، تتمنى لو تجرها من شعرها الى ضفة دجلة وتتمرغ معها عاريــة في الطين ، ولكنك تكتب عن لوعة نظيفة نقية ، كأنها لم تصدر عن شبق لا يرحم وخيبة لا تلين . فضيلة يا عزيزي في انتظارك . وفضيلة نقية على طريقتها ، وهي لا ترفع فوق رأسها أية شهادة لتوهم الناس بأنها مثقفة . هي هي . وجودها ماهيتها ، والعكس بالعكس . لا شوائب ولا مركز ولا بيوت ولا سيارة شفروليه . فضيلة في انتظارك في أسفل السلم . »

لم ينطق مصطفى أحمد بكلمة ، وجليسه في المقهى يتدفق كلاماً . كان العرق ينضح من جبين مصطفى على رسله ، يمسحه بين الآونة والاخرى بكف يده ، وكوعاه متكئتان على المائدة الحديدية الصغيرة .

ولم يكن عباس ليأبه أيصغي مصطفى اليه أم لا ·
فقد شرب شيئاً من العرق في الدار ـ ما يكفيه للانطلاق بالكلام دون أن يهمه اذا كان هناك من يصغي اليه ما دام يجالسه · وقد جاء الى المقهى حيث لقي مصطفى جالساً وحده يقرأ في كتاب عن علم النفس، وهو عالم تمام العلم بأنه اذا جاء هنا بعد العاشرة مساء سيجد مصطفى في انتظاره ، حاملا كتابين أو ثلاثة ، بعضها انكليزي ، وقد اتسخت غلافاتها بيد سخية العرق ·

ولكن مصطفى لم ينطق بكلمة · لم يكن شارد الذهن، بل كان يصغي الى كل كلمة يفوح منها الكحول بين شفتي عباس · عباس جمعه السرحان ، خريج كلية الحقوق ، المحاسب في أحدى دوائر الحكومة ، الذي اهترأت أطراف أصابعه بعد الدنانير ، دون أن يستطيع أن يضع شيئاً منها في جيبه ·

وفجأة وقف مصطفى ، وتناول الكتب التي على المنضدة الصغيرة · فنظر اليه عباس من على مقعده وقال :

« مستعجل ؟ عندك شغل ؟ ...

فلم يجب مصطفى ، بل مشى في اتجاه الباب ، وألقى بأربعين فلساً في طبق صاحب المقهى ، وخرج الى الطريق • فلحق به عباس ، ومشى بمحاذاته ، وقال:

« من يستطيع النوم مبكراً في هذا الحر ؟ أنا أصلا لا أنام أكثر من أربع أو خمس ساعات هذه الليالي • أترافقني فننذهب الى (الاكروبولس) ؟ لم نذهب هناك منذ زمن • وقد اكتشفت بيتاً جديداً على مقربة منه • »

فقال مصطفى : « الاكروبولس ؟ لا • اني ذاهب الى البيت • »

وعلى ايقاع خطواتهما تكرر الاسم الاغريقي في ذهن مصطفى ــ اكروبولس ، اكروبولس ، نكروبولس • نكرو ــ بولس ، مدينة الموتى ، موتى ، ومنها الى بيت جديد ، الى فضيلة جديدة • تفضلوا استريحوا • أربع بنات • سنية ؟ والله مشغولة الآن • بعد ربع ساعة • فضيلة • اميمة مشغولة • خليل معها • بعد عشرين سنة ــ ربما ، يكون خليل قد فرغ ، واميمة عمرها أربعون أو خمس وأربعون سنة ،

أو خمسون. وأنا ما زلت أنتظر في الغرفة الخارجية. عجيب ، ما زالت تبدو صبية . هي هي . فضيلة وجودها ماهيتها .

وعباس ما زال يقول : « من يستطيع الذهاب الى البيت الآن ؟ بيتنا مثل جهنم . لا من حيث الحر فحسب ، بل من ناحية من هم فيه . وأنا لا أعلم كلما دخلته أأنا من شياطينه أم روح من عالم الموتى يزج بي فيه . تصور ، وصلت البيت البارحة في الواحدة بعد منتصف الليل ...... »

ولكن مصطفى لم يسمع من البقية الا كلمات لا تسجل معنى في ذهنه . فقد تذكر الليلة السابقة .

« عاش من شافك ! » قالها خليل كأنه يعنيها فعلا ، وقد وقف ليصافحه في حديقة نادي المحامين. فانقلب مصطفى الى كتلة تنز بالعاطفة لمدة دقيقتين وقال :

« من الذي انشغل عن الآخر يا خليل ؟ »

ــ والله ، مصطفى ، أنا مقصر ، ولكنك تدري ...

ــ لا والله لا أدري . تغيب عنا ، بل تتخلى عنا .

ــ الله أعلم بما في القلوب .

كاد مصطفى يعانق خليل ، بل كاد يقبله على خده ، فيضع في قبلته حرارة صداقة طويلة العهد ، ترجع الى أيام الطفولة • ولكنه كان يعلم أن خليل قد « اختلف » منذ سنة أو أكثر ، منذ أن جعل يشتغل بالتجارة والسياسة معاً • وقد رآه مصطفى يبتعد عنه يوما بعد يوم حتى يبلغ ذلك البعد السحيق المخيف الذي تعبر عنه نظرة جامدة هنا وكلمة زاجرة هناك • أما في تلك اللحظة فقد شعر أن المسافة بينهما تلاشت واذا هما قريبان قربهما القديم • غير أن الشعور لم يدم الا ثواني معدودة ، فقد داهمهما رجل لا يعرفه مصطفى ، أخذ بيد خليل مصافحاً وقال : « تهانئنا ! مبروك ! » وانسحب وخليل يشكره •

فسأله مصطفى : « على م هذه التهنئة ؟ يظهر أن أخبارك ما عدنا نسمعها • »

فانبسطت تقاطيع خليل ، وبدا كأن وجهه سيعرض عرض العمارة التي وراءه جذلا ، حين تحركت شفتاه كمطرقتين في اتجاهين متضادين ، وقال :

« ألم تسمع أني خطبت ؟ »

ـ لا والله • على من ؟

ـ على اميمة ، اميمة عثمان السماوي •

« اميمة ؟ » قالها مصطفى قبل أن تغص الكلمة في حلقه • وأحس بقلبه يغور في أحشائه •

ـ أتعرفها ؟

ـ آ • • • بالوجه فقط •

(بالوجه فقط ! كان الاجدر به أن يقول : بالدم ، ولفائف اللحم ، وتلافيف الدماغ • بالاحشاء والكبد والمرارة • أليست تلك معرفة أعمق وأوثق من معرفة اللسان ؟ وهذه القصائد الكثيرة التي يخجل من تلاوتها لاحد ـ أليست دليل معرفته بها ؟ ألم يحدثها أمسيات طويلة وهو قابع وحده في هذا المقهى وذاك، وهو يسود أوراقاً تمشي بكعبها العالي على كل سطر فيها ؟ ان لم تكن تلك معرفة ـ أوه ، بالوجه فقط !)

وقال خليل : « لقد مضت سنتان وأنا أشتغل مع أبيها ، ونحن الآن نوسع مكتبنا • »

ـ هذا ما سمعته •

ـ لم لا تأتينا الى المكتب ؟

ـ سآتي ٠

ـ أتعرف رقم التلفون ؟

ـ سأجده في الدليل ٠

ـ باسم عثمان السماوي ـ المكتب ٠ بعد السادسة مساء اذا أمكن ، لاننا في بقية النهار مشغولون جداً ٠

فتمنى مصطفى لو يغور ، لو يهوي الى أعماق الارض حيث لا يرى وجهه مرة ثانية ٠ فقد شعر أن خليل يفتح بابا يسوقه اليه ، ويقول له : تفضل واخرج ، وعد الينا في مناسبة أخرى ٠

« ٠٠٠ وأمي كالعادة تتنحنح كلما جئت متأخراً لتثبت لي انها مستيقظة في انتظاري ٠ ولكن دون أن تفوه بكلمة ٠ تتنحنح فقط ، كأنها تقول : لا تظن أنني أجهل أين كنت ٠٠٠٠٠ النساء لا يخفى عليهن شيء ٠ نحن الرجال أبرياء سذّج اذا قيس الواحد منا بأية امرأة ـ أو أية فتاة ٠ والحرارة تنضج المرأة بسرعة ، كما تنضج الفاكهة ٠ ها مصطفى ! ضعها في احدى قصائدك !

(والشمس تنضج المرأة عاجـلا ، وما المرأة الا فاكهة ٠٠٠) طبعا الوزن مكسور ٠ ولكن الحقيقة تتخطى الاوزان والقوافي : نساء كالفواكه عفنت قلوبها ، ورجال كالاطفال يريدون التهامها فيعلق الدود بأسنانهم ويبقى العفن في زلاعيمهم ! وأنا أقول لك يا مصطفى : لقد عضضت الفاكهة ، وأكاد أرى الدود بين شفتيك ٠٠٠٠ »

كانت أعمدة شارع الرشيد تتلاحق ظلالها على وجه مصطفى ، وهو يمشي على طرف الرصيف المسقوف، وعباس لا ينقطع عن الكلام وهو مغمور في الظل بعيداً عن النور المسلط على وسط الشارع ٠ وفي الرواق المديد لهاث لافح ، يقترن بين الحين والآخر بنفحة شديدة النتن تجود بها البواليع ٠

وأضاف عباس « ٠٠٠ ولو كنت مكانك لبصقت الدود في وجه خليل ، ليأخذه الى اميمة العزيزة ، ليعيده الى مصدره الاول ٠ »

ومر مصطفى براحة يده فوق جبينه وصدغه وخده يمسح بها نضح العرق ٠ وأحس كأن الكتب بحرارة يده الاخرى وعرقها تكاد تذوب ٠ ثم قال :

« ولكن ما دخل أميمة بكل ذلك ؟ »

فانهال عباس على السؤال ينهشه نهشاً : « لاميمةكل الدخل · ان لم تكن اميمة ، فهي فاطمة ، وان لم تكن فاطمة فهي إنعام · الواحد في الكل ، والكل في واحد ـ سوى فضيلة بالطبع · فضيلة تعترف بأنها مصنوعة من طين : الشمس تقويها ، ثم تلوحها ، ثم تصدعها الى أن تنهار · أما الآخريات فهن فواكه ولا يرى مدخل الدود الى قلوبهن الا من كانت له عين فاحصة · وهنا الخطر · الخطر في اللؤم والرياء · الخطر في أن ترى خليل يتخلى عن كل رابط ووازع دون أن تحرك أنت ساكناً ، لانه قد أبقى على مظاهر الروابط والمكارم ··· الخطر في ألا ترى مدخل السوس الى قلبه · »

ـ ولكن ما دخل اميمة بذلك ؟

ـ قلت لك كل الدخل · لعلك تقول أن خليل لايدري بحبك لها ، وان كليهما غافل عنك لا يشعر بوجودك · ذلك عين الخطأ · كلاهما يحمل ذكرك عبئاً ثقيلا على ضميره · ولو كنت الآن لتظهر فجأة أمام خليل، لرأيته كيف يشحب لونه وترتجف أوصاله · ولو

كنت لتظهر فجأة أمام اميمة لرأيتها كيف ترفع كفيها الى وجهها وتقطع قلبك بالبكاء ٠

ــ ولكن خليل لا يعرف شيئاً عن علاقتي بأميمة ٠

ــ أقول لك أنك ساذج ولكنك لا تصدقني ٠ اسمع التفاصيل اذن ٠ قبل أسبوعين ــ لا بل أكثر ، أكثر بكثير ــ المهم ، قبل مدة جاءني خليل الصفافيري ليقبض من الدائرة مبلغا بألف وثلاثمائة وسبعة وخمسين ديناراً ٠ فاستحضرت له استكان شاي ، وقدمت له سيجارة ، وسألته عن أحواله ، الى أن ذكر لي انه سيخطب ٠ قلت له على من ؟ قال : اميمة ٠ قلت : أكيد ؟ قال : بالطبع ٠ فلم أتردد بالقاء القنبلة في وجهه وقلت : ولكن ألا تعلم أن مصطفى أحمد ٠٠٠ يحب ٠٠٠٠ يريدها ، ومن زمن طويل ؟ قال : وهذه كلماته بالحرف الواحد ٠ قال : بالله اتركنا من هذا المعتوه ٠ قالها كأمر مفروغ منه ٠ ثم أضاف: طبعا سمعت انه يحبها ٠ ولكن الاشرف له أن يستحي ٠ اميمة عارفة بالموضوع ومتضايقة جداً ٠٠

ــ أميمة متضايقة جداً ؟

ــ متضايقة جداً ٠٠٠٠٠٠٠

(وفي الحال كان مصطفى على عتبة باب خليل •
كان البيت مظلما ، ولما ضغط على زر الجرس ، وأعاد
الضغط وأطاله ، لم يجبه أحد • فبقي واقفاً مكانه ،
وهو يتصبب عرقا • ثم جاء خليل في سيارته
الشفروليه ، وأوقفها بالبوابة ونزل منها ، فتقدم
منه مصطفى بخطى ثابتة نازلا درجتي مدخل البيت ،
فأجفل خليل ، وتراجع الى الوراء ، وأمسك بأحد
مصراعي البوابة الحديدية • ثم نطق :

« أوه ••• مصطفى ••• خوفتني ! »

ـ صحيح ؟

ـ لندخل البيت • لا بد عندك شيء مهم ، والا لما
جئتني في هذه الساعة •

ـ عندي شيء مهم • ولكننا لن ندخل البيت • بل
لن تدخله أنت أبدا •

ـ مصطفى ، ما هذا الكلام ؟

ورفع مصطفى قبضتين مشنجتي الاصابع ، وقال :
« ماذا قلت عني بخصوص اميمة ؟ »

فانحبس الصوت لحظتين في حلق خليل ، الى آن جاء

في بحة جافة : « لم ٠٠ أقل ٠٠٠ شيئاً ٠٠ »

ـ أمتضايقة اميمة مني ؟

ـ لم أقل شيئاً ٠٠٠ والله ٠

وارتفعت يداً مصطفى مفتوحتي الاصابع ، وقد استحال كل اصبع منها فولاذاً عاتياً ، وقال : « اميمة متضايقة مني ؟ » وتراجع خليل هابطا درجة البوابة ، وعيناه جاحظتان وارتطم ظهره بسيارته ، ومصطفى يخطو نحوه خطوات ضيقة ثابتة شريرة ٠ ثم هوى على عنقه مرة واحدة بكلتا يديه ، ودفع ابهاميه في حنجرته ، ضاغطا بعزم وعنف الى أن سمع حنجرته تطق ، ووقع رأسه جانبا ، ثم خر على الارض لا حراك فيه ٠

ومسح مصطفى براحته العرق عن جبينه ، وبكل هدوء عاد ماشياً الى شارع الرشيد ٠٠٠)

« مصطفى ! أما تسمع ؟ »

ـ ها ؟

ـ سألتك ، ألا تنزل معي في هذا الزقاق ؟

ـ لماذا ؟

ـ أعرف بيتا هنا فيه بنات لم أجئه منذ زمان ٠

ـ ها ؟ بيت ؟ أي والله ٠ لا ٠ لا ٠

ـ ما هذا التردد ؟

ـ لانني اذا لم أشرب ، يا عباس ، لا أستطيع مجابهة هؤلاء النساء ٠

فضحك عباس ضحكة من كسب لعبة بعد عناء شديد وطبطب على كتف مصطفى وقال : « لم لا تحكي ، لم لا تحكي ؟ » وطبطب على كتفه مرة أخرى ٠

غير أن مصطفى شعر أن عباس يسحقه بكفه المتوددة، وهز بكتفيه يلقي بلمسته عنه ٠

وأردف عباس : « الآن انسيك اميمة ٠ ولكن أسرع، قبل أن يعزّل أبو بطرس ٠ »

وانتبه مصطفى الى نفسه وقدماه تخطوان خطوات واسعة متسارعة ، وهو يقول : « قبل يومين أو ثلاثة قتل رجل زوجته في شارعنا بالعصا ٠ هوى بالعصا على رأسها فسقطت مكانها مفلوقة الجمجمة ٠ »

وكأنه لم يغب على عباس ان هناك اتصالا خفيا بين هذه العبارة المفاجئة وبين ما يدور في ذهن مصطفى

فقال : « العصا بسيطة . منذ بضعة أيام قتل رجل زوجته بالفأس . تصور : أمسك بالفأس ونزل بها على رأسها وعنقها وبطنها ــ على كل عضو من أعضائها ، كأنها شجرة يحتطبها ، ويتركها أوصالا مبعثرة ، ثم ذهب كالسبع وسلم نفسه للشرطة واتهمها بالزنا . هل قامت الدنيا وقعدت ؟ لا . حكم على القاتل بالسجن لثلاث سنوات ، وغسل الشرف . »

ــ شيء رهيب .

ــ لماذا ؟ المرأة كانت منذ القدم موضع الشك . الدودة في قلبها ، وهي تعمل فيه تنتظر تسميم من يغرز أسنانه فيها . فاذا رأيت الدودة عليك بالقضاء عليها قبل أن تقذف ببيضها الى حلقك وفمك . فالشمس التي تنضج الفاكهة ، تعجل أيضا في توالد الدود .

ــ انك برموزك هذه تبالغ من الحقيقة .

ــ اني أعد أميمة خائنة .

ــ أرجوك ألا تعود الى ذكرها .

ــ وأعد خليل خائناً أيضاً .

ـ كفى ! أف !

ـ لا بأس • في الاكروبولس نسيان الحقائق والرموز • ولو كنت مكانك لجعلت الحقائق أضخم من الرموز • فاذا نسيت الرموز لم تنس الحقائق •

ـ ولكن الصحيح هو عكس ذلك بالضبط • اننا لئلا ننسى الحقائق نبقي على خلاصتها مركزة في الرموز •

فضحك عباس وقال : « هذا القول لا شك من كتاب علم النفس الذي تقرأه • أتـدري الحقيقة التي يرمز اليها كل ما في الوجود ؟ من يكثر من قراءة الكتب لا ينجح في الحياة • هذه هي الحقيقة الاولى • كم كتاباً يقرأ خليل الصفافيري في السنة ؟ والحقيقة الثانية هي أن الشباب الذين مثلك يقبلون بالوهم فيجهلون اغتنام الحقائق • ما الذي حصلت عليه من اميمة سوى قبلة مختلسة منذ سنة أو أكثر ؟ • • •

قبلة قبلة قبلة قبلة

ـ أتحبني كل هذا الحب ؟

فدس مصطفى يده في شعرها وهمس : « لا تتكلمي لئلا يسمعونا • »

ثم أسرع وأغلق الباب ، وفتح حنفية المغسلة لعل صوت الماء المتدفق يوهم أي قادم مفاجىء بأن في الحمام من يغتسل ، فلا يدخل ، ولعل صوت الماء ، رش ش ش ش ••• يغطي على الغمغمة اللذيذة وطرقعة القبل •••

كان بقية المدعوين يلغطون في غرفةالاستقبال ،وهم يشربون الشاي ، ثم قام بعضهم وعزف اسطوانة راقصة ، ومصطفى يضغط اميمة الى صدره في الحمام، وأصابعه مغروسة في لحمها ، وذراعاها تطوقان عنقه بشدة ، وشفاههما تتقطع تقبيلا •

ثم قالت اميمة : « لقد أكلت حمرتي كلها •• كيف أخرج الآن بينهم وشفتاي هكذا بلا حمرة ؟ وتفرست في وجهها في المرآة التي فوق المغسلة •

وفي الوقت نفسه علا صياح من غرفة الاستقبال البعيدة : « مصطفى ، مصطفى ! أين مصطفى ؟ »

فتسلل في الحال من الحمام الى الباب الخلفي ومنه الى الحديقة ، ومن هناك ـ

دخلا الى رواق ضيق طويل ، باهر الضوء ، يلغ بهما

الحديقة بأضوائها الملونة الخافتة ، وقد امتلأت بأصوات الشاربين والضاحكين والساخطين ، وانساب أبو بطرس من احدى الزوايا نحوهما انسياب الارقط في الادغال وهو يقول : « أهلا ، أهلا ، أبو فاضل · تفضلوا هنا ، هنا · » وشق لهما طريقا خلال الجو المترع بفرح العرق ، الى آن استقر بهما على مائدة تكاد تختفي تحت شجرة كثيفة · وطلب كل منهما نصف ربع من العرق ·

واستأنف عباس الكلام : « كما قلت لك · ان الذين مثلك يقبلون بالوهم — »

غير أنه فوجىء بمقاطعة مصطفى له اذ قال : «وأنت يا عباس ، ألا تعانق الاوهام ليلك ونهارك ؟ »

— أنا ؟ أنا رجل واقعي · أنا لا يأخذني وهم ، ولا يخدعني مظهر · أنا لا أسعى الا وراء الحقائق ·

— وراء فضيلة مثلا ·

— وراء فضيلة مثلا ، وأعرف سعرها بالضبط ·

وحل بينهما فجأة صمت تبادلا فيه النظرات لاول مرة ، الى أن جاء الغلام بالمشروب والثلج والمزة ،

ولكي يفسح لها المكان على المائدة آزاح كتب مصطفى جانباً ، وانصرف • فجعلا يصبان الماء في العرق ، ويضيفان اليه قطع الثلج ، ثم جرع عباس مقداراً كبيراً مما في كأسه وقال : « وأعرف سعر خليل واميمة بالضبط أيضا • »

فشعر مصطفى بالدم يتفجر في رأسه وصاح :
« يكفي ، اف ! أما سئمت الحديث عنهما ؟ »

فدهش عباس لتلك الغضبة الفجائية وجرع ما تبقى في كأسه بسرعة وقال : « مهلا ، مهلا •• لماذا تزعل؟ ما الذي بقي بينك وبين خليل أو بينك وبين اميمة حتى تغضب لكلامي ؟ اني أعرف سعرهما بالضبط ، لانني أراهما بعيني ، لا بعينك • وأريدك أن تراهما بعيني أنا ، لتعرف حقيقة وضعك — »

— بعينيك ؟ انك لا ترى الا القبح والعهر •
— للنقي كل شيء نقي ! ها ها ! •••

« القبح والفقر • وهما متصلان اتصالا خبيثاً ، ويجب أن نتخلص منهما • » قال ذلك خليل ولف ذراع مصطفى بذراعه وهما يمشيان في الطريق

المرتفعة ، المطلة على الاكواخ الطينية المتكتلة المتواترة ، تحيط بكل منها تلال صغيرة من أقراص روث البقر ، وصبية عراة الاجسام يركضون هنا وهناك بقاماتهم السمراء الضئيلة ، ثم يجلسون على التراب والذباب يمتص القذى من عيونهم ٠

فقال مصطفى : « يجب أن نقرأ كثيراً ، لنفهم معنى الفقر ونعرف كيف نعالجه ٠ »

فقال خليل : « لن تكفينا الدراسة في الكلية ٠ يجب أن نقرأ كل أنواع الكتب ، ولا سيما بعد أن نتخرج ٠ »

ـ سنقرأ ونكتب ونعمل ، لنقضي على كل هذا الفقر وهذا القبح ٠

وانطلق نحوهما من أحد الاكواخ كلب وجعل ينبح وينبح ، ولا يكف عن النباح ، كأنه لا يعرف لوجوده معنى الا اذا قطّع حنجرته بالنباح ٠

وسمع مصطفى عباس يقول مستمراً : « وأنت جالس بين مقاعد المقهى تقرأ كتب علم النفس (ومد عباس يده الى الكتب التي على المائدة) ولا ترى نفسك كالحشرة تحوم بين القاذورات ٠٠٠ القبح والعهر ! » وقذف بالكتب أرضا ٠

فانسدل أمام عيني مصطفى غشاء مظلم ، وانبثقت في أعضائه عزيمة جبارة قضت على كل ارادة عنده، ووجد نفسه يمسك بالمائدة ويقلبها بكل ما عليها في حضن عباس • فاختل توازن عباس وسقط على الارض قبل أن يدرك ماحدث ، ورفع مصطفى كرسياً بيدين قويتين وهوى على رأس صديقه وهو يحاول النهوض ويصيح : « مصطفى ! مصطفى ! » ومصطفى يتمتم بشتائم بذيئة تتكرر بين شفتيه دون أن يستطيع لها وقفاً • غير أن جماعة من الشاربين أمسكوا بمصطفى من الخلف ، ومنعوا ذراعيه من الحركة ، فجعل يركل ويرفس بقدميه لعلهما تصيبان عباس وهو يحاول النهوض ، وأصابه مرة أو مرتين بمقدم حذائه في الصدر ، الى أن جروه بعيداً صوب الرواق، وقد ملأت رئتيه رائحة المستكي والكحول المنطلقة من أنفاسهم • وراح أبو بطرس يرفرف حول الهرج والمرج عاجزاً ، خائفاً لأن معارك السكارى تكلفه دائماً كرسياً قديماً هنا ومائدة مفلعة هناك • ولكن ما ان أبعد مصطفى حتى أقبل أبو بطرس على عباس وأعانه على القيام على قدميه ، وجعل ينفض بالمنشفة عن حضنه ما علق به من الباقلاء والطماطه

وبقية أنواع المزة • وقد تبلل قميص عباس الابيض وبنطلونه بشكل مزر ، وأحس بالبلل بين فخذيه ، وفاح العرق من داخل قميصه •

أما مصطفى فأدار ظهره الى الحديقة ودخل الرواق الضيق الطويل ، وأخرج منديلا من جيبه مسح به دفق العرق فوق حاجبيه وبين عينيه وحول عنقه ، ولما بلغ الباب شعر انه نسي شيئاً لا يذكره بالضبط ، فجعل يتحسس جيوبه ، ثم التفت الى الوراء ، وخطا في الرواق عائداً الى الحديقة ، فتصداه خادمان ، وقال أحدهما :

« أتريد أن تأتينا الشرطة الآن ؟ »

غير أنه دفعهما عنه ، وذهب الى حيث كان جمع من الرجال ملتفين حول عباس يلغطون بما حدث ، فصمتوا في الحال عند رؤيته عائداً • غير انه انحنى فوق الكتب الثلاثة التي كانت مبعثرة على الارض ، وقد داس عليها الرائحون والغادون أثناء المعركة ، والتقطها واحداً واحداً ، دون أن ينظر الى أحد • ورفع يده الى جبينه يمسح بها نضح العرق مرة أخرى ، وعاد الى الرواق الباهر الضوء ، وخرج منه الى الليل والشارع الطويل •

المغنون في الظلال

على دلعونة وعلى دلعونة ...

دلعونه دلعونه دلعونه تصفيق زغاريد دلعونه .

وعازف العود منتش بما يعزف وبما يشرب ،ورأسه متدل من النشوة فوق عوده والريشة بين أصابعه تضرب الاوتار . فتصارعها بطنطنة تتعالى وتتهاوى خلال أصوات المغنين .

والايدي تصفق وتصفق ، على دلعونه ، وهوا الشمالي ـ

والشمس تتراقص على أشجار الزيتون ٠

أشجار خضراء غبراء ، الواحدة تلو الاخرى ، في «حبلات» الجبل المنحدر الى الطريق٠أشجار الزيتون لعل الذين زرعوها هم قديسو القرون الغابرة ، فهذه الجذوع الملتوية العقداء بما عليها من لحاء رمادي مشقق ، هي أخوات الزمن والايام التي اذا فكر فيها سلوم شعر بدوخة لذيذة كأنه يقترب من ملتقى السماء بالارض وراء تلك الجبال الزرقاء النائية ٠

أوف يابا ٠٠٠ والشمس تتراقص على آلاف أوراق الزيتون خضراء اللون عفراء الملمس ، شذاها شذا الارض ، الارض التي يجلس على احدى حجارتها ــ فالحجارة في كل مكان : مبيضة مخضوضرة ، من يدري أية يد نثرتها على هذه السفوح المتهادية نزلا نحو واد عريض بعيد ٠

والرجال والنساء والاطفال يغنون ، ويقرعون الكف بالكف ، وكؤوس العرق أمام الرجال الكبار ، وقد تربعوا في شبكة الظلال تحت الافنان الضامرة ، يغنون على دلعونه ، ثم يتوقفون حابسين الصوت

والنَّفَس بينما يرسل الرجل تنهدة اووووف ...
طويلة طول أيام الزمن ، مشحونة بما في الماضي كله
من حنين الى الاحباء الذين ما عادت العين تراهم ،
وحسرة على الاحباء الذين راحوا ولم تحظ الافواه
بلمس الخدود منهم والشفاه ... اووووف ...
ياحسرتي ... وسلوم يصغي ، يفهم ولا يفهم ،
والغناء يستنبع الحنين والحسرة حتى من سنيه
السبع ، ولكنه عندما يكبر كهؤلاء الرجال ويجلس
مثلهم متربعا تحت أشجار الزيتون في الاعياد ،
سيحتضن ما يحتضنونه من هيبة وقوة ... وحنين
وحسرة .

اووووف ... ودارت الزجاجة بين الرجال بينما
راحت احدى النساء تقدم المزيد من قطع الخبز
والجبن الابيض والزيتون الاخضر ...

وسال لعاب سلوم ، لا لمرأى المازة فحسب ، بل لرائحة
الارز واللحم الفائحة من قدر كبير على النار وراء
المغنين . وفيه وفاء الوعد الذي وعده به صديقه
موسى . وأين موسى الآن ؟

تلفت سلوم حوله باحثاً بعينيه عن صديقه بين جماعة

المصفقين المغنين ، بين النساء الدائبات الحركة تحت الزيتونة المجاورة ، بين أكوام السلال والبقج والصحون . فلم يجده . ولما عاد بنظرته الى القدر البعيد وقد تجمع حوله عدد من الصبية وامرأتان أو ثلاث ، يكسرن الحطب ويلقمنها النار ، وتسعل الواحدة منهن بين الآونة والاخرى عندما تنفث هبة من الريح الدخان في وجهها ـ هناك رأى موسى جالساً على حجر وعيناه مسمرتان بالقدر . فاطمأن سلوم ، وعاد الى الغناء ، يصفق مرتين أو ثلاثاً ثم ينقطع . وعينه تداعب القدر المدخن البعيد ، ورائحة الارز واللحم العابقة تراود زلعومه ، وان مازجها الدخان أحياناً ، أو اختلطت برائحة الشجر الطفيفة ورائحة التراب .

ثم أحس بشيء يابس ، كان يضغط فخذه وهو مقتعد صخرته ، يخرج من جيبه ويكاد يسقط ، فبادره بكفه المصفقة بسرعة ، ودفعه الى جيبه عميقاً حتى لا يراه أحد : كسرة من الخبز لا يليق به ان يراها الجميع بين يديه في مكان كهذا ، والاكل الشهي على وشك الحضور .

اوووووو ··· وود سلوم لو كانت له الجرأة على رفع صوته هو أيضا بمقطع من مقاطع « الميجنا »·
كثيراً ما يقعد برفقة موسى والياس وغيرهما على عتبة احدى الدكاكين المغلقة في شوارع البلدة الصغيرة ، فيمثلون سهرة غنائية · فيثني كل منهم ذراعيه كأنه يحتضن عوداً ، ويتظاهرون بالعزف ، ثم يبدأون بغناء على دلعونه ، ويعقبها سلوم « بأوف » مديدة ، وهو لا يعرف الكثير من الكلمات التي تلي هذه التنهدات ، فيقتصر على :

« الجمال محملة

الجمال محملة والأجراس بترنّ ·

يا ليلي يا ليل »

وفي كل مرة ، في كل مرة ، يتصور الجمال بأعناقها القوسية ورؤوسها الشماء تتدافع ، وأجراسها الصفراء ، جرس ضمن جرس ، ترنّ طوال الطريق الغبراء الموصلة من بلدته الى أشجار الزيتون البعيدة، الى المدينة التي وراء التلال ، تلك المدينة السحرية التي رآها مرة حين مشى اليها مع أبيه ــ وأسوارها

الشاهقة تعلو السيارات والبياعين والصائحين والجالسين في المقاهي خارج باب الخليل ·

« غداً عيد الخضر · »

قال موسى ذلك لسلوم عصر اليوم السابق ، مذكراً اياه بما كان قد قاله قبلا عدة مرات · « سيكون هناك أناس كثيرون · وقد نذر أبو الياس نذراً اذا شفي الياس بأنه سيذبح خروفاً · وقد شفي الياس · هل رأيت الخروف الذي اشتروه منذ أيام ؟ »

فقال سلوم : نعم · ألم نأخذ له كيساً من الحشيش من حواكير التين ؟ اذن سيذبحونه غداً ؟ »

ــ نعم · وسيطبخونه مع الارز ، ويوزعونه على الناس · وسوف يغنون بعد الانتهاء من الصلاة ، ثم يحضرون الاكل ·

ــ أنذهب الى الخضر ؟

ــ طبعاً · وسوف نأكل الارز واللحم ·

وكان عشاء سلوم مع والديه واخوته ذلك المساء شوربة عدس · فلما عرف ذلك سلوم قال لامه : « أف عدس مرة أخرى ؟ زهقنا العدس · »

فقالت أمه : « وماذا تريد ؟ دجاجاً محمراً ؟ »

ـ لا • شوية لحم •

ـ لحم يا مقصوف في أثناء الاسبوع ؟ سأطبخ لكم رأس خروف مع مقادم يوم الاحد •

ـ أوه زهقت الرؤوس والمقادم • نريد شوية لحم •

ـ تريد ضربة على قفاك ! من الفجر حتى غروب الشمس أبوك يشتغل ولا يقول مثل هذا القول •

ـ لماذا لا تشترين لنا شوية لحم ؟

ـ بماذا أشتريه ؟ بقمل رأسك ؟

فقال سلوم وقد سلم أمره لله : « غداً سأذهب الى الخضر • وقد نذر أبو الياس أن يذبح خروفاً لشفاء ابنه • سيكون هناك لحم كثير • »

وفي الصباح الباكر أفاق سلوم على صوت أمه وأبيه وهما يتكلمان ، وأمه تروح وتجيء ببابوجها المطقطق على أرض الغرفة العارية • فرفع عن نفسه لحافاً اهترأت منه الحافة التي من دأبه أن يضعها تحت ذقنه كلما نام • واذا موسى يطل حييا حذراً

من الباب ثم يرسل صـوته الرفيع الى الداخل :
« يلا يا سلوم . أما قمت بعد ؟ »

فنهض سلوم ولبس بنطلونه وقميصه بسرعة .

وقالت أمـه : « والله ما فرغت لارقع بنطلونك الممزق . » ثم التفتت الى اخوته النائمين الواحد تلو الآخر على الارض ، وقالت لابيه : « ما نلحق عليهم ! بنطلون سلوم ما صار له شهر بعد . ولكنه كالشيطان يتسلق الشجر ويتمرغ في التراب ولا يشفق على ثيابه . »

وأحس سلوم احساساً غير ملموس بالرقعة الكبيرة التي على مقعد بنطلونه والتي اقتطعتها أمـه من بنطلون قديم لاخيه الاكبر .

وبعد الغسيل والفطور خرج سلوم وصديقه الى الحوش وصعدا منه الى حاكورة التين ومنه الى الطريق ، وفجأة لاحظ أن موسى يلبس حذاءه ، فقال : « أتدري ان أمـي ما عرفت أنني خرجت حافياً ؟ اني أكره الحذاء . ولكنها تصر علي بأن ألبسه يوم الاحد وأيام الاعياد . »

فقال موسى : « انتظرني هنا دقيقة لكي أعود الى البيت وأنزع حذائي وأجيء حافياً أنا أيضاً • بس أخاف أن تراني أمي • »

وانطلق راكضاً الى بيت مجاور • وفي الحال تذكر أمراً جعله هو أيضاً يهرول عائداً الى بيته ،فقالت أمه :

« لماذا رجعت ؟ »

فأجاب وقد يمم شطر الخبز المحفوظ في « الباطية»:
« أريد قطعة خبز • »

وأخذ كسرة مضى على خبزها ثلاثة أيام أو أربعة • ودسها في جيب بنطلونه الصغير ، فانتفخ بها الجيب، وعاد الى حاكورة التين ومنها الى الطريق ثانية • وبعد لحظة جاء موسى حافياً مثله ، وانطلقا نحو دير الخضر كأنهما ذاهبان الى حيث الافراح لاتنتهي واقدامهما تبيض شيئاً فشيئاً من الغبار المتراكم •

اووووووف ••• والغبار على أغصان الزيتون يكاد يهتز من رجرجة التنهدة وهي تمتد وتلتف حول الرجال والنساء والاطفال ، وتتسع في دوائر متلاحقة تضم الظلال والشمس الملتمعة وأشجار

الزيتون المتباعدة ومن تحتها من معيدين • والدخان من تحت القدر الكبير يتصاعد مع النغم ليتلاشى في انسيابات كانسياب الحنين الملحن • وخطرت ببال سلوم أغنيته الوحيدة :

الجمال محملة •
والاجراس بترن •

ودفع قدميه الحافيتين في الارض يحس بهما البرودة الندية في اطواء التراب السفلي ، وخيل اليه أن أجراساً ترن من بعيد •

جاءت أم الياس وهتفت بالرجال : «يلا يا جماعة •»

فانقطع الغناء فجأة ، وضرب عازف العود أوتاره مرتين أو ثلاثاً قبل أن ينتبه الى ذلك ، ثم دس الريشة بين الأوتار عند عنق العود ، ووضعه جانباً •

وما هي الا لحظة حتى مدت الحصيرة وملأت قرقعة الصحون المكان ، وعلت صيحات النساء والرجال وهم يمدون المائدة •

« صحن هنا ، صحن هناك ، صحن لأبو سمير • يلا يا أبو وديع خبز ، ملاعق ، ملاعق ! » ووقعت

الملاعق على الحصيرة الممتدة برنين حاد يطيب سمعه للجائعين • ثم جعلت النساء يحضرن الارز في آنية كبيرة ، مكللة بقطع اللحم ، ويضعنها على الحصيرة أمام الرجال وامتدت اليها الايدي والملاعق تفرغها في الصحون ، وتهافت عليها عـدد من الصبية ، فصاحت أم الياس :

« يا أولاد ! أنتم بعدين • الاولاد بعدين • الرجال بالاول • من أين جاء هؤلاء الاولاد كلهم ؟ ياقطيعة ! » فتراجع بعض الصبية لينتظروا الوجبة الثانية • وهتفت أم الياس تخاطب الرجال : « كلو بالهنا والعافية • تحرك يا أبو جورج ، املأوا له الصحن مرة ثانية يا جماعة ! لحمة من الفخذة لابو عبد الله • • • »

ورأى سلوم من صخرته أبا جورج يدلي رأسه المكور فوق بطنه المستقر في حضنه ، ويرفع الارز الى فمه الفاغر ويعلق الكثير منه بشاربيه وزاويتي فمه ، فيدفعه بين شفتيه بقطعة لحم أمسك بعظمتها ينزع عنها اللحم بأسنان قوية • وامتلأ صحنه من جديد • وغارت قدما سلوم في التراب الندي •

وتقدم بعض الصبية من المائدة مرة أخرى ، فصاح أحد الرجال بهم : «ابعدوا شوية ! انتظروا شوية!»

فجاءت احدى النساء اليهم وشتتتهم ، فتراجعوا الى الوراء كسرب فزع مـــن الدجاج • وتعثر أحدهم وهــو يتقهقر بسلوم الجالس على الحجر وقدماه مغروزتان في التراب ، فأحس سلوم لما رآه بخجل حاول أن يغالبه فلم يستطع ، واذا به يقوم ويتراجع عن مقعده خطوتين أو ثلاثاً •

« يلا يا بنات ! » صاحت أم الياس بالنساء ، فجئن يحملن أطباقاً من الأرز من جديد ، ولكنها كانت أقل امتلاء من قبل وقطع اللحم التي تكللها أكثر تباعداً • وقام الرجال الواحد تلو الآخر ليصبوا المياه من الجرار والتنكات على أيديهم ، بينما احتلت النساء أمكنتهم وتجمع الصبية حول الصحون •

وشعر سلوم بجوع هائل ، كأن هاوية قد انشقت في معدته عن فراغ يجب ملؤه • فقام من مكانه ، وخطا نحو الطعام •

فصاحت أم وديع : « من أين جاء هــؤلاء الاولاد

كلهم ؟ اما يستحون ؟ » ودفعت صبيين بدا لها انهما غريبان ، وكان سلوم وراءهما فاصطدما به ، ولما اندفع الى الامام أصابته كف أم وديع وهي تصده قائلة : « يا عَمَى ! ولد وراء ولد ! أي روحوا عند أمهاتكم ! شو هالمصيبة ؟ »

فشعر سلوم عندها كأن الهاوية في أحشائه قد انسدت . ور أى موسى مكباً على الارز يحشو به فمه بيده ، غير أن دفعة المرأة له جعلته يتراجع ، فأدار ظهره لمنظر الطعام ، وأحس كأن هناك من يركله على اليته ويبعده كالكلب . فكان مَشْيُه على التراب بين الصخور والشجر بطيئاً أولا ، ثم أخذ يتسارع، ثم تحول الى ركض ، وهو لا يدري الى أين هو راكض بمثل هذه السرعة . غير أنه أدرك انه لا يريد أن يسمع أصوات الذين يأكلون وراءه .

وعندما بلغ الدير ، مشى الى الناحية الاخرى من البنيان العتيق حيث كان في الظل عين جارية ، يأتي اليها المعيدون ليملأوا جرارهم وتنكاتهم ثم يعودون الى الأشجار التي يجلسون في أفيائها .

فجلس على حجر وشعر برغبة عنيفة في البكاء ،ولكنه

عقد العزم على ألا يبكي . ثم أخرج كسرة الخبز من جيبه ، ونفض عنها ما علق بها من غبار ، وأطبق أسنانه عليها ، غير أنها كانت قد غدت كالعظمة بحيث لم يستطع أن يستقطع لقمة منها ، وسقف حلقه جاف من كل لعاب .

فتقدم من العين وانحنى فوقها وسمح للماء بالانصباب على الخبزة حتى تبللت من كل نواحيها ، وشعر في أثناء ذلك بالماء يتراشق بارداً منعشاً على قدميه وساقيه ، فيرسم في غبارهما زخارف كثيرة ، فانتصب واقفاً ومد رجليه الى الدفق الناعم ، وعض الخبز البليل وهو يرقب قدميه تنظفان أكثر فأكثر .

ثم نقع خبزه مرة أخرى ، ومشى الى صخرة قريبة وقدماه تقطران ماء وجلس ليأكل غداءه وقال لنفسه : « مليح اللي جبت خبز معي ... »

وبعد قليل سمع صوت جماعة من المغنين وراءه . تصفيق زغاريد . أغنية جديدة لم يكن قد سمعها من قبل . فاستدار نحو المغنين ، وتذكر كلمات أغنيته من جديد :

« الجمال محملة ... »

ثم قال بصوت مسموع : « محملة ··· بأي شيء محملة ؟ » وتصور الجمال محملة أكياساً منتفخة بما فيها دون أن يعرف ما الذي فيهـا · واذا موسى ينحدر في اتجاهه ويصيح :

« سلوم ! »

فازدرد بسرعة آخر لقمة كان يمضغها لئلا يعرف موسى بما حدث وقال :

« ألا تريد أن تغسل رجليك ؟ »

فقال موسى : « أكلت ؟ »

ـ نعم ·

ـ هل أكلت لحماً ؟

ـ طبعاً ·

ـ أما أنا فلم أحصل الا على قطعة صغيرة ·

فقال سلوم : « كلها واحدة · صغيرة أو كبيرة · » فاتجه موسى نحو العين وشرب من مائها وغسل رجليه ثم عاد الى صديقه وجلس على الصخرة بقربه ·

الغراموفون

أمسك يوسف بسبيكة الزنك والقمها فكي الملزمة، وشدها ، ثم تناول مبرداً طويلا وأركزه على السبيكة، ولكنه قبل أن ينصرف الى الصقل التفت الي وقال : « سامع يا يعقوب ؟ »

قلت : « نعم » . وتخطيت كومة من قطع الزنك ، لالقي نظرة على البوتقة المشمشة بما فيها من معدن ينصهر على مهل وهي وسط الوجاق الملتهب .

وأعاد يوسف : « سامع يا يعقوب ؟ استرح شوية .

أنت ما زلت صغيراً فلا ترهق نفسك · الاسطى حنا مشغول » ـ وغمز غمزة تعبر عن مـدى انشغال الاسطى ، ثم مد ابهامه وسبابته كأنه يمسك كأساً بينهما ، ورفعهما بايماءة معبرة الى شفتيه وقال : « الاسطى مشغول ، بس يا ليتني كنت معه · آه لو تعرف يا يعقوب كيف كنت أعيش في مصر قبل خمس سنوات · خمس سنوات غيرت حياتي · كنت مساء كل يوم ألبس بدلة أنيقة مكوية وقميصاً أبيض منشا ، وأنزل الى مقهى أو بار مع صديقين أو ثلاثة ، ثـم نذهب الى كباريه ··· فلوس ، فلوس بقدر ما تشتهيه نفسك · شرب وضحك ونسوان ··· خمس سنوات غيرت حياتي ··· »

ثم أركز المبرد على السبيكة ، وأنصرف الى صقلها ، وجعل يغني على ايقاع حركة المبرد · وكنت أطرب لغنائه ، كما يطرب هو له ، وتتوقف يداه أحياناً عن العمل ريثما يمد صوته في نغم يترجرج في حنجرته ، صاعداً الى القمة من النشوة ، هابطاً الى بحة من الألم · وخيل الي أن عينيه اغرورقتا بالدموع · ثم استأنفت يداه العمل ، وعاد الى البرد والطرق وقال : « خمس

سنين ، من العز الى الهوان • والله ما هذه بعيشة يا يعقوب ••• فلوس وأصحاب ونسوان • شقر وسمر ، طويلات وقصيرات ، ربي سبحانك على هذا التنويع العجيب • »

وأخرج علبة السكاير من عبه بحذر ، وأخذ منها سيكارة ، ثم أعاد العلبة الى عبه ، وأشعل السيكارة ونفث الدخان ، ويده على الملزمة ، ونظراته الشاردة تستعيد أيام العز من خلال طيات الدخان •

فقلت : « بالله الق نظرة على البوتقة يا يوسف • أأضع قطعا أخرى من الزنك فيها ؟

فنظر اليها من مكانه وقال : « لعنة الله على البوتقة • قلت لك الاسطى مشغول • سيتأخر اليوم جداً هل حضّرت كل القوالب في الرمل ؟ »

قلت : « نعم • كلها حاضرة • »

واذا الاسطى حنا المواسيري يظهر على غير انتظار ، وفي مشيته ترنح يحاول اخفاءه • ولكنه كان في مرح باد ، وحالما تخطى عتبة المشغل صاح : « ها يا برنس! انشالله بردتها كلها ؟ أتحسبني لا أعرفك يا برنس؟

لقد عجنتك وخبزتك ... فما أكاد أدير لك ظهري حتى تتباطأ في العمل ...» وجلس على حافة الرمل الذي كنا نصنع منه القوالب لسبك المعادن ،والتفت الي وقال : « الله يساعد يوسف . شاب ، عجّز . شوف ، شوف ، يعقوب شوف ! » ثم خفض صوته وهمس في أذني بعد أن أدنى منها فمه العابق بالكحول : « بس دير بالك لا يشوفك ! هاها ، هاها . الله يساعدك يا يوسف . »

وذلك أن بنطلون يوسف كان ممزقاً مرقعاً من الأعلى والاسفل ، من الامام والوراء ، ولا يذكر أحد ، حتى يوسف نفسه ، لونه الأصلي . فقد حال وتلوث وأضحى مِزَقاً لا يتصل بعضها ببعض الا بقوة الارادة ، ويمسك بها على خصره حزامه الجلدي . ولكن خُرْقا عند ملتقى الفخذ بالجذع كان في اتساع مستمر عجزت الرقع عن تغطيته . فكان حنا ينبهني لأرى من خلال الرقع عورة يوسف المهدلة . غير أن يوسف قال : « ثلاثمائة جنيه صرفتها في شهرين . » وتوقف عن البرد هنيهة . « والله يا حنا ، ثلاثمائة جنيه في شهرين ... » وانصرف الى البرد .

فقال حنا : « احلم ، احلم ، يا برنس ، احلم ياأمير • ولكن نشد عضلك لشيء من الشغل • يجب أن نصب هذه القوالب قبل المساء • » ثم التفت الي وقال : « هل القوالب جاهزة ؟ »

فقلت : « نعم يا معلمي • »

فألقى نظرة خبيرة ، رغم ثمالتها ، على المربعات التي في الرمل البني ، وتنقلت عيناه من قالب الى آخر ، ثم قام ونظر الى البوتقة الملتهبة ، ونزع معطفه ، وشمر عن ساعديه وفك أزرار قميصه ، وقال : « يلا يا يوسف ! »

واستغرقنا عملية صب الزنك المصهور حوالي ربع الساعة • ولكنه ربع يوازي ما فيه من تعب ، تعب ساعات النهار الاخرى • كنت أرى كيف تبرز العروق على أذرعنا وسواعدنا حتى لتكاد تنفجر حين نرفع البوتقة بالملقط الأفقي الطويل ويقطر العرق من وجوهنا ويجري في سيول تصب أحياناً في عيوننا • وكلما حدث خطأ أو سوء تقدير في السكب في ثقب القالب أخذنا نشتم ونعيد الشتائم ، فتخفف من حدة التوتر الذي يعانيه الجسم في كل جزء منه •

وعندما فرغنا من مهمتنا ووضعنا البوتقة في ركن لتبرد ، بدا لي أن حنا قد صحا من سكرته ، وأخذ خرقة مسح بها جبينه ووجهه ، بينما جلس يوسف على صندوق ليستريح ويجفف جبينه هو أيضا ، ثم قال : « ما رأيكم في شيء من العشاء ؟ »

غير أن حنا ، دون أن ينبس بكلمة ، تناول قطعة من الصابون وتوجه الى الزاوية القصية حيث نحفظ زيراً مملوءاً بالماء ، واغترف منه طاسة مليئة ، وانصرف الى غسل يديه ووجهه .

فقال يوسف : «اذهب واشتر لي صحنا من الكرشات .» واخرج من جيب عند الحزام من بنطلونه قرشاً ناولني اياه . واذا حنا ، ورغوة الصابون ما زالت على وجهه وحول عنقه ، يصيح :

« هاك يعقوب قرشا اشتر لك به أنت أيضا شيئا تأكله . » ومر بيمناه بسرعة على المنشفة ثم دسها في جيبه وأخرج قرشا ناولني اياه .

وصعدت من « الجورة » الى « طلعة النبي داود » حيث كان طباخ من أهل الخليل يطبخ الكروش

المحشوة في دستين ضخمين على نار من حطب في الهواء الطلق • وكانت رائحة المرق ، بما فيها من ثوم وليمون وفلفل ، عدا رائحة الكروش نفسها ، تجتذب الجياع رغما عن أنفسهم • ولذا فهو دائماً محاط بجمهور من عمال محادد الجورة والفعلة والحمارين وسائقي السيارات ، بعضهم مقرفص ، وبعضهم على الارض ، وبعضهم واقف ، وصحون الكروش بين أيديهم يعبق الجو بشذاها • فلما دنوت من الطباخ ــ وهو يغترف بالمغرفة الكرشة الواحدة مع مقدار من المرق يكيله كيلا حذرا ويصبه في صحن عميق ــ لأطلب صحنين ، لمحت بين الآكلين عبد الاعور ، بائع المجلات ، وبقربه رزمة من بضاعته • وقد رآني في الحال ، فهتف : « أأخذت العــدد الأخير من (الدنيا) ؟ »

فيممت شطره وقلت : « لا • هل وصل ؟ » وكساحر يخرج فاكهة من كمه ، اخرج نسخة من « الدنيا » من رزمة مجلات وقدمها الي • ولما تناولتها ، وشممت حبرها الجديد ، ورأيت صورها الكثيرة ، لم أدر أأعيدها اليه وأشتري صحنا من الكروش لنفسي

بالقرش الذي معي ، أم أضيف نصف قرش اليه ، وأشتري المجلة ، وأسمح للعابي بأن يسيل عبثا ٠٠

« هات ! »

أخذت المجلة وناولته سعرها ، ٢/١ ١ قرش ، وعدت الى الطباخ وقلت : « صحن كرشات واحد ! »

فاغترف الطباخ بمهارته وحذره المألوفين الكمية المعينة وصبها في صحن ناولني اياه ٠ وقال : « بس ارجع الصحن بسرعة ٠ »

ونزلت « الطلعة » الى المسبك ، موازنا الصحن بين يدي لئلا يندلق مرقه الثمين ، والمجلة الشهية تحت ابطي ٠

« حط عقلك في رأسك يا ابني ، حط عقلك في رأسك ! » قال ذلك يوسف ، وقد جلس على صندوق خشبي ٠

فقلت : « أين الاسطى ؟ »

ـ راح الاسطى ٠ (وأعاد تمثيل حركة رفع الكأس الى شفتيه) ٠ أرجعت بمجلة مرة أخرى بدلا من صحن الاكل ؟

ـ هاك .

فأخذ الصحن ، وتناول ملعقة من بين المبارد والمطارق، مسحها بأبهامه ، وقال وأنـا أقلب صفحات المجلة بلهفة ، وهو يرشف المرق بصوت هادر :

« أأنت عاشق يا يعقوب ؟ أتطعم عقلك أم بطنك ؟ كيف تأمل أن تسمن وتقوى وأنت في هذه السن ، وأنت كلما حصلت على قرش ، تشتري بـه مجلة لا تغني ولا تسمن بدلا من هذه النعمة ؟ »

ولكنني لم أجبه ، وقد انشغلت بتقليب صفحات المجلة وقراءة العناوين والتمعن في الصور . فاستمر قائلا ، وأنا لا أسمعه الا بنصف اذن :

« العز في ذراعك . لن يفيدك في المستقبل الا ذراعك . أتراني هنا لابسا هذه الرقع ، فتحسبني لم أعرف النعمة والمال ؟ مئات الجنيهات حصلتها بهذه اليد . كنت أميراً عن حق يا يعقوب . (البرنس عاوز كده) كان يقولها كل من حولي ، كلما أردت شيئاً . العز في هذه الذراع . ولكن . . . النساء ، الشقر والسمر، الموسيقى والطرب ، ليالي القمر ، ليالي السهر مع الـ . . . . ما زلت صغيراً يا ابني . أنقذك الله من

الشـفاه المحمرة ، والعيون الكحلية ، والحواجب المقوسة • »

وشفط ملعقته مرة بعد أخرى ، وتناول الكرشة المحشوة بأصابعه وأعمل بها أسنانه ، وكلماته تتخلل العملية الجارية ، غير أنني قاطعته قائلا : « هنا مقال عنوانه : موسيقى القصور في القرن الثامن عشر • »

فقال : « الموسيقى خطر اذا لم تنتبه الى نفسك ، ولا سيما اذا كنت تستطيع الغناء • يلتف حولك عازفو العود والقانون والكمان ، وكحيلة العين بين يديك ، والكأس تدور ، وهواء الليل يهف على النار في القلب • • • »

وفجأة وضع الاكل جانباً ، وخبط بقبضته على صدره: « هذا القلب اللعين ، ابن الحرام هذا ، لا يعقل ولا يرعوي ، الى أن يخرب بيت صاحبه • أنت مازلت صغيراً يا يعقوب • ولكنك ستسمع الكبار يقولون (النساء كلهن سواسية • لا فرق في النهايـة بين الواحدة والأخرى •) كذب ، كذب ، كذب ! لكل امرأة طعمها ومذاقها ، كل منهن أكلة تختلف عن

الاكلات الاخرى • وليس في واحدة منهن غنى عن الاخرى• لا تغرنك هذه الرقع على جسدي يا يعقوب• والله رأيت من الحياة ــ » •

وانقطع عن الكلام ، فرفعت عيني عن المجلة واذا به ينظر الى الباب • فوجهت عيني باتجاه نظرته ، فرأيت امرأة تمشي على مهل وهي تنظر الى المسبك، كأنها تبحث عن أحد فيه • كانت خدودها في حمرة الورد ، ولكن جبينها وبقية وجهها في بياض الطحين، والكحل حول عينيها كثيف • استمرت في مشيتها المتثنية المتهادية على كعب عال وفي يدها حقيبة جلدية ، فأسرع يوسف الى الباب ، يرنو اليها وهي تتباعد ، وردفاها يتأرجحان ويترجرجان •

وقال يوسف أخيراً : « أتدري من تلك ؟ »

ــ لا •

ــ تلك صبحية •

ــ صبحية ؟

ــ الله يساعد الاسطى ! انها ذاهبة الآن الى دكان أبو شلومو ، حيث حنا في الانتظار ••• أبو شلومو

يعطيه العرق في الغرفة ، المتصلة بمؤخر الدكان ، وبعد ذلك ، يا ويلك يا حنا . ربنا يسترنا ، ويستر هذا المسبك .

وأخرج علبة السكائر من عبه ، وتناول منها سيكارة، وأعادها الى عبه بحذر ، وأشعل السيكارة ، وقال وهو ينفث الدخان من فمه ومنخريه : « مثل ماقلت لك . كل امرأة لها طعمها ومذاقها . سبحانك ربي على هذا التنويع العجيب ! »

★★

صباح اليوم التالي لم يأت يوسف الى المسبك . وكان علينا أن نهيىء قوالب جديدة لسبائك نحاسية على شيء من التعقيد . فجعل الأسطى حنا ينبش سبائك اليوم السابق من الرمل ، وهو يكرر :

ــ يعني ما راح يجي الامير ، يعني ما راح يجي ؟ غاطس في أحلامه ، وعندنا شغل، وعندنا مسؤوليات، وعلينا فلوس ندفعها .. يعني ما راح يجي ؟

وأخيراً ، قال لي حنا :

ــ اذهب الى بيته ، وجره من أذنيه !

كان « بيت » يوسف ، على ما أعلم ، في طريق قريبة من المصنع • فقد كنت أراه كلما خرجنا مساء من العمل يدخل بوابة خشبية بين دكاكين الحدادين ، ويختفي وراءها ، ولا يطلب الى أحد زيارته • ففتحت البوابة ودختلها في كثير من الاستطلاع • ولكن لم أر أي بيت في المكان ، بل رأيت درجا في عمارة لم يتم بناؤها • وكان الدرج ينتهي الى دكة عليا عند حائط ، ليس فوقها الا السماء • وعلى طرف من الدكة أقيم كوخ من خشب ، لا يكبر أكواخ الكلاب الا بقليل ، كانت الواحة مخلعة غير منتظمة ، والمسامير تنتأ منها في أمكنة كثيرة ، كخناجر صغيرة، لكثرة ما استعملت لاغراض أخرى في السابق •

صعدت الى الدكة وصحت : « يوسف ، يوسف ! »

فأجابني صوت ضئيل كئيب : «مين ؟ تعال ، ادخل •» لم يكن « الباب » الا قطعة من كيس قديم • فرفعتها ورأيت يوسف ممدداً تحت غطاء رث مسود ، وبقربه جرة ماء ، وصحون من صفيح ، وطباخ «بريموس» ، وعدة زجاجات فارغة بعضها ملقى على بطنها • ولكن عينيّ تسمرتا فجأة بكومة من الاسطوانات قرب

صندوق أزرق أدركت في الحال انه غرامفون · لم يبد كأن هناك أية علاقة بين الشخص الملفع بالرقع وبين الاسطوانات والغرامفون ·

فتح يوسف جفنين ثقيلين وتمتم : « ما لك ؟ ماذا تريد ؟ »

قلت : « الاسطى يريدك في الحال · »

فتنحنح ، وتأفف ، ورفع عنه الغطاء ـ واذا هو في ثيابه النهارية ـ وقال : « ألن أرتاح ساعتين بلا عمل ؟ يعني ما راح أرتاح ؟ »

فقلت : « راح الشر يا برنس · »

فقعد في فراشه وأجاب : « ولا تراه · والله هذه ليست حياة يا يعقوب · هذه ليست حياة · »

ـ ولكن من أين لك هذا ··· الصندوق ؟

ـ الغرامفون ؟ هل بقي لي شيء غير هذا الصندوق؟

ـ وعندك اسطوانات أيضا ·

ـ زوجتي هربت ، وابني ، قصف الله عمره ، ذهب وترهب في ايطاليا ، وأنا لا أستطيع أن أوفر قرشاً كأولاد الحلال ·

ـ شد حيلك يا رجل ٠

فقال ، دون أن ينظر الي : « والله هذه ليست حياة، ليست حياة ٠ »

ولكنني قرفصت على مقربة من الاسطوانات ، وجعلت أقرأ عناوينها ، وأتلذذ بملمسها الصقيل ٠ لم تكن تربو على العشرة ، وبعضها مفطور أو مكسور الحواف ٠ ومع ذلك فقد بانت لي كثروة هائلة ٠

وقلت : « ألا تسمح لي أن أزورك أحياناً لاسمع هذه الاغاني ؟ »

ـ أهلا وسهلا كل يوم ٠ ولكن خذ الحذر منها ٠ ما خرب دياري الا هذا الغناء ٠

فضحكت مندهشاً ، وقلت : « الغناء ؟ »

ـ ماذا تظن أنني فعلت في مصر ؟ أحببت منيرة التركية ، هذه التي ترى اسطواناتها عندي ٠ حنجرة كالفضة ، كالذهب ، كالماء السلسبيل ، ووجه كالورد ، كالقرنفل ٠ بس ايه ؟ ٠٠ أخرجتني من بيتها بالزلط ٠٠٠ بالله ناولني الجرة ٠

ناولته اياها ، فصب منها ماء في راحته رشقه على

وجهه وكرر ذلك مرتين أو ثلاثاً ، وهو يقول :

ـ حنجرة كالذهب ، كالماء الصافي ·

وأخرج من جيبه منديلا من الخاكي الملوث ومسح وجهـه ·

فقلت : « أسرع يا يوسف· عندنا شغل كثير اليوم· »

فنهض ، وأخرج من عبه علبة السكاير ، وأشعل سيكارة ، وقال : « ألا يحق للمرء أن يمرض شويه ؟ والله ما هذه عيشة · »

ونزلنا الدرج وقلت : « أتسمح لي اذن أن أعزف بعض اسطواناتك ؟ »

ـ أهلا وسـهلا · ولكن اذا جئت أحضر لي معك كأسين من العرق ، يا يعقوب ، ها ؟

ـ من أين لي عرق ؟

ـ لا ، ضروري ، ضروري جداً ·

ـ طيب ، طيب ·

★★

كان لبيتنا كوة عليا ، تأتينا من خلالها في الأماسي

أغان رفيعة الصوت ، صادرة عن غرامفون جيراننا، دار أبو عبد الله • وكنت ، كلما سمعت الغناء ، أصغي اليه متنعما بالرغم من أن ذخر جيراننا من الاسطوانات لم يكن غنيا • وقد يجيئنا ضيف ذات مساء ، ثم تنطلق الاصوات الحادة من الكوة العليا ، فنقول مفسرين : « جيراننا عندهم غرامفون » ، فيهز الضيف رأسه معبرا عن ادراكه لأهمية جيراننا، ما دام عندهم غرامفون واسطوانات • وقد تجرأت مرة وصعدت مع أبي لزيارتهم في غرفتهم ، ورأيت صندوق الغناء فاغر الفكين ، وفيه اسطوانة يتألق قرصها • ولشد ما اشتهيت لو يعزفونها في تلك اللحظة ، ولكنني خجلت من أن أطلب اليهم ذلك ، وبقي الغرامفون صامتا ، ونزلت عائداً الى غرفتنا في كثير من الخيبة •

يبدو أن صفاء الليل ، والوقت آخر الربيع ، قد راق لجيراننا في تلك الامسية ، فراحوا يعزفون اسطواناتهم واحدة واحدة ، وأنا مضطجع على فراش على الأرض أقرأ في المجلة • كنت متعبا بعد ارهاق النهار ، ولكن المقال عن موسيقى القصور في القرن

الثامن عشر ، كان فيه من الاثارة ما يوقظني من كل غفوة . كانت الاسماء الاجنبية الغريبة تفعل فيّ فعل الرُقى والطلاسم ، ولم أستطع التأكد ان كانت تلك الانغام الرفيعة الحادة التي أسمعها ، والتي تحاكي أحياناً صيحات البنات ، هي من ضرب الالحان التي يتحدث عنها المقال ، ولكنني قرنت بين الاثنين، حتى سقط رأسي على كتفي في غفوة رأيت فيها يوسف بملابس الامير ينزل الابرة على الاسطوانة في غرامفونه ، ثم يتكسر وجهه خطوطا وأخاديد وهو يغني بحرقة وتوجع ، فأفقت وقلت : « والله لاذهبن الى كوخ يوسف الآن ! »

وعندما اعترضت أمي قائلة : « ولكنها الثامنة تقريباً : أرأيت صبياً في عمرك يتسكع في الشوارع في مثل هذه الساعة ؟ » قلت : « سأرجع بسرعة . أوصاني الاسطى حنا بتبليغ يوسف رسالة ، نسيت أن أبلغه اياها . ثم ان كو ... بيت ... يوسف قريب جداً ، يايمه . »

كان الشارع الذي تملأه مطارق الحدادين رنينا وقرقعة في النهار ، ساكناً الآن سكوناً رهيباً ولكنني

تشجعت وأسرعت الى البوابة الخشبية ودفعتها • ومن أسفل الدرج رأيت خطوطا من الضوء بين أخشاب الكوخ ، فصحت : « يوسف ! »

فخرج كالشبح وأطل علي من الدكة ، وقال ، ممعناً النظر من مرتفعه : « مين ؟ يعقوب ؟ »

ـ نعم •

ـ اصعد •

فلما صعدت قال : « ها ، أين العرق ؟ » وفاحت من فمه رائحة اليانسون •

فقلت : « من أين لي عرق ، يا شيخ ؟ »

ـ ألا يشرب أبوك ؟ أليس في بيتكم زجاجة عرق تسرق لي منها كأسين ؟ أهكذا تكون الصداقة يا يعقوب ؟

فقلت متطلعا الى داخل كوخه ، لاستوثق من وجود الغرامفون والاسطوانات : « جئت لاسمع شيئاً من الموسيقى عندك • »

ـ طيب • ولكن ••• طيب ، ادخل •

وجلسنا أرضا ،وعزفنا صفحةمن احدى الاسطوانات، غير أن يوسف كان شارداً ، صامتاً ، على غير عادته • ثم أمسك بزجاجة ، رفعها الى فمه وأخذ منها جرعة، وكشر لحظة ثم قال : آح •••

وفجأة قال : « اسمع • أتشتريه ؟ »

ـ ماذا ؟

ـ الغرامفون •

لم يخطر ببالي قط آن شيئاً مثل ذلك ممكن • فقلته مندهشاً : « وكيف ؟ »

ـ بجنيهين •

ـ أتحلم يا برنس ؟

ـ هو والاسطوانات بجنيهين ، ها ؟ عندي مشروع • مشروع مهم • ولا بد من الفلوس •

ـ وما هو ؟

ـ ماذا يهمك من أمره ؟ بجنيهين ، الغرامفون ، والاسطوانات • تصور يا يعقوب ! ستكون الموسيقى بين يديك ليلا ونهاراً ••• تصور ••

وأخذ بيدي ، ونهض ، وأنزلني معه الدرج ، وهو

يقول : « عندي مشروع لا بد منه • لقد وفرت بضعة دراهم بعيشة الشحدة هذه • بس ، أريده جنيهين •• وشوية عرق ••• »

فقلت وأنا أودعه عند البوابة : « يا ليت لي هذا المبلغ يا ليت ! »



كان حنا المواسيري ظهر يوم السبت في حالة من المرح لم نكن نراه فيها الا عندما يقبض مبلغاً كبيراً من المال • يظهر أن سبائك الزنك والنحاس التي صنعناها في أثناء الاسبوع كانت صفقة رابحة ، فلم يبخل علي وعلى يوسف بشي من البخشيش علاوة على أجورنا اليومية التي كان يدفعها لنا عصر كل سبت • وقد بالغ في الكرم هذه المرة فقال : « لن نشتغل بعد ظهر هذا اليوم • ما رأيك يا يوسف ؟ وأنت يا يعقوب ؟ »

فقال يوسف : « والله أنت عظيم ، عظيم ! » وتلألأ وجهه بالبشر ، وشد حزامه لئلا يزلق عن خصره بنطلونه المرقع المقطع •

وقال لي حنا : « أشتر لك كتاباً اليوم · هاك عشرة قروش أخرى · »

فصحت : « أشكرك ، معلمي ! » وذهبت الى البيت، ويدي تشد على القروش التي في جيبي ·

وفي البيت هيأت لي أمي حماماً ساخناً (كنت أستحم في طشت من الصفيح نضعه في المطبخ) وبعد الحمام خرجت أتمشى في شوارع المدينة ، وكنت أقف أحياناً عند أبواب المقاهي التي تعزف فيها الاغاني لاصغي اليها·وعند عودتي آخر النهار سمعت صوتاً صادراً من غرفتنا دهشت له ··· كان ذلك صوت يوسف وهو يحدث والدي عن مصر وطنطا والاسكندرية ، ووالداي يصغيان اليه مفتونين بسحر كلامه·كانت تلك أول مرة يأتينا فيها هذا الزائر ويجالسنا · ويا للمتحول العجيب ! لقد وجدته لابساً بنطلوناً جديداً ، وقميصاً نظيفاً ، ومعطفاً لا رقعة فيه !

وعندما أحضرت القهـوة ، تناول يوسف فنجانه وقال : « بارك الله في ولدك هذا ، يا أبو يعقوب · انه لا يتحلى بالشطارةوالذكاء فحسب ، بل بالاخلاق الممتازة أيضا · أقول له ، يا ابني اشتر لك شيئاً

تأكله ، فيقول ، لا بل اشتري شيئاً اقرأه ٠٠٠ كنت في صباي التهم الكتب أنا أيضاً ٠ كل كتاب دنيا عجيبة يعيش فيها القارىء وكأنه ليس في هذا العالم المليء بالمخازي ٠ هل هناك ما هو خير من المطالعة في عالم كعالمنا ، يخجل الانسان من الانتماء اليه ؟ أينما ينظر الانسان حوله لا ير الا الاخلاق تتدهور ، والفضائل تغلب على أمرها : الاصدقاء ، يخون الواحد الآخر ، الابناء يثورون على آبائهم ، الامهات يكدن لبناتهن ، الشبعان يلتهم الجائع ، والجائع يريد أن يفترس الجميع ٠ أي والله ، الكتاب خير جليس ، كما يقول الشاعر ٠ ولكنني عندما كبرت انشغلت عن الكتب ٠ بماذا ؟ بالدنيا ٠٠٠ الدنيا عجائب ، يا أبو يعقوب ، عجائب ٠٠٠ » ورشف آخر ما في فنجانه ٠

فقالت أمي وقد راق لها ولا شك اطراؤه على أخلاقي : « لماذا لا تزورنا أحياناً ما دمت تسكن في مكان قريب ؟ »

فقال : « ولم لا ؟ سأتشرف ٠ » ونهض ٠ وفجأة رأيت في ركن قرب الباب صندوق الغرامفون ، لم

ألحظ وجوده لانشغالنا بحديث زائرنا • اتجه يوسف نحوه ، والتقطه من ممسكه ، وودع أبي عند الباب، ثم التفت الي وقال : « امش معي شويه • »

فخرجت معه متسائلا ، ألعله يريـد أن يهبني الغرامفون ـ أو يعيرني ايـاه ؟ ولكنه حالما بلغنا الزقاق قال : « لم أذكر المسألة في حضور أبيك وأمك لئلا يغضبنا • لقد أحضرت لك الصندوق • »

فهتفت : « لي ؟ »

ـ لكي تشتريه •

فقلت مخيباً : « آ • • • ولكن من أين لي جنيهان ؟ »

ـ أتعتقد انه من السهل علي أن أفارقه ؟ لم يبق لي من أيام العز الا هذا الصندوق • لقد بعت كل شيء ، ولكنني قلت والله لن أبيع هذا الصندوق ، مهما حدث • ضيعت أموالي ، وعدت من مصر ، وعشت كالحيوان في ذلك الكوخ ، وما بعته • ولكن عندي قضية ـ قضية مهمة هـذه الليلة • أنا لن أبيعك اياه • سأرهنه لديك • أعطني جنيهاً واحداً، وأتركه عندك ـ هو والاسطوانات بالطبع • جنيهاً واحـداً فقط • وليبق عندك الى أن أعيـد لك

الجنيه .... بل ليس من الضروري أن تعيده الي حينئذ . ليبق عندك الى أن أطلبه منك في يوم من الايام .

ــ ولكن يا يوسف ، لا جنيه عندي .

ودسست يدي في جيبي أتحسس القطع الفضية التي عندي ، وتخيلت مبلغ نشوتي وقد حصلت على الغرامفون . ولكن ثلاثة وسبعين قرشاً كل ما عندي .

ــ دبر لك جنيها يا يعقوب .

وأخرجت ما في جيبي من قطع نقدية فجأة وقلت : « هذا كل ما أملك . »

فدهش لرؤيتها في حفنتي ، كأنه لم يكن يتوقع استخراج ذلك المبلغ كله منه ، ووضع الغرامفون على الارض وقال : « طيب . هاتها ، وخذه . »

فأفرغت ما في حفنتي في يده ، ثم استرجعت منها خمسة قروش ، فلم يعترض .

ــ والاسطوانات ؟

ــ تعال خذها .

فأسرعنا ، وقد انتشيت بصفقتي الرابحة ، الى كوخه ، لآخذ الاسطوانات ، وكنت على وشك مغادرته حين أوقفني قائلا :

« رأيت في البيت عندك كومة من المجلات · »

ـ نعم ·

ـ أتقدر أن تعطيني اياها ؟

ـ ولكنها قديمة ·

ـ لا بأس · أعطني اياها لاتسلى بها ·

كنت أجمع كل ما أشتريه من مجلات ظناً بأنني سأعود يوماً الى قراءتها من جديد ، غير أنني لم أتردد في العودة مع يوسف ، لاعطائه بعضها ، معللا نفسي باسترجاعها بعد أيام · ولما دخلنا الغرفة ، ورحب به والداي من جديد ، ووضعنا الغرامفون والاسطوانات جانباً ، أخذ يوسف كومة المجلات برمتها بين ذراعيه ، فقلت ممانعاً :

« أستقرأها كلها ؟ خذ لك بضعاً منها فقط · »

فغمزني ، كما كان يفعل في المسبك ، وضحك ضحكة مبحوحة ، وقال وذقنه فوق حمل المجلات : « ما لي

والقراءة وقد بلغت هذا العمر يا يعقوب ؟ سأبيعها بالرطل ، وأحصل بها على بضعة قروش !٠٠ » ثم أردف : « وحالما استرجع الغرامفون أعيد اليك ثمنها واحدة واحدة ! »

وقال أبي : « لا بأس ٠ لا بأس عليك ٠ خذها يا رجل ٠ »

وخرج والمجلات مكردسة بين ذراعيه ٠

ثم سألني أبي : « أيشرب يوسف ؟ »

قلت : « نعم ٠ »

فضحك وقال : « يظهر انه بدأ سهرته في بيته قبل أن يزورنا هذا المساء ٠ أليست هذه ليلة الاحد ؟ يظهر انه بحاجة ماسة الى الفلوس هذه الليلة ٠ »

ثم انصرفنا الى الغرامفون ، وجعلنا نعزف الاسطوانات ، ونعيد عزفها ، وأمي تبتسم مغتبطة، وتقول : « سيندهش جيراننا جميعهم ٠ وستقول أم عبد الله : يظهر ان دار أبو يعقوب أيضا عندهم غرامفون ٠٠٠ عين الحسود فيها عود ٠ »

★★

صباح يوم الاثنين ذهبت الى المسبك فوجدت يوسف، في ثيابه المهلهلة المعهودة · فهتفت به باشا : « صباح الخير ، برنس ! »

غير أنه أجاب بتمتمة كئيبة : « صباح الخير » ، ولم ينظر الي · ولما حاولت أن أحدثه ، أجابني باقتضاب وممانعة ، فأدركت أنه لا يريد الكلام ، وانصرفت الى عملي ·

وبعد قليل دخل الاسطى حنا ، وقال ، وهو ينزع معطفه : « ولك شو سويت ، يا برنس ؟ »

فنظر الى الاسطى بعينين كسيرتين ، وتمتم : « حكوا لك ؟ »

ـ طبعاً حكوا لي ·

ـ كلهم أولاد حرام ·

فقهقه حنا ، وقال : « شايب وعايب··· أما يكفيك الشرب ؟ »

فأجاب باستعطاف اليم : « ألست انسانا يا حنا ؟ قل لي بربك ، ألست انسانا من لحم ودم ؟ »

ـ ألم تجد الا صبحية تحط عينك عليها ؟

ـ أما صبحية أو بلاش ...

ـ كم واحـداً سقيت وأطعمت على حسابك طول الليل ؟

ـ أربعة ، خمسة ، لا والله ، ستة ...

ـ حتى ترضيها ؟

ـ نعم ، بس شو الفايدة ؟.

فقهقه حنا مرة أخرى ، ثـم اقترب منه وهمس : « وما سمحت لك ـ »

ـ من قال ذلك ؟.. بستها ، والله بستها !

ـ طيب ، صادق ، صادق .

وبعد لحظات ، استدار يوسف نحو الاسطى وقال : « اسطى حنا . أتشتري بنطلونا ؟.. انه جديد ، لم يلبس الا مرة واحدة . »

ـ اله معطف أيضا ؟

ـ لا .

ـ أين معطفه ؟

ـ بعته تلك الليلة . لم تكف النقود التي كانتمعي

لمصاريف الليلة فبعته لابو شلومو • والله ما هذه عيشة ، يا حنا ، ثلاثمائة جنيه صرفتها في شهرين ، شرب ، وضحك ، ونسوان ، و ـ

فقاطعه حنا : « يكفي ، يكفي • انصرف الى شغلك • عندنا قوالب جديدة اليوم • يعقوب ! كم كيلو من الزنك بقي عندنا ؟ »

فقلت : « حوالي ثلاثين كيلو • »

فقال : « لا بأس • لنبدأ بصنع القوالب • »

ملتقى الأحلام

عندما عدت من انكلترا الى القدس عام ١٩٤٦ ، بعد غياب سنوات كثيرة ، سألت عن صديقي القديم أنور كريم ، فقيل لي انه أثناء غيابي قد حصل على شيء من الشهرة بثلاثة كتب أو أربعة عدها البعض فتحاً جديداً في الادب العربي ، وانه يسكن الآن داراً منعزلة ، بعيدة بعض الشيء عن المدينة ، في الضاحية الغربية • فما كان مني الا أن استقللت سيارة وذهبت لزيارته •

فوجدته في غرفة جلوسه محاطا برفوف من الكتب. وقد اكتست الجدران بصور زيتية كبيرة . وكان سروره برؤيتي عظيما ، وقضينا ذلك النهار في حديث لم ينقطع الا عند انتصاف الليل . وفي الصباح التالي التقينا ثانية ودعاني للغداء معه في فندق الملك داود ، ثم قال :

ـ اتصلت تلفونيا بصديقي سليم الجابي ، وأعلمته بوصولك . وقد طلب الي أن نذهب معاً الى منزله عصر اليوم للشاي ، لانه سمع الكثير عنك ويود مقابلتك . فهل من مانع ؟

ـ طبعا لا . أشكركما جداً .

وعندما انتهينا من الغداء كانت الساعة تقارب الثانية والنصف . فقلت له :

ـ أود لو نمشي قليلا في شوارع القدس . لم أعرف مثل هذا الطقس المشرق الجميل في الربيع منذ عهد بعيد . ولعلك تعرف طقس انكلترا الماطر .

فقال : « هيا بنا . فأنا أحب المشي أيضا . علي أن نكون في الساعة الرابعة عند سليم . »

ولما خرجنا الى الشارع ورحنا نمشي شعرت بسيل من ذكريات الطفولة يتدفق علي فقلت :

ـ أتذكر أيام كنا ندرع هذه الطرقات طولا وعرضا كلما خرجنا من المدرسة ؟

ـ وكيف كنا نهيم على وجهينا في التلال ونجلس على الصخور ساعات طوالا ؟

ـ وأنت تسرد القصص ، قصة تلو أخرى ٠

ـ لم يكن ذلك بالطبع الا لان حياتنا خالية مما نتوق اليه فنحقق رغباتنا عن طريق القصص ٠

ـ يخيل الي يا أنور انك ما زلت كماكنت أعهدك ٠ وما اختيارك لهذه الدار النائية عن العمران الا لانك ما زلت تحب التلال ـ مع انك ابن المدينة ٠

ـ لقد كانت هذه الدار النائية في الواقع هي السبب في تعرفي بأسرة الجابي ٠

ـ يبدو انك تعلق على هذه الاسرة أهمية كبرى ٠

فتوقف عن المشي لحظة ، وركز نظرة من عينيه في عيني ، ثم قال : « لن تعجب من ذلك لو أخبرتك بالتفاصيل ٠ »

وما كدت أقول : « أرجو أنك لا تهول الامر » حتى انطلق أنور يقول :

لما خرجت من المدينة لكي أقيم في بيتي الجديد في تلك الناحية البعيدة شعرت بأن عبئا ثقيلا قد أزيح عن صدري . فقد كانت أمنيتي منذ زمن بعيد أن أقيم في بيت منعزل عن ضوضاء الناس وضجيج الاسواق، لعلني أسترد ثقتي في الحياة وحبي لجمالها . فأنا أعد نفسي أديبا ، لا لانني أعيش على قلمي ، بل لانني أحببت الكتب منذ صغري واستمددت منها غذائي الروحي سنوات طوالا صممت في أثنائها على أن أضيف الى مكتبة العالم الواسعة على الاقل كتاباً واحداً ، أحصر بين دفتيه سر الجمال ، ذلك السر الذي أكاد ألمسه كلما نظرت الى وجوه الناس أو الى صفحة السماء ، كلما رأيت الانوار تتألق من النوافذ وسمعت ضحك الأطفال وهم يقفزون ، رغم الاسمال البالية والبيوت الحقيرة التي كنت أجدها في كل مكان . كانت أمنيتي أن أكتب كتاباً واحداً يخزن في صفحاته هذا الجمال ، فأرضي نفسي . وذلك ان أكثر الكتب التي كنت ألفتها لم تمس الا أطراف

المواضيع التي تسحرني ولم تقدم لقرائها الا لهواً تسد به ساعات فراغهم · ولهذا كنت عقدت النية على العزلة التامة في مكان بعيد حيث أقضي أشهراً في المطالعة والرياضة على الجبال ، والكتابة · غير أن هذه العزلة لم تتح لي بادىء الامر ، وجاءت الحرب فغيرت الاوضاع في المدينة بسرعة عجيبة ، فجعلت أشك في المقاييس التي كنت أقيس بها الحياة فأراها متناسقة الجوانب ، واذا بي شيئاً فشيئاً أجد في الناس كرها وحقداً وحسداً ، أجد في وجوههم قبح القروش النحاسية التي يتهافتون عليها ، وأجد في غيوم السماء تهكماً وازدراء ، ولا أرى في البيوت الحقيرة الا الجهل والآلام · ولذلك لشد ما كان سروري عظيماً عندما حصلت على هذا البيت المنعزل ، فقلت: « هنا أسترد ثقتي في الناس وفي الحياة ، وهنا أكتب كتابي المنتظر · »

ولكن ما كاد الشهر الاول ينصرم حتى حدث لي حادث غريب · وأنا اذ أذكره الآن لا أتمالك نفسي من العجب كيف اقتحم علي حياتي فجأة ، كأن مسرحية كان يجب أن تمثل في بيتي الجديد ، فيرتفع الستار

على غير انتظار مني ، واذا أنا بين الممثلين ·

فقد كنت أشرب الشاي بعد الظهر ، والنافذة مفتوحة ، أنظر من خلالها الى التلال البعيدة تلاحق الواحدة الاخرى الى أن تحتويها أحشاء الافق ، وقد تفجرت أشعة الشمس فوقها من بين الغيوم · فشعرت بشيء من البرد ـ وكان ذلك في أواخر اكتوبر ـ وماكدت أقوم الى النافذة حتى بدأ هواء عاصف بالهبوب ، فأغلقتها · وما هي الا لحظات حتى انقلب الهواء الى ريح عاتية ، واذا بالسماء تدلهم ، وأشعة الشمس تختفي وراء غيوم سوداء مندفعة · ولما كان البيت على رأس تلة تحيط بها قفار واسعة ، جعلت الريح تصفر وتئن اذ تتخبط حول الدار ، فتنحني الشجرات الثلاث الواقفات كالحرس أمام المنزل انحناء المتوجع وتضرب أغصانها جدار المنزل ·

ولم أكد قد اخترت ذلك المكان لسكناي عبثاً · فمنظر عاصف كذاك ، بوحشته وروعته ، كان من أحب الامور الى نفسي · فاتكأت على عتبة الشباك وجعلت أرقب الاشجار الثلاث تتلوى والغيوم تتراكض وأصغي الى زئير الطبيعة ، وقد بدأ الظلام يهبط

موحشاً ، الى أن اسودت التلال • ثم لمع برق خاطف في السماء ، وقصف الرعد ، وسرعان ما بدأ المطر في الانهيار ، ثم توالى البرق والرعد مرات عديدة وانفتحت مصاريع السماء •••

والتفت حولي في غرفتي المظلمة أطلب غليوني : وتدخين الغليون بعد الشاي واجب ممتع عندي • ولما لم أستطع أن أراه ذهبت نحو الحائط لانزل مفتاح الضوء ــ واذا الكهرباء مقطوعة • فغضبت لذلك أولا ، غير أنني سلمت أمري لله وقلت لا بأس من ليلة ليلاء كهذه ، نقضيها في ظلمة دامسة • لعل العواصف قد عبثت بالاسلاك الكهربائية •

غير أنني بعد قليل سئمت الظلام ، وتسربت وحشة المكان الى نفسي مشوبة بشيء من الخوف • ولم يكن عندي مصباح : فما العمل ؟

ذهبت الى المطبخ وأخرجت ــ في ضوء عيدان الكبريت ــ كأساً ملأت ثلثيها بالماء ، وأضفت اليه شيئاً من زيت الزيتون • ألم يكن السراج ضوء أجدادنا الوحيد في الازمنة الغابرة ؟ وفتلت شيئاً من القطن ــ وبالاختصار ، أضأت قنديلا يتراقص قبسه ، ووضعته

على المائدة . وما أجمل الظلال التي كان يلقيها على الجدران كلما تحركت .

لم يكن في وسعي حينئذ أن أكتب أو أقرأ ، وكان عندي ، عدا الغرامفون الكهربائي ، غرامفون يدار باليد ، فأخرجته ، ثم أخرجت عدداً من الاسطوانات الكلاسيكية ، وبدأت بالسمفونية السادسة لبيتهوفن . فهي السمفونية الريفية كما تعلم ، وفي أواسطها عاصفة ستضيف الى العواصف التي حولي سحراً غريباً .

وهكذا جلست في كرسي كبير مريح في ضوء القنديل الخافت وظلاله العمقية ، أنفث سحب الدخان اللذيذ وأصغي الى الموسيقى باذن وأصغي الى هياج الطبيعة بأذن أخرى ، وكلي نشوة . ثم انحصر انتباهي في تتبع الالحان ، حين بدأت تنذر في جمجمة رائعة بدنو العاصفة على الجبال : ها هي ذي الطبول تدق كقصف الرعود ، والاوتار تزأر كالزوابع ، وها النغمات تتحدى وتتجاوب ، وها هي تبلغ ذروتها من العنف الالهي —

واذا بالباب يقرع بغلظة ...

فظننت أولا انها الريح ، ولكن القرع الشديد عاد وقطع علي سيل متعتي ، فقمت متذمراً الى الباب الخارجي ، والاسطوانة ما زالت تدور ، وما كدت أفتح الباب حتى هاجمتني الرياح وبللتني في الحال، واندفع الى الداخل رجل كأنه خرقة غمست في الماء ورفعت وهي تقطر ، وتسلل الى جانبه كلب كبير • فأغلقت الباب درءاً للعاصفة وهو يقول :

ـ مساء الخير • لقد أزعجتك •

ـ لا أبدا • يظهر انك وقعت في حبائل الطبيعة •

فقال وهو يلهث ويكاد يرتجف :

ـ أتسمح لي أن أجفف ثيابي في منزلك ؟ لقد تبلل جسمي كله من الداخل •

فقلت وأنا أقتاده الى الداخل : « طبعا • لكن اسمح لي ـ »

واندفعت في الغرفة وأوقفت الغرامفون •

فقال : « لماذا أوقفته ؟ تلك موسيقى جميلة • أظن أنني أعرفها • بيتهوفن ؟ »

ــ أجل •

وأدركت أنه لا بد شاب مثقف • ولسبب ما ، راق لي مظهره في الحال ، وان لم أستطع أن أتبين وجهه • فقلت :

ــ سنستمر في العزف اذا أردت بعد أن تجفف ثيابك • ها هو الحمام • وأظن أنك ستجد منشفة فيه •

ــ أشكرك جداً • أرجو ألا يزعجك كلبي • فهو أليف لا يؤذي أحداً ، رغم ضخامته •

عطفت على المسكين ، وقلت لنفسي ان لم أساعده في الحال ، فقد يمرض • فعدت إلى الغرفة وأخذت القنديل الى الحمام ، وقد بدأ ضيفي يخلع ثيابه ، وكلبه الكبير بجانبه ينظر اليه •

ــ سأسخن لك شيئاً من الماء فتستحم به ، لكي يزول عنك البرد • فلحمامي جهاز يعمل على النفط ويسخن فيه الماء بسرعة •

لم يتكلم الفتى ــ وقد تأكدت انه لا يتجاوز الخامسة والعشرين على الاكثر ــ بينما أشعلت جهاز الحمام • ثم ذهبت الى غرفة النوم وأخرجت بعض ثيابي ،

وقدمتها اليه لكي يلبسها عندما يفرغ من حمامه ٠ وتركت القنديل عنده وأغلقت باب الحمام ورائي، وعدت الى غرفتي بحذر لئلا أعثر على شيء ، وأنا أتساءل من يكون هذا الرجل ؟ وبحثت عن مقعدي في الظلام وجلست فيه ماداً رجلي أمامي ما استطعت وأشعلت غليوني من جديد ٠

وعندما خرج الشاب ـ ورأيت انه قد لبس ثيابي ـ جاء الي يحمل القنديل ، فبدا لــه وجه جميل وعينان كبيرتان ، وقال :

ـ لقد غمرتني بفضلك ٠

ـ لا بأس يا شيخ ٠ فهذه ليلة لم تكن في الحسبان ٠

ـ كثيراً ما أخرج الى هذا المكان، وأنظر الى منزلك الجميــل ، وطالما تمنيت أن أرى داخله ـ لكن في ظروف أحسن من هذه ٠ كنت قد توغلت في المشي هــذا المساء ، ثم انقلبت الدنيا فجأة ٠ فجئت الى منزلك راكضاً ٠ ولما لم أجد الا بصيصاً من النور ظننت أنك لست في البيت ، لولا أن صوت الموسيقى اخترق أذني ، بالرغم من العاصفة ، وكنت قــد

تبللت حتى ما عدت أعرف أأنا أمشي أم أسبح ٠ وأظن أنني تبينت اللحن فقلت : ان من يعزف مثل هذه الموسيقى لن يرد زائراً غريباً ٠

ـ أشكر لك حسن ظنك بي ٠ تفضل واجلس ٠

ـ أرجو أن ينقطع المطر قريباً ، فلا أزعجك أكثر ٠

ـ انني في الحقيقة أشعر بشيء من الارتياح لقدومك ٠ فان الليلة عنيفة ، ومن يعش لوحده في مثل هـذا الجو يستوحش أحياناً ، ومهما يكن من أمر فلا أظن أن ثيابك في الحمام ستجف بسرعة ٠ وليس عندي مـن أدوات التدفئة لتجفيفها الا مدفأة كهربائية

ـ والكهرباء كما ترى مقطوعة ٠

ـ اذن ما العمل ؟

فضحكت وقلت : الليل طويل ، فلننتظر ٠

وكأنه لم يفهم ما قلت ، فنظر الي بامعان في ضوء القنديل ، ثم رأيته في شيء من الدهشة ينظر حوله الى رفوف الكتب التي بدت أكثر عدداً مما هي بسبب النور الضئيل ، والى المنضدة والاشياء عليها متراكمة ، ثم الى المائدة وقد استقرت عليها الاسطوانات

والغرامفون • وظهرت الصور الزيتية كأنها فجوات في الجدران تطل على عالم آخر •

ولم أقل شيئاً ، لكي أعطيه وقتاً كافياً يستوعب فيه ذهنه جو الدار التي دخلها مكرها وعلى غير انتظار من صاحبها ، ثم سألته برفق :

ـ من أنت ؟

فخيل الي انه لم يكن ينتظر مثل ذلك السؤال ، اذ تلعثم قليلا ثم أجاب :

ـ أنا سليم الجابي •

ـ ابن توفيق الجابي ؟

ـ نعم • أتعرف أبي ؟

ـ نعم • أتعرف أبي ؟

ـ كلا • ولكن من لم يسمع باسم أبيك ؟

فخيل الي أيضا انه لم يرق له اطرائي على أبيه ـ وقد دهشت لذلك ، لولا أنني عزوته الى عدم رؤيتي تقاطيع وجهه بوضوح • فللقنديل تأثير مزعج على الوجه ، اذ يضيء أجزاءه النافرة فتبدو أشد نفوراً

مما هي ، ويضع الاجزاء الأخرى في ظلام عميق ، فتتشوه سماته ·

وكنت أعرف توفيق الجابي بالاسم ، لانه صاحب مصانع للنسيج مشهورة ، ولم يغب علي أن أستنتج في الحال أن ضيفي شاب ميسور لـه من الثقافة والتهذيب ، ما يجعلني مطمئنا الى بقائه ـ اذا لزم الأمر واستمرت العاصفة ـ في بيتي حتى الصباح ·

وفي الواقع لم يخب ظني فيه · فقد جعلنا نتجاذب أطراف الحديث ، وحين استرد شيئاً من ثقته ، وأخذت تزايله تلك الكلفة المزعجة التي لا مفر منها عند التقاء الغرباء ، توسع بنا الكلام · والزوابع الهوجاء ما زالت تكر وتفر والمطر يضرب أوراق الشجرات الثلاث بعنف مسموع ·

وبعد ذلك قمنا معاً الى المطبخ وهيأنا لنا عشاء أكلناه ، ولم ننس الكلب ، فأعطيناه شيئاً يأكله ، ثم عدنا الى غرفة الجلوس بين الاوراق والكتب ، واستأنفت عزف السمفونية على الغراموفون ·

واذ لـم ينقطع المطر ، عرضت على سليم أن ينام عندي ·

وبعد شيء من التردد قال :

ـ انني لن أنسى جميلك . فسأبات الليلة هنا ، ولكن على شرط .

فاستغربت لذلك وقلت :

ـ وما الشرط ؟

ـ أن تسمح لي غداً بعد الظهر أن آتي هنا مرة أخرى ومعي شخص آخر .

ـ ومن يكون هذا الشخص ؟

فشعرت أن وميضاً أضاء في عينيه اذ أجاب :

ـ خطيبتي .

فقلت ضاحكاً : « أهلا وسهلا . وسنشرب الشاي معاً . »

ثم أردفت : « وأظن أن خطيبتك سوف تكون أول امرأة يحتويها هذا المنزل ـ عدا الخادمة العجوز بالطبع . »

فأجاب ضاحكاً : « اذن يكون هذا شرفاً أكبر ... »

ـ وهل ستأتي بهذا الكلب الجميل أيضاً ؟

ـ كلا • انما آخذه معي كلما خرجت للتجوال وحدي على التلال • وهو وان يكن اليفاً لن يتردد في مهاجمة أي انسان اذا أشرت له بذلك عندما يقتضي الامر •

★★

استمرت العاصفة في زئيرها طيلة الليل ، وعند الصباح انقطع المطر وانقشعت الغيوم ، غير أن الرياح استمرت في عنفها • وغادرني سليم على أن يعود بعد الظهر كما أراد ، وقد أوصلته الى البوابة الخارجية مودعاً ، ورأيته يبتعد عن الدار وشعره منبث حول وجهه ، ويكاد يندحر الى الوراء ، لشدة الريح •

وحوالي الساعة الرابعة سمعت صوت سيارة في الخارج فنظرت من النافذة ، واذا بسليم يخرج منها متدثراً بمعطفه ، وتخرج فتاة متدثرة أيضاً بمعطفها وقد ربطت منديلا حول شعرها •

فذهبت وفتحت الباب وفيّ شيء من السرور لهذه الالفة السريعة ، ولكن ما كادت عيناي تستقران على وجه الفتاة في اطاره المنديلي ، حتى سرت في جسمي

قشعريرة غريبة لم أدر لها سبباً : غير أنها كانت قشعريرة لذيذة ، كأنني فجأة تعريت من ثيابي في يوم حار ، ووقفت تحت الدوش وسمحت للماء البارد بأن يتدفق علي بقوة .

وقال سليم معرفا :

ـ خطيبتي الآنسة رباب راسم . وهذا صاحب المنزل السيد أنور كريم .

واذ صافحتها كانت يدها نحيفة باردة ، وقد ابتسمت وقالت :

ـ لقد قرأت بعض ما تكتب .

وبعد أن خلعا معطفيهما ، اقتدتهما الى غرفة الجلوس ، وراحت رباب تنظر الى الكتب رفا رفا ، ثم بدأت تركز انتباهها في الصور الزيتية ، وكلامها قليل كأن ما في فكرها لا يمكن أن يحكى . ثم أحضرت أواني الشاي ، وجلسنا .

غير أنني رغم طلاقتي في الحديث ، جعلت أخجل من نفسي ، بل كدت أغضب على الفكرة اللعينة التي قفزت الى رأسي من حيث لا أدري : عليّ أن أحب رباب ...

لقد شعرت أن تلك لم تكن أول مرة أراها فيها • بل خيل الي انها ما جاءت الى منزلي الا حسب موعد ضربته معها ــ والله يعلم أن عيني لم تقع عليها مرة من قبل • ويبدو أن سليم يعبدها ، فهو رغم تحفظه (وفي حركاته شيء من الانفة والثقل) لا يستطيع أن يخفي هواه بها • وأما هي ، فواثقة من نفسها في شيء من الحيرة : واذ كانت تتكلم كانت تنظر حولها في شيء أشبه بالريبة ••

ولما بدأنا بشرب الشاي قالت : « ان منزلك جميل جداً • أتسمح لي برؤية بقيته ؟ »

فقمنا والاكواب في أيدينا وأريتها غرفة النوم ، وغرفة الطعام الصغيرة ، والمطبخ والغرفة الخلفية التي كنت جعلت منها استوديو لتصويري بالزيت • وكانت رباب تبدي اعجابها باتساع الغرف وما الى ذلك ، ولكن ما ان رأت الصور التي لا تحصى تكسو الجدران والارض حتى انطلق لسانها من عقاله :

ــ اذن أنت رسام ! كنت أظنك كاتباً •

وقال سليم :

ـ انه لم يخبرني بذلك أمس !

فقلت مازحاً : « هذا سر من أسرار حياتي • في قرارة قلبي ما أنا الا رسام ، ولا أجد لذة في الحياة تساوي لذة امساكي بالريش ووضع الالوان على اللوحة • ولكن ما هذه الا هواية • اذ لا بد لي أن أكتب لكي أعيش • »

فقالت وقد أشرق وجهها : « أرأيت يا سليم انني كنت صادقة في تخميني ؟ » ثم التفت الي : « ألم يخبرك سليم بقصتنا ؟ »

قلت : « لا • »

فقاطعها سليم : كلما مررنا بمنزلك كانت رباب تقول :

ـ أود لو أدخل هذه الدار ، لأرى صاحبها • »

فضحكت رباب : « كنت أقول لا بد أن صاحبها شخص غريب • لعله رسام ، وشارطت سليم على ذلك ! ولكنني في الحق تصورت أن لك لحية سوداء كثة ، وانك لا تحب الضيوف ! »

وأردف سليم : « ولما اضطررت أمس الى اللجوء اليك

ولم تخبرني بأنك رسام ، طلبت منك أن تسمح لرباب بزيارتك بنفسها لكي تصدق ــ لانها عنيدة نوعاً ٠٠٠ » وضحك ٠

ولحظت حينئذ ــ مع أن ضوء السماء كان خافتاً في الغرفة ــ ان رباب جعلت تنظر الى صورة في أحد الاركان : وفيها فتاتان تنظران من نافذة ، وقد اندمج جسماهما ، وكلتاهما تشبه الاخرى شبهاً قوياً ، ولكن احداهما عارية والاخرى لابسة ، وعلى عتبة النافذة زهرتا نرجس في اناء ٠ وللحال أدركت سر ذلك الشعور الغريب الذي كان قد انتابني : فان الفتاتين تكادان أن تكونا رباب نفسها ٠٠٠ بل ان عشرات الوجوه التي كانت تعج بها صوري ما كانت الاوجه رباب ٠ فقد كان أصدقائي يتساءلون لماذا أرسم نفس الوجه دائما فأقول : لست أدري ، لقد خلقت هذا الوجه ثم عشقته !

ولست أعرف اذا كانت رباب قد لحظت ذلك ، غير أن سليم ابتسم اذ نظر الى صورة أخرى وقال : « ها ! يكاد هذا الوجه أن يشبه وجه رباب ! »

فضحكت وقلت : « مجرد وهم يا عزيزي سليم ٠ هيا

بنا الى غرفة الجلوس ، لنشرب كوباً آخر من الشاي ٠»
وخرجنا ورباب تقول : « أريد أن أرى هذه الصور كلها ، واحدة واحدة ٠ »

قلت : « أهلا وسهلا ٠ ولكن في مناسبة أخرى ٠ »
وصببت لها الشاي ٠
ولشد ما كانت دهشتي أن أجد حين غادرني الضيفان الكريمان ، ان ثائرة الريح قد هدأت ــ ولم أكن قد لحظت ذلك ٠ ان كل ما أذكره هو انني كنت كلي فرحاً بزيارة سليم ورباب ، واذ ودعتهما عندما ركبا سيارته ، قلت لنفسي : انني أودع أجمل مخلوق رأته عيناي ٠ »

وقال سليم :

ــ لا تنس الموعد ٠ العشاء يوم الخميس ٠٠٠

وعدت الى الاستديو ، وجعلت أنظر الى رسومي من جديد ، وأتلذذ بالشبه القوي بين رباب وهذه النسوة ــ بل هذه المرأة التي تكاد تتكرر في كل صورة ٠ غير أنني وبخت نفسي على تهالكي المشين في ذهني وقلت : « لا شك أنني واهم ٠ فليس بين هذه الصور

وبين رباب من الشبه الا ما يختلقه خيالي الكاذب ·
ولا يليق بي أن أعلق أفكاري بهذه الفتاة المخطوبة
الى شاب دمث لطيف كسليم · »

★

والتقينا بعد ذلك مرات عديدة ، وشبت في قلبي نار لم أستطع أن أخمدها ، ولكنني حاولت جهدي أن أبقي أمرها سراً في نفسي · وكلما ذهبت الى دار سليم الجابي أخذني الى غرفته لئلا أضطر الى الاختلاط بأصدقاء أبيه – وقد لاح لي انه يؤثر الا يتحدث عن أبيه ، مع انه عرفني به وجالسته مرتين أو ثلاثاً في الصالون الفخم الذي يلتقي فيه جماعة من أغنياء المدينة وتجارها المعروفين بين حين وآخر · وكثيراً ما تكون رباب هناك فهي في الاصل من أقرباء العائلة ·

وذات صباح جلست الى منضدتي أشرب فنجاناً من القهوة (كنت هيأته بنفسي) وأكتب فصلا من كتابي العتيد ، واذا جرس الباب يدق ·

وسرني أن القادم لم يكن الا رباب وقد ربطت

شعرها بذلك المنديل نفسه الذي رأيته يوم جاءت الىالمنزل أول مرة ، ولكن لحظت أن في وجهها شحوباً، رغم شيء من المسحوق أرادت أن تخفي به معالمه ، وحول عينيها ظلالا بادية الزرقة ·

قالت بعد السلام مبتسمة : « هل أنت وحدك ؟ »

ـ نعم لحسن الحظ !

ـ أتكتب أم ترسم ؟

ـ أكتب ·

ـ هل تركت الرسم ؟

ـ أبـدا · كل ما هنالك ان علي ان انصرف الى الكتابة لبضعة أسابيع الى أن أفرغ من هذا الكتاب ·

ـ أريد منك أن تخبرني عن تفاصيل كتابك · وأريد منك أن تعلمني كيف أنظر الى صورك · وأريد منك ـ آشياء كثيرة !

وضحكت ·

ـ أتشربين شيئاً من القهوة ؟

ـ اني أعبد القهوة ·

ـ سيجارة ؟

ـ أشكرك ٠

وأشعلت لها السيجارة ٠ ورشفت قهوتها صامتة ٠

وكان في نفسها أمر غامض ، عديت به دون أن أعلم ما هو ٠ ولكنها رفضت أن تفاتحني بشيء ٠ ألعلها تخاصمت مع سليم ؟ فقلت وكأنني أبحث عن شيء للقول :

ـ أتذكرين اليوم العاصف الذي جئت فيهمع سليم ؟

ـ نعم ٠ ولن أنساه ٠

فظننت أن ذلك اطراء منها ٠ قلت :

ـ كنت ثائر الاعصاب قليلا ، ولذلك عندما دخلنا غرفة الصور فزعت قليلا ٠

ـ لماذا ؟

ـ لانني أدركت فجأة أن نساء الصور في شبهك تماماً ٠

ـ غريب ! لقد شعرت أنا بشيء من هذا القبيل ولكنني عزوته الى غرور النساء ٠

ـ غرور ! ان من لها جمالك لا تستطيع أن تكون مغرورة ٠

ـ أتراني جميلة يا أنور ؟

فابتسمت وقلت : « هذا سؤال جوابه أوضح من أن يذكر ! »

واذا هي تقوم وتتكىء على عتبة الشباك وتنظر من خلال الزجاج الى الخارج ٠ ولأمر ما ظننت انها غضبت ، ولكنها قالت وعيناها تنظران الى التلال :

ـ أتدري ما يخفي جمالي وراءه ؟

حينئذ دنوت منها وقلت :

ـ مهما يكن فلا بد أن يكون جميلا مثلك ٠

فدارت بوجهها نحوي ، ثم أدارت ظهرها الى الشباك، ونظرت في عيني ٠

فما كان مني الا ان احتويتها بين ذراعي فجأة وقبلتها ٠ واذا بها تتهالك على صدري ، وتستسلم و بين شفتيها تنفس عميق ٠

وهمست : « رباب ٠ لقد كنت مجنوناً فلم أعرف ٠ »

وقبلتها مرة أخرى ، فأخرى • ثـم توقفت رباب فجأة وقالت :

ـ لم تجبني على سؤالي !

ـ أي سؤال ؟

ـ ماذا يخفي جمالي وراءه ؟

ـ قلت مهما يكن فلا بد أن يكون جميلا مثلك •

ـ ظننتك يا أنور احذق من ذلك • لا يخفي جمالي الا قبحاً تخاف منه لو عرفته •

ـ انك تبالغين • لعلك تشعرين بأنك مجرمة في حق سليم • أما أنا فقد شعرت بهذا الجرم منذ أول لحظة رأيتك فيها •

ـ ان الشعور بالجرم يلذ لي • فالحب لا يعرف لذته الا من يحب حباً مجرماً •

فدهشت لقولها ، وترددت لحظة قبل أن أفوه بشيء : هل خدعت رباب سليم كل هذه الايام بمظهر العفاف وهي في الحقيقة متهتكة ؟ وهـل جاءت الآن الي لتدخلني في دائرة تهتكها ؟ سألتها :

ــ ماذا تعنين ؟

ــ فسر قولي ماشاء لك التفسير . خذني الى الاستديو ولننظر الى الصور .

وما كدنا نخطو خطوتين حتى كنت نسيت كل شيء سوى هـذا الجمال الخالص يتثنى على صدري . ولا أذكر شيئاً مما قالته رباب حين جعلت تتفحص الصور ثم تعود الي ، ثم تعود الى الصور ، الا تلك الكلمات التي فاهت بها في النهاية هامسة في أذني :

ــ أشعر بهواك كأنه نهر فاض من صدرك فغمرني بسيله ــ وكاد يغرقني . أتدري أنني لم أذق طعم النوم لثلاث ليال متواليات ؟

فابتسمت وقد زهوت بحبها وقلت :

ــ أمن أجلي ؟

ــ من أجلك ومن أجل سليم . لقد وقعت في الاحبولة التي نصبتها لنفسي .

ــ أما أنا يا رباب ، ان أرقت فمن أجلك وحدك . ثم نظرت الي نظرة جادة (ونظرات مثل تلك منها كانت أحياناً تزعجني) وقالت :

ـ ما موضوع الكتاب الذي تكتبه ؟

ـ لست أدري بالضبط • أريده أن يكون كتاباً يحوي بين دفتيه عصارة الحياة وقد تحولت الى خمر • ألم تشعري قط بأنك تريدين أن تلمسي جمال الاشياء بكل حاسة من حواسك : فتنة الوجوه والاعضاء ، روعة المياه الدافقة من الجبال ، طراوة أوراق الحشيش ، صلابة أطراف الشوك ، اتساع زرقة السماء ، الى آخره الى آخره ؟ ولكن هذه قطع متناثرة ، تتصل بعشرات القطع الاخرى ، أريد أن أدمج بعضها ببعض ، وأستخرج منها تراكيب جديدة •

ـ والقبح ، أليس له مكان في كتابك ؟ قبح الجوع والمرض ، قبح البيوت التي لا يدخلها هواء ولا شمس ، قبح الحياة وقد امتدت بها السنون ولم تعرف يوماً طعم الحب ؟

ـ لا شك ، لا شك • بل انني سأجعل القبح جزءاً لا ينفصل عن الجمال ، فالقبح في ثنايا الجمال ، غير أن الجمال يطغى على كل ماسواه ويحول القمامة الى ذهب •

وعندئذ وقعت رباب بين يدي وقالت :

ـ لقد شعرت في نفسي بقبح أخاف منه • أنقذني منه يا أنور وحوله بسحرك الى جمال •••

★

واتفق عصر ذلك اليوم اذ كنت خارجا من احدى المكاتب التي أتردد عليها ، ان مر بي سليم الجابي في سيارته ، فهلع قلبي ، ولما ظننت انه لم يرني حمدت الله • غير انه رآني فاستمر في السير الى آخر الطريق لكي يدير سيارته الى الخلف ، وعندما أدركني أوقف السيارة وقال :

ـ مرحباً يا أنور •

ـ مرحباً •

ـ تفضل واصعد الى جانبي ، ان لم تكن مشغولا •

ولم أستطع رفض الدعوة فجلست الى جانبه وانطلقت السيارة في هدوء • ولم يقل كلانا شيئاً لدقيقتين أو ثلاث ، وأنا أعاني الشعور بجرم ما فعلت ذلك الصباح • غير انه قطع حبل الصمت بقوله وهو ينظر الى الامام :

ـ لم أر رباب منذ أسبوع •

ودخل بالسيارة في شارع آخر • وقلت :

ــ ولماذا ؟

ــ لست أدري • ما رأيك في شيء من الشاي في هذا المقهى ؟

فنزلنا ودخلنا مقهى صغيراً وجلسنا في أحد الاركان وطلبنا شاياً • ثم أخرج سليم سيجارة وقد بدا عليه وجوم لم آلفه من قبل • وأشعلها وقال :

ــ من الغريب يا أنور انني لا أتحدث بشأن رباب مع أحد الاك • يلوح لي ان كلينا قد استأنس اليك، ورأى فيك صديقاً وناصحاً •

فطغت علي ، لعبارته تلك ، موجة من الألم ، كأنني رأيت شخصاً عزيزاً يقاسي سكرات الموت يستنجد بي فلا أستطيع مد يدي اليه ــ لانني أنا الذي سببت له الموت • فقد كان في وجه سليم وعينيه ما ينم عن يأس بدأ يستقر في قلبه ، ويسري في عروقه •

قال : « انني أخشى أن أفقدها • لقد أوقفت عليها حياتي في السنة الاخيرة حتى ما عدت أتصور الحياة

بدونها ممكنة • ولو لم يكن لعنادها لتزوجنا منذ أشهر • »

فقلت : « ولكن ما سبب خوفك هذا ؟ ماذا حدث ؟ »

ـ لم يحدث شيء • كل ما هنالك هو انني صرت ألمح فيها بروداً لم أعهده من قبل • وعندما صارحتها بذلك قبل بضعة أيام غضبت وقالت نافرة : « لقد سمئت الحياة ، بل كرهتها • ولا أرى في حياتك الا فراغاً لست أطيقه أكثر من هذا » • ومنذ ذلك اليوم لم أرها ، وكلما حاولت الاتصال بها تليفونيا لم تكن هناك • يبدو انها ترفض أن تخاطبني حتى بالتليفون •

وعن لي حينئذ أن أطلعه على مجيئها الي في ذلك الصباح ، غير أنني ترويت قليلا وغيرت رأيي ، وقلت :

ـ أتظن انها تحب شخصاً آخر ؟

فتكدر جداً لذلك ، وقال بعصبية بادية :

ـ بالله لا تسألني مثل هذا السؤال • لا أستطيع أن أتصورها تحب غيري ـ ولا أظن ذلك ممكنا • لقد

عرفتها منذ سنوات ، وليس حبنا وليد أمس. انني لا أشك في اخلاصها لي أبــدا ، لانها فتاة عميقة العواطف ، وليس حبها مجرد ملهاة . لقد تطورت علاقتنا الاخيرة في شكل لن يدع لي مجالا للشك . انها تحبني . غير ان لها حالات نفسية تتقلب بها فيصيبها أحياناً غم وأسى عميق ، وتزهد في الدنيا ولا ترى فيها الا قطعة كبيرة من القبح .

ـ وماذا تفعل أنت حينئذ ؟

ـ أحاول أن أفرج عنها ، ولكنها تغرق في غمهــا وأساها يوماً أو يومين ثم تعود ضاحكة مشرقة . لعلك تدري ان أمهــا ماتت عندما كانت هي في العاشرة . لقد ترك ذلك في قلبها ألماً يعاودها بين الحين والآخر .

ـ اذن لعل هذه فترة فجائية أخرى من الألم ياسليم. ان رباب فتاة ذكية وجميلة : واذا اجتمع الذكاء والجمال في امرأة ، فغالباً ما يكون ذلك لمضرتها ، لانها عند ذلك لا تريــد الحب فحسب كغيرها من النساء ، بل تريد أشياء أخرى أيضاً .

ـ أظنك مصيبا .. انها تريد الحياة بأجمعها. تريد

الاختبار والتجربة • وشرقنا لا يسمح بمثل هذه الرغبات للنساء •

ـ ولعل هذا سبب شقائها ؟

ـ ولكنني لم أمانعها في رغبة قط • فأنا أريدها امرأة طليقة كالريح ، مندفعة كالمياه •

ـ وهذا سر جمال رباب • ففيها الطلاقة والاندفاع، ولكن لا بأس من حزن مفاجىء ينضج فيها الادراك والعاطفة •

والله يعلم انني ما قلت ذلك تغطية لجرمي ، بل لانني ارتأيت فيه الصواب لفتاة مثلها لا توجد في كل حي •

فقال سليم :

ـ غير أنني أخشى هذه المرة انها ليست فريسة حزن مفاجىء كما تقول • ولا أكتمك انني مضطرب جداً • اذا لم أرها في بحر يومين أو ثلاثة ، فسوف أرابط لها في منزلها الى أن أراها ، واستفسر الأمر •

حينئذ سددت الى عينيه نظرة جمعت فيها ما أوتيت من شجاعة وقلت :

ـ واذا اكتشفت أنها تحب رجلا آخر ، فماذا تفعل؟

فقال مغضباً :

ـ بالله كفاك ! انني لا أؤمن بارتكاب جريمة من أجل الحب ، ولكن من يدري ما قد يفعله الانسان في حالة غضب لا يكبح ؟

★

وغداة اليوم التالي جاءت رباب الى داري ، ووجهها مورد بفعل ريح باردة كانت تهب آنذاك ، واذا بها ضاحكة مستبشرة ، كأنها قد تخلصت من كل تردد أو حيرة ، وأيقنت أن سعادتها في حبها لي ٠

ولم أستطع أن أقاوم اغراءها ٠ بل انني نسيت ما كانت عزمت عليه في الليلة السابقة من أن أصارحها بوجوب انقطاعها عن زيارتي ٠ فأنا اذ رأيتها تدخل الدار وتحييني تحية من يعرفني منذ سنوات لا منذ أيام ، لم أجد بدا من أن أستسلم للفتنة التي كانت تقطر من حركاتها ولفتاتها ، ولم يبق في ذهني الا فكرة واحدة : ما أطيب حب هذه الفتاة !

وقضينا ذلك اليوم سوية ، بعيدا ـ كما جرى القول ـ عن أعين الرقباء ٠٠٠

ولما أقبل المساء قالت قد آن لها الذهاب ، ولكن يعز عليها أن تذهب .

فقلت : « اذن ابقي ! »

فأجابت : « لقد عمدت الى خطة فظيعة يا أنور . »

ـ ما هي ؟

ـ لقد أعددت نفسي للسفر الى بيروت .

ـ وهل أنت ذاهبة ؟

ـ أود لو تستطيع أن تخفيني في منزلك ؟

ولم أفهم في بادىء الامر ما ترمي اليه ، وظننت انها انما تعبر عن رغبة يعسر تحقيقها . غير انها أضافت:

ـ انني أعني ما أقول . ان كنت تحبني فاسمح لي أن آتي اليك غداً ، فأبقى هنا أسبوعين .

ـ ولكن ... رباب ، أخشى أن يوقعنا ذلك في مشاكل .

ـ ما أجبنكم معشر الرجال ! حتى أنت ياأنور تخشى أن تجابه الحب وكل ما يتطلبه ... حسناً اذن . سأذهب الى بيروت .

ـ لا ، بل تأتين هنا ! وسأتخلص من الخادمة العجوز، فلا يعرف أحد بمقرك ٠

قلت ذلك وشعرت بالدم يتدفق حاراً في رأسي ، وجعل قلبي يخفق بشدة ٠ فقد أحسست بأنني انما عزمت على أمر لا بـد أن يوقعني ، بل يوقعنا كلينا ، في مأزق لا يحمد ٠ ولكن كيف أرد اغراءها ، وقد جعلت مسامي نفسها تتشرب صوتها ولمسها ؟

غير أن خاطراً آخر بدا لي فجأة فقلت :

ـ واذا جاء سليم هنا كدأبه على غير انتظار ؟

فقالت بدون تردد :

ـ سأمكث في غرفة النوم الى أن ينصرف !



وفي اليوم التالي جاءت رباب ومعها حقيبة ثيابها ٠ وكان صباحا قارس البرد ، يلذ فيه الجلوس قرب النار ، وان تكن كهربائية ، وشرب فناجين القهوة مع الحديث ٠

ولئن كنت قد دهشت لجرأة رباب التي أرادت أن

تحطم بها التقاليد ، فقد خشيت أكثر من ذلك على صداقتي لسليم • فبقدر ما تعلقت برباب ، أحببت سليم ، ولم أشأ أن أضحي بصداقته • وكلما تذكرت مبلغ تعلقه برباب ، نظرت اليها ، وتساءلت : أهي امرأة لا تبالي ، أم أنا ساقط في خلقي أسمح لنفسي بخيانة صديقي ، أم هما الامران معاً ؟ ولكن لعل هناك تعليلا آخر ؟

غير ان تساؤلي لم يطل كثيراً ، فانقضت أيام ثلاثة كانت هبة من الله ، لم نترك خاطراً من خواطرنا الا وصورناه ، ولا رغبة من رغباتنا الا وأطلقنا لها العنان • وكنا في كل مساء نخرج للمشي على التلال فنغوص في الاوحال غير آبهين ، نتحدث عن كل ما حوته الارض والسماء • وكلما ذكرت تلك الايام الثلاثة التي انقضت كلمح البصر ، أخالني أستعرض أمام عيني حوادث ومشاعر تكفي لسنوات ثلاث • ما أقل ما تعمر به أكثر سني حياة الناس ازاء ما تزخر به أيام ثلاثة من الحب ؟

وفي صباح اليوم الرابع أشعلنا نار فحم في كانون نحاسي كبير وضعناه في الاستوديو ونقلنا اليه

الغرامفون الاوتوماتيكي ، ووضعت فيه اسطوانات لموسيقى موتسارت ، ورحت أرسم صورة رباب والموسيقى تكتفنا بمرح لا يوازيه الا مرح الهوى نفسه ٠

وفيما أنا أرسم قلت لها :

ـ اني أرى فيك يا رباب كل نواحي الجمال التي أحاول أن أجمعها في كتابي ٠ ففي جسمك قيظ الصيف وبرد الشتاء ، نوار الربيع وفواكه الخريف ٠ فضحكت وقالت :

ـ ما أسرع ما جعلت مني رمزاً ، وتناسيت حقيقتي!

ـ بل انني أحاول أن أصف حقيقتك ، ولكنها لا توصف الا بالرموز ، أنت الارض الغنية بالكنوز ، أنت البحر في الليلة المقمرة ، أنت غابة الشعراء ، أنت شهوة المراهقين ، أنت ضالة الحكماء ، انك ملتقى أحلامي كلها ٠٠ أنت الدموع وأنت الابتسام ، أنت نار في أيام البرد ، وطعام في أيام الجوع ٠٠٠

فرفعت يمناها توقف بها شلال الفاظي ، وقالت مستضحكة :

ـ أجل يا أنور أنا كل هذه الاشياء معاً ، ولكنني أيضـا مخلوق ضعيف أخشى الزكام اذا تعرضت للريح ، يصيبني الصداع في بعض الليالي ، فلا أنام ، أكره بعض الناس وأود لو أشنقهم لاتخلص منهم • وتتحرك في صدري شهوات أخجل منها • ان الحقيقة فيها ألم كثير •

ـ ولكنك تقرين بأن الالم قد يخلق الجمال ؟

ـ ليته يخلقه فيتلاشى فيه الى الابد •

ـ سيتلاشى الالم كما تريدين !

ـ أخشى أن الذي سيتلاشى هو الجمال • انني مثل اسمي • أتدري ما معنى « رباب » ؟ رباب في اللغة يا عزيزي ، الغيم الأبيض الناعم •

ـ الذي يتبعثر على زرقة السماء في أيام الربيع ؟

ـ والذي لا يقوى على مقاومة الريح • بل ان النسيم نفسه كاف لان يغير شكله الف مرة في النهار •

ـ اذاً تحبينني اليوم وتكرهينني غداً ؟

ـ ان حبك هو الذي يعصف بي كالريح فيغيرني •

فأنت ــ وسأملأ صدرك الآن غروراً ــ أنت كالآلهة تصنع شيئاً من لا شيء ولا يقر لك قرار دون أن تخلق • هــذه صورك كلها حيوانات أوجدتها من العدم ، ولعل الحزن يغلب عليها ، ولكن أية حياة تلك التي لم تغمس في الاحزان ؟ بل انك مني أنا قد جعلت أشياء كثيرة لم يكن لي عهد بها • ففي ذهنك مئات النماذج تنسخ عنها في ابداعك ، فاذا ما وجدتني أنا ــ فتاة ملؤها الغرور ، أسعى وراء لذاتي ، أنفق المال عن سعة لأنني لم أتعب في الحصول عليه ــ حاولت أن تعمل قــوة ابداعك فيّ أيضاً ، لكي تحولني الى صورة قريبة من نماذج خيالك • فأنت في الواقع تحاول أن تخلقني من جديد •

وفي تلك اللحظة بعينها دق جرس الباب اللعين •

فوضعت الريش وطبق الالوان من يدي متبرماً ، وذهبت الى الباب أفتحه • واذا بالطارق سليم ، وقد قبع في سيارته كلبه الكبير الذي يرافقه في جولاته كلما خرج وحده • فحياني بحرارة • ثم أنزل كلبه ودخلا كلاهما معا • وفي الحال أصابني هلع شديد• فقد تذكرت ما قاله لي يــوم جاءني ضيفاً في تلك

العاصفة ، من أن ذلك الكلب الذي يمشي الهوينا ويبصبص بذنبه تحببا ، بوسعه أن ينقلب بكلمة من سليم الى وحش ضار لا يصعب عليه قتل رجل .

دخلنا غرفة الجلوس ، وكانت باردة لا نار فيها . فأشار للكلب بأن يقبع في الزاوية ثم قال :

ـ كيف تستطيع الجلوس في هذه الغرفة بدون نار تدفئها ؟ فقلت : « لم أكن جالساً هنا . كنت في الاستوديو أرسم .. » ثم كدت أعض على لساني ندماً على ما قلت .

قال : « أود أن أرى ما كنت ترسم » ومشى في اتجاه الاستويو .

فأوقفته وقد كدت أرتجف وقلت : « لا ، لا . لا أحب أن ينظر أحد الى الصورة قبل أن تكمل . لأنها ما زالت الآن في طور القبح .. أعني انها تكون قبيحة الى أن أفرغ منها » .

فوقف وقال : « لا بأس اذن . لم أرك منذ أيام . ولم تحاول أن تتصل بي . وقد ضجرت جداً وكرهت الحياة . »

فلم أقل شيئاً .

فأردف : « ما لي أراك واجماً ؟ انني آسف لمقاطعتي ايـاك في أثناء تصويرك . أتريدني أن أنصرف ما دامت .. آ .. ربة الفن معك ؟ »

فضحكت لكي أخفي اجفالي من سؤاله الاخير عن ربة الفن ، وفي ذلك من التورية ما لم يدركه هو ، وقلت :

« لا . لا تنصرف يا سليم » . وبودي لو أقـول : « أجل بربك انصرف . »

قال : « بل اذهب ، وأعود غداً وبعد غد » . وأتجه نحو الباب ، وانهض الكلب .

ثم أردف : « أتدري ان رباب ذهبت الى بيروت ؟ لقد حرت في أمر هذه الفتاة . »

ـ رباب لم تذهب الى بيروت !

فالتفت سليم الي ونظر بعينين مشدوهتين وفم فاغر ، وقد وقفت أمامه كالمصعوق .

لقد كان ذلك صوت رباب نفسها ...

دخلت الغرفة وقالت مرة أخرى :

ـ لم أذهب الى بيروت ، بل كنت هنا ٠

فصاح سليم : « رباب ! »

وحاولت أن أتدارك الموقف فقلت :

ـ بالله لنجلس قليلا ٠٠

وقالت رباب : « أجل لنجلس قليلا ٠ » واقتعدت أحد الكراسي ٠

وبقي سليم واقفا لا يستطيع أن يعلل ما يرى ، وكلبه وراءه يهش ويلوح بذنبه ٠ ثم استمرت رباب قائلة :

ـ انك تعجب يا سليم لوجودي هنا !

فقال : « ومتى جئت هنا ؟ »

ـ منذ أربعة أيام ٠

ـ لماذا لم تخبراني بذلك ؟

ـ كيف نخبرك ، وأنا أريد أن أختفي عن العالم أجمع ؟

فتحول سليم بعينيه الي وقال بصوت أبح مضطرب :

ـ أتحبها يا أنور ؟

وشعرت بأن عيني تعترفان بحبي فقلت ، وقد استعددت لمقاومته ، مادام الامر قد انكشف ، ومقاومة كلبه الوحشي أيضا :

ـ لقد وقعت في حب رباب منذ أول لحظة رأيتها فيهـا .

ـ اذن خنت صداقتي وثقتي فيك ؟

فقالت رباب :

ـ لا يا سليم . لم ينس أنور صداقتك . بل أنـا التي جئت اليـه وأغريته على حبي . وأنا التي اقحمت نفسي عليه في منزله اقحاما لانني أحببته .

فصك سليم بأسنانه ، وقد اصفر وجهه وقال :

ـ ولماذا اذن تريدان مني أن أجلس ؟

فقامت رباب وأمسكت بيده وقالت :

ـ بحياتك يا سليم اجلس . ولنفض هذا المشكل معاً . لقد أحببتك حب عبادة ، وما زلت أحبك ..

ـ وتحبينه هو أيضا في الوقت نفسه ؟

ـ أجل • وهو يحبني ، ويحبك أيضا •

ـ ما أجمل هذه العواطف !

فقلت : « لنتعقل قليلا ••• هذه الفتاة تحبك منذ زمن ، وأنت تحبها ، وتريد الزواج منها • وهي أيضا تحبني ، وحبنا جديد العهد ، وأشتهي الزواج منها ••• فلمن الحكم في الامر ؟ »

فزمجر سليم : « الحكم لي ! »

فتراجعت رباب وجلست ثانية وقالت :

ـ الحكم لي أنا يا سليم • إذا كان كلاكما يحبني ، فلن يستطيع أحدكما اكراهي على حبه •

واذا بسليم يهدأ قليلا ويتهالك على أقرب مقعد منه • فحذوت حذوه •

وساد الغرفة سكون شامل ، سمعنا فيه رفرفة الشجرات الثلاث في الهواء خارج الدار •

وتنفست الصعداء عندما رأيت الكلب يقعي عند قدمي صاحبه •

ثم تكلمت رباب قائلة :

ـ سليم ، أتحبني ؟

فأجاب : «انك تهزأين مني ، لانك تعرفين الجواب .»

ـ أنور ، أتحبني ؟

فقلت : « لن يكون جوابي الا كجواب سليم . »

فانتفضت واقفة كأن صبرها قد نفد وقالت :

ـ ألم يحن الوقت لاحدكما أن يسألني مثل هـذا السـؤال ؟ ولكن لا بأس . انني أحبك يا سليم . فأنت تمثل لي الرجل المهذب المتمدن . وأنا أحب المدنية . انني أحبك لسلامة ذوقك ، ونبل عاطفتك . انني أحبك لانك كريم النفس . لانك لا تتسرع في الحكم على الناس والاشياء . لانك لم تعمك أموال أبيك عن حب الحياة في الروح عدا الجسد . وأنا أحب الحياة الروحية . وأنا أحبك لانك بعيد عن الفقر ، وأنا أكره الفقر لانني أخشى آلامه . وآلام الفقر جسدية ، لا روحيـة ، فهي مضيعة للوقت ومفسدة للأعصاب . ولهذا فأنا أحبك .

وصمتت رباب .

ثم التفتت نحوي وقالت :

ــ وأنا أحبك يا أنور · ولكن لأسباب مختلفة كل الاختلاف · أحبك لانك لم تعرف المال ، فلم تعرف التواضع المصطنع · أحبك لانك ما زلت بدائياً رغم كل كتبك هذه ، وأنا أحب البدائية · أحبك لانك عرفت الام الروح ولكنك انتصرت عليها · أحبك لان الروح عندك قطعة من الجسد · أحبك لانك كل يوم تجعل مني امرأة جديدة ، وتحول كل رغبة في قلبي الى قطعة من الفن · وهذه كلها تدعو الى الحب ·

وصمتت مرة أخرى ·

ثم قالت : « ولكن حبي لك يا سليم ليس تاماً · ولا حبي لك يا أنور · فأنت يا سليم تعبدني دون أن تعرف حقيقتي ، وتستعد لان تغتفر لي كل نقيصة ما دمت أبادلك الحب · وأنت يا أنور لا تحاول أن تعرف حقيقتي ، فتلبسني أثواباً من خيالك ، وتحب فتاة من خلقك وابداعك بدلامني · وكلاكما مخطيء ·

« وأنت يا سليم تخاف أباك لانه أشهر منك ولان مقدراتك في يده · ومع هذا لا تستطيع أن تحرر

نفسك من قيوده • ولا أظنني مخطئة اذا قلت انك بدون أمواله لن تبرز في المجتمع أبداً • أما أنت يا أنور فمستقل عن كل رباط ، وتخشى الارتباط بأحد • فأنت أناني كغيرك من زملائك الفنانين • ومهما سلمت هواك في يدي فانك في قلبك بعيدجداً عن قبضتي ، تحيا حياتك الوحيدة •

« فأنت يا سليم لو تزوجتك ، لأغدقت علي كل ما عندك لكي أفعل ما أشاء ، ولتمتعت أنت بكل فعل أفعله وقول أنطق به • ولكنك لن تستطيع أن تدخل على حياتي شيئاً جديداً من عندك •

« وأنت يا أنور لو تزوجتك ، لجعلتني كالمشاهد في المسرح ، تجعل من حبي ذريعة لاظهار مواهبك ، ولن تريد مني الا الاعجاب بكل قول تقوله وفعل تفعله • كل يوم تأتيني بجديد ، ولكنك ستفرض علي دائماً متعة المتفرج ، لا متعة الممثل •

« اذن أيكما أصفى وأيكما أهجر ؟ »

★

وهنا سكت محدثي أنور كريم • ونظرت اليه بشيء

من اللهفة أنتظر حكم رباب . غير انه نظر الى ساعته وقـال :

ـ الساعة الرابعة ! لقد تأخرنا !

قلت : « ولكن بماذا حكمت رباب بينكما ؟ »

فابتسم وقال : « بماذا تظن ؟ »

قلت : « رفضتكما كليكما ! »

فانطلقت منه لتلك العبارة قهقهة طويلة لم أدر لها سبباً ، حتى ظننت أنه قد جن . ولما أعدت سؤالي بعد أن فرغ من ضحكته الغريبة ، قال :

ـ أتدري أين نحن ذاهبان الآن ؟

ـ الى دار الجابي . سليم الجابي .

ـ تماما . وعقيلته السيدة رباب الجابي .

ـ اذن آثرته عليك ؟

ـ لا . بل آثرتني أنا .

ـ اذن كيف ...

فقاطعني بضحكة عنيفة أخرى وضرب على ظهري متودداً وقال :

ـ يظهر أن انكلترا زادت من براءتك وجعلتك تصدق أن في الامكان وقوع ما قصصته عليك •

ـ ماذا تعني ؟

ـ يا عزيزي ، ان رباب التي حدثتك عنها مزيج من اثنتين الواحدة حقيقية ، والاخرى خيالية • والحقيقية هي التي ستستقبلنا بحفاوة المضيفة الكريمة بعد لحظات وسوف تجد انها امرأة جميلة ولكنها عادية ، عادية جداً • أما الاخرى فهي التي جاءت اليّ وحدها يوم كنت جالساً أكتب • • •

ـ أولم تكن العاصفة الا من خلق خيالك ؟

ـ كل ما حدثتك به صحيح من بـــدء العاصفة الى ما قبل الساعة التي جاءت فيها رباب لوحدها الى منزلي • أما البقية ـ أو تظن أن فتاة مثل تلك يمكن أن توجد الا في خيالي ؟

فضحكت وقلت :

ـ لقد انطلت علي خدعتك ونسيت انك كاتب تعيش على نسج الخيال •

وعندها توقف عن المشيء لحظة والتفت الي وسألني:

ـ ولكن لو وجدت رباب الخيالية هذه فعلا ، أتظن انها تؤثر أحداً علي ؟

فأجبته على الفور قائلا :

ـ وأنَّى لي أن أحكم على أهـواء امرأة من خلق أحلامك ؟

نوافذ مغلقة

لي ضمير لعين ، ضمير شديد الشعور بالجرم ، وان لم ارتكب ما يثقله بمثل هذا الشعور . لعل علماء النفس يقولون انني مصاب « بمركب الجرم » ، ويجدون في ذلك مدخلا الى كوامن عقلي التي ليس لي علم بها . لست أدري . ولكن يزعجني أن أشعر بأن للناس علي حقاً ، واذا لقيت استياء منهم ، خيل الي في الحال أنني أذنبت اليهم ، وإن لم أعلم بذلك . وبصراحة ، كلما رأيت شرطياً ، هبط قلبي خوفاً

لبرهة كأنه سيلقي القبض علي • وأكاد أحياناً عند مرأى الشرطي أمر به كلص يتسلل لصق الجدار •

لقد سمعت منذ بضعة أيام ان « أميرة عائش » قد تم طلاقها ، اثر فضيحة أثارت في مجتمعات المدينة الهمس واللغط ، واللمز والتصريح • ومع انني لم أر أميرة منذ ما ينيف على السنوات الثلاث ، فقد اضطرب ضميري ، وانتابني كثير من تقريع النفس • غير أنني حين أستعرض ما وقـع لي معها في تلك الأشهر القليلة قبل زواجها ، أكاد أضحك من نفسي وأنقم عليها معاً • لانني ان كنت أجرمت معها ، لم أبالغ في جرمي بحيث أعد نفسي مسيئاً اليها ، منتصراً عليها ، ولو عن غير حق • ولكن من الذي أساء الى الآخر ؟ أليست هي التي أساءت الي ؟ — وضميري ، رغم ذلك ، ما زال في اضطراب • والا فلماذا لا أتناسى ما حدث ، وأنام قرير العين دون الحاجة الى الاعتراف ؟

لقد نالت مني حباً كانت هي في حاجة اليه • ولا ريب انها كانت تتألم حسرة لو سمحت لفرصة الهـوى بالضياع • وقد قالت في كثير من البساطة انها لن

تحرم نفسها من الحب ، مهمـا كانت العواقب .
وما الذي يهمها ان عرف الجيران وأهل الحي بذلك؟
« كلهم أموات : فقد ماتوا من جوع قلوبهم . » هذا
ما قالته لكي تخفف من قلقي كلما خشيت الفضيحة
في الحي .

ولكن ألم أستدرجها أنا الى مثل ذلك العزم ازاء
الناس ، وأنا ألهو بحبها لجلو السأم عني وقلبي
خلو من عواطفها وعزمها ؟ ألم أغوها ، ممهداً لها
طريق الزلل ؟ لا ، انني لم أغوها . وكل ما في الامر
هو اننا التقينافيظروف ــ ولكن ما لي أراني أعتذر
من جديد ؟

كان لقاؤنا في شارع يمشي كلانا فيه كل يوم عدة
مرات . فقد كنا نسكن نفس الحي ، وكان هـذا
الشارع الطريق الوحيد الذي يصل حينا بالمدينة .
وهو شارعكثير الحركةفيالنهار ، وأصحاب الحوانيت
فيه كثيرو الربح ، لانهم يتجرون بالاقمشةوالحرائر،
وزبائنهم في الغالبمنالنساء ــ والنساء مورد الربح
في كل تجارة . أو لا يختلقن لأنفسهن في كل لحظة
حاجة جديدة لا بد من ارضائها ؟

ولكنه مع هذا شارع خلفي · فاذا ما هبط الظلام ، اختفت الالوان الزاهية المعروضة في واجهاتـــه ، وتحول الى طريق كئيب ، تكاد أضواؤه المتباعدة تعجز عن تشتيت ظلماته · ويسمع الماشي فيه وقعاً لاقدامه يتردد صداه ، فيذكر سكون الموت ووحشة القبر ·

وكنت كل ليلة أخوض ذلك السكون وتلك الوحشة، فأجد فيهما ترديداً لما في نفسي من وحشة وظلمة · وكان يروق لي أن أرى ظلالي تطول وتقصر وتتمازج كلما دنوت من الانوار الضئيلة ، فأتخيل أن الشارع في نهايته يلتوي ليتصل بعالم آخر من الاخيلة والظلال. وأشعر أن النساء اللواتي يمشين فيه طولا وعرضاً أثناء النهار ، جادات في طلب النفيس والرخيص يكسين به أبدانهن ، يخلفن فيه رغباتهن ، فتنطلق في الليل موشحة بالسواد ، لكي تهاجم المارة في الظلام على حين غرة ·

وقد قيض لي أن أمسك بكلتا يدي ببعض تلك الرغبات الهائمة بين جوانب ذلك الشارع ، بعد أن هاجمتني بدون هوادة · فقد كنت بلا عمل منذ

انهائي الدراسة الجامعية قبل أشهر ، وقد عجزت عن ايجاد عمل يغنيني ، على الاقل ، عن طلب العون من أبي ، والسأم ينخر في ذهني حتى غدوت متعب النفس ، ومابي عزم على مقاومـــة أي اغراء • ولذلك عندما التقيت بأميرة هناك ذات ليلة ، وكلانا راجع الى البيت ، لم أتردد في أخذها بين ذراعي وتقبيل فمها • كنت أعلم ما تبغيه مني تلك الفتاة الضحوك منذ أشهر ، حين كانت تنتظر لحظة مروري جالسة في شباكها ، فتلتهمني بعينيها الواسعتين • غير أنني كنت قد مانعت وتكبرت وتجاهلت اغراءها • أما في تلك الليلة فلم يكن لي مجال للممانعة • كما انها أقبلت على عناقي بحرارة أنعشتني بعد طول اكتئاب ، فقبلتها ثانية وثالثة •

وبعد تلك الليلة غدا ذلك الشارع الزاخر بالأظلال السود مكاناً لقبلاتنا المختلسة ولمساتنا ، نتقابل في زواياه المظلمة عن الرقباء • وكان على مقربة من دكان نصر سلامة ــ وهي أكبر دكاكين الشارع ــ منعطف متستر ننزوي فيه في أكثر الاماسي • ولم نجعل « شارع الظلمات » (كما سميناه) ملتقانا الا

عن اكراه وضرورة ، رغم ما كنا نجد من زراية في الوقوف في زواياه الامينة • ولكن من أين لنا مكان بعيد عن الأعين بين سكان الحي ، وهم حولنا في ازدحام مستمر لا حيلة لهم به ؟ ولقد حاولت أميرة أكثر من مرة أن تختلي بي في بيتنا ، ولكن دون جدوى ، فقالت مرة وهي تضحك : « ان الجيران يحبوننا ، وسوف يراقبوننا حتى الموت حباً بنا ! »

ولكن بعد أيام لم تكن مراقبة الناس لنا ما جعلت أخشاه • لقد جعلت أخشى على أميرة نفسها • فقد أدركت أنني لا أشعر نحوها بما كنت أتوقعه من خلجات الحب • أقلق لحظة واحدة على أميرة اذا لم تكن معي ، ولم آرق ليلة واحدة اذا لم أرها • واذا تقابلنا في الظلام اجتاحتني شتى الأحاسيس اللذيذة الا تلك العاطفة الرقيقة الحيية التي يعرفها المحبون • لقد كان قلبي خالياً من الحب الذي يشدو به الشعراء • فما الذي يكون من أمرها اذا استرسلت هي في هوى لا أشاطرها اياه ، ثم جابهتها بالحقيقة ؟

ولذلك ، ارضاء لضميري ، صارحت أميرة ، بأقصى ما أستطيع من لباقة في التعبير ، بأنني لا أبغي

ارتباطاً بها ، ولا أدعي بأن حبها يحطمني أو أنني سأتزوجها • غير انها لم تغضب لكلامي ــ أو هذا ما بدا لي من تصرفها • لعلها أدركت ماكان في نفسي من سأم وخيبة واشمئزاز ، فظنت انها تستطيع بحبها أن تنفي بعضه عني • غير أنني أشك في ذلك • لقد كانت ــ كما صرحت أكثر من مرة ــ قانعة بما بيننا من حب مهما كان نوعه • لقد وجدت في علاقتنا يقظة لجسمها ، فاستطابت تلك اليقظة الجسدية ، كأنها قامت من نوم ليـــل طويل ، لتتمتع بضوء النهار وحرارة الشمس ومرأى الدنيا •

ولم أكن أنـــا لأستطيع التخلي عن علاقتي بأميرة بسهولة ، حتى ولو غضبت لكلامي ، بعد أن وجدت في مقابلاتنا تلك اللذة الحسية التي كنت أحلم بها مـــن سنوات • فقد كان في ملمس جسمها الناعم الشديد اللحم متعة أتحرق الى ذوقها ــ وان كنت أعلم انها ليست الا متعة جسدية في وسعي أن أنالها من أية امرأة أخرى •

ولذلك رأيتني أحطم كبريائي على مهل ، وأتمرغ في شهوة مجردة ، بعد أن قصصت عن مشاعري ريش

الرؤى الزاهية التي كنت ملأت بها دماغي منذ بلوغي الرابعة عشرة . فكأنني اذ أدركت سخف أحلامي القديمة ، أخذت أعاقب نفسي على خطاياي الماضية ، خطايا تلك العاطفة التي كنت رفعتها الى مرتبة الأوثان .

ولما بقيت بلا عمل ، أتردد على المقاهي وأقرأ الجرائد أكثر ساعات النهار ابتعاداً عن ضجيج الحي وروائحه وذبابه ، جعلت أحس كأن شيئاً كنت أزهو بوجوده في ثنايا نفسي ، أخذ ينزف من أطراف أصابعي قطرة قطرة ، حتى لم يبق فيّ منه الا حثالة طينية ثقيلة .

وكنت كلما فكرت بأمري مع أميرة عائش أجد أن لكلينا مشكلته ، ولكنهما مشكلتان تختلفان كل الاختلاف .

فهي تحاول أن تروي جسدها الصادي ، وتحقق أحلامها النسوية . وهي ليست بالاحلام الوردية البريئة التي تداعب نوم العذارى الناهدات ، بل انها أحلام المرأة الناضجة بكل ما تنطوي عليها من تقدير للواقع ومجابهة للحقيقة . انها أحلام ممكنة

التحقيق ، لانها من بنات الحياة النابضة مع الدم ، الدافقة مع الايام والفصول ٠

أما أنا فكنت أرى كل جزء من أجزاء الحياة بالنسبة الى الاجزاء الاخرى ٠ كنت أرى كل دقيقة بالنسبة الى الدقائق التي سبقتها والتي ستليها : انظر الى الخلف والى الامام ، الى الماضي والى المستقبل ، لعلني أتبين هيكل الحياة وشكلها بالتفصيل ٠

وعندها توضح لي ، وفي شيء من الجزع ، انني غادرت المراهقة ورائي ، وانني الآن آتوغل في الدهاليز المظلمة وأقرع أبواب الغرف المغلقة ، وفي نفسي خيبــة لا ترد ٠ لقد اكتشفت أن الدهاليز المظلمة ليس فيها الا فراغ تسري الريح فيه ، وان الغرف انما أغلقت عن غير ضرورة ، لانها هي أيضاً فارغة ــ أو ان احتوت شيئاً ، فلن يكون سوى بضع جيف أو هياكل عظمية ٠

وقد تطرقت يوماً الى هذا الموضوع مع أميرة ، ولكن واأسفاه ٠ لم أفهم ما أرمي اليه ٠ وللحال أمسكت عن الكلام وهي تقول : « صوتك جميل ، وشفتاك أجمل ، وأنا أموت على كل كلمة تفوه بها ٠٠٠ »

فغيرت الموضوع ، ثم تركتها ، ورحت أطلب صديقاً أستطيع أن أفرغ ما في ذهني على مسمعه ٠

فقصدت الى عفيف الأسمر ، ووجدته يعزف على العود ٠

فاصغيت الى موسيقاه ٠ ثم جعل بصوت منخفض يغني أغنية قديمة يعرف حبي لها ٠ وعما تكون الاغنية الا عن تباريح الهوى ؟ ومع أنني كنت سمعتها مرات عديدة ، لم أسلم من تأثيرها في نفسي ٠ غير أنني ثرت فجأة على التألم لتباريح ما عدت أعترف بها ، وقلت :

ــ هذه الام عشاق لم يبلغوا العشرين من عمرهم بعد! فقال مقاطعاً أغنيته : « ليس للعشاق عمر » ، واستأنف الغناء ٠

قلت : « بل لهم ٠ فالعشاق لا يتخطون سن العشرين مطلقاً ٠ »

فتوقف عن الغناء ، ورفع وجهه نحوي ، وضحك ٠ فقلت : « اسمع يا عفيف ٠ لك أن تضحك ملء شدقيك ، لأنك تعلم أنني أعلم أن ضحكتك جميلة

كغنائك • ولكنك تعلم أيضا انني أعلم انك لا تؤمن بهذه الاقوال المنمقة التي تدور حولها أغانيك • انما هي الموسيقى التي تؤثر فيّ وفيك وفي الآخرين، لا العواطف التي تنطوي عليها • »

قال : « اذن أضحيت كلاسيكياً في نظرتك الى الفن ؟ »

قلت : « ليس للاسم أهمية • انما هذا ما توصلت اليه • فأنت تعلم ولا شك أن الحياة بعد سن العشرين حلقة اثر حلقة من خيبة الامل • فالمراهق يرى كل شيء جميلا بل مليئاً بالعجب • والطرقات كلها في نظره مليئة بالاثارة وكل من فيها رمز للحيوية • والنساء كلهن فاتنات : وهو يحس بنشوة جديدة كلما رآهن يمشين أمامه جيئة وذهاباً • ولا ريب انه يعشقهن جميعاً • »

ــ وما علاقة ذلك بالغناء ؟

ــ انها علاقة متينة ، حين تنضَج كل كلمة بما يعده الولد التواق الى الحياة صبابة الحب وألمه وثمالته • أتذكر كنا نتهيأ لكل « مشوار » نخرج له ، كأننا كلما خرجنا سنبدأ بمخاطرة جديدة نضيفها الى

مخاطراتنا السابقة ؟ ان خيال المراهق يلاعب الواقع باستمرار ، ويحوله الى ما يريده هو من أشكال تلذ له · لن يضيره انه فقير ، وانه غير متعلم ، وانه ليس في داره مطبخ نظيف ، وان والديه يتشاجران لاتفه الأسباب · لانــه بسحر خياله ينفي عن نفسه كل ما يزعجه من أمور الواقع ، ويستحضر في ذهنه جميع أولئك الرجال والنساء الذين يملأون الشوارع لكي يمتّـع نفسه بعشرتهم · ان الجوع الذي في قلبه يشبعه خياله الغني ، فتتزاوج تصورات طفولته مع رغباتــه الجسدية التي جعلت تستفيق من نومها الطويل · · ·

فقال عفيف والعود ما زال في حضنه : « وما ألذ تلك اليقظة البطيئة ، حين يكون المرء بين الليل والنهار ، بين الحلم والوعي · · · أود لو أستطيع أن أعبر عن ذلك بالموسيقى · » وعزف نغماً مرتجلا ، الا انني قاطعته قائلا :

ـ لم أفرغ بعد يا عفيف · فأنا ما زلت أتحدث عن المراهق الذي يقع في حب امرأة بسهولة ، وينساه بسهولة ليقع في حب آخر : لان خياله أسرع من

تفكيره ، لانه يعشق الاتساع ولا يعرف العمق ، ويريد في أشهر قلائل أن يختبر لذائذ الكون بأجمعها . بل ان خياله ليسبقه في ركضه السريع ، فيقضي الليالي وهو يكتب الرسائل الملتهبة لفتيات لم يتكلم معهن قط ، بل لا يعرف حتى أسماءهن . ويصور رؤاه بأسلوب مزخرف كثير المجاز والاستعارة ، ويستبق تحقيق رغباته واقعياً بتحقيقها في قصص مستحيلة يبتدعها في لياليه المؤرقة اللذيذة ... وعندما يخرج ثانية الى الطرقات في وضح النهار ، ما أجمل ما يبدو كل شيء ! لماذا ؟ لانه غمس كل شيء في أفراح الصور التي خلقها في لياليه . »

فقال عفيف : « كدت تؤلمني . اني لاذكر كيف بكيت في احدى الليالي وأنا في فراشي كالطفل الصغير ... »

فقلت : « ولكنك لن تبكي من اليوم فصاعداً لان سلسلة الخيبة الطويلة قد بدأت . فبعد العشرين تأتيك المعرفة ، وتتهدم أمانيك حولك واحدة واحدة . لان المرء بعد مراهقته لن يقنع بشيء فمهما كانت معشوقته جميلة ، ومهما أدرك من منزلة في الحياة ، ومهما حصل على مال ، فانه يشعر

أن ذلك ليس يكفيه :انه يبغي ما هو أبعد من ذلك ، ما هو أعلى وأصعب وأشد عنفاً • ليس للرغبات من نهاية ، وأن تفقد جمالها • ولكنها اذ تتحقق بين يديه تتساقط كالقصور المتداعية • أما الشوارع القديمة ، فما عادت تزخر بالاثارة والمخاطرة ـ ان فيها كثيراً من الزوايا القبيحة والوجوه الدميمة • ولعله يتساءل حينئذ : ما هي نفس الانسان ؟ ان هي الا مخزن اجتمعت فيه الصور الكاذبة ••• واذا هو يلاحظ أن بيته ينقصه المطبخ النظيف ، ويدرك أن الناس الجميلين والاشياء الجميلة تسير يداً بيد مع المطابخ النظيفة • وهكذا ينسى شعر الحياة شيئاً فشيئاً ويقترب من نثرها • واذا النساء اللواتي يملأن الشوارع ينظرن اليه متشككات متسائلات اذا أنسن منه اهتماماً بهن ، واذا الحب قد تحول الى عدم اكتراث ثم الى شهوة في المضاجعة ، أو لا شيء مطلقاً ••• حتى نوافذ الدكاكين ، وهي تتوهج ألواناً لمتعة العين ، تكتسب عنده مغزى جديداً : مغزى الاثارة الجنسية وقد ارتبطت بالمادة الدنيوية التي لم توجد في الحياة الا للاقلاء •••ولعل صاحبنا في هذه الاثناء قد جمع من الماء ما يمنع عنه غصة

الالم عندما يدرك كل هذا ، غير أن مخيلته ستعرف انها انخدعت ، وكل شيء حوله يثبت هذا الانخداع • انها بداية النضج : خيبة إثر خيبة إثر خيبة •••»

★

لم تكن أميرة تعرف شيئاً من هذا • ولعلها كغيرها من النساء فكرت في الزواج ، فعرفت الخيبة اذ لم تتزوج • غير انها لم تشر قط الى هذا الموضوع • وقد نشأت في جو ترعرعت فيه آلاف من نساء الجيل الجديد ، ذلك الجو المظلم المزدحم بالآدميين من كل عمر ، حيث تمتزج رائحة المطبخ مع رائحة المرحاض ورائحة مساحيق التجميل ، حيث الغرفة الواحدة تتسع لعشر أنفس ، حيث يرى الولد أمه تصرخ في ألم المخاض ، وتسمع البنت أباها يتفوه بأفحش السباب •

وهو جو مفعم بالتناقض فأبو أميرة وأمها أميان ، ولكن أميرة واخوتها قد أنهوا الدراسة الثانوية ويطالعون الكتب العربية والانكليزية بكثرة • نشأ الأب والام في أحضان الفقر ، فاعتادا كل ما يلازم

الفقر من شظف ، وقذارة ، وقسوة ، وانعدام الذوق ، والزهد في الملابس الانيقة . ونشأ الابناء في فقر ، ولكنه ليس بالمدقع ، واتصلوا بالحضارة الجديدة التي غزت الطرقات والبيوت والكتب والمجلات : فاذا ما بلغوا سن الادراك ، ثاروا على الشظف والقذارة ، وطلبوا ما لم يكن في حسبان والديهم من الملابس الانيقة ، والغرف النظيفة ، والطعام الشهي . ولكن من أين لهم المال لذلك ؟ وهم لو عاشوا في القرن الماضي ، لما طلبوا من ذلك شيئاً ، بل لاقتدوا بوالديهم باللباس والعادات والرغبات . ولكن الحياة في الثلاثين سنة الماضية تغيرت بطفرة واحدة تغيراً يكاد يكون كلياً . وهو ليس بالكلي ، لان الجيل القديم ما زال على قيد الوجود ، يفرض ارادته على البنين والبنات ما استطاع ويطالب بطاعتهم . أما البنون والبنات فقد وقعوا بين فكين رهيبتين : فك العتيق ، وهو ما زال قوياً قوة الآلهة ، وفك الجديد يغريهم بسعادة غامضة لذيذة يتوقون اليها ، دون أن يدركوا تفاصيلها وما تنطوي عليه من شقاء جديد .

كثيراً ما كنت أتساءل : ترى ماذا تقول أميرة لنفسها

حين ترى أمها تلبس أحط الثياب مصرة عليها ، وتمشي بين جوانب الحي حافية القدمين مصرة على ذلك أيضا ؟ وهل هناك قوة تحت السماء تستطيع ارغام أم شديدة العناد كأمها على تبديل عادات ماضيها ؟ اما أميرة نفسها فقد خذف بها رد الفعل الى الطرف الآخر : فهي تتأنق بملابسها تأنقاً زائداً ٠ وقد استطاعت بعد كفاح طويل مع والديها أن تستعمل مساحيق التجميل ، ضاربة بمعارضتهما عرض الحائط ٠ وكلما اشتد الوالدان في التعبير عن ضرورة التزمت الخلقي وبخاصة من حيث العلاقات الجنسية ، ازدادت هي شعوراً بتفاهة الموضوع ٠ ولاحظت أن الجيل القديم يغرق في الصراحة الجنسية في الكلام ، رغم تشدده في ضرورة العفة المطلقة ٠ أما هي فقد جعلت ترى في تلك الصراحة الكلامية قبحاً لا تطيقه ، بينما غدت العفة في رأيها مسألة حب أو عدمه ٠٠ أما الحب فقد أمسى أمراً خطيراً في نظرها ، ولكنها أدركت أن جيل والديها لا يعتبر الحب الا مسألة نظرية أوجدها المغنون تجارة لانفسهم ٠ بل ان الحب ، وان يكن مصدر القصص والاغاني والفنون في أجيال الانسانية

قاطبة ، لم يكن في نظر التقاليد الا أمراً قبيحاً محرماً.
يغضب الواحد اذا نسب اليه أو الى أحد ذويه ..
وهكذا اشتد التناقض ، واشتدت الفكان في ضغط
لا يرحم .

ولا أنكر انني ، حين رأيت كل هذا بعين الفاحص
المدقق ، شجعت أميرة على ثورتها رغم اعتقادي
بسخافة الجزء الاعظم من عواطف الانسان . فقد
كنت حاقداً مثلها ، أريد الخروج على تلك الحياة
التي ترغمنا على البقاء في ذلك الحي ، حيث الزقاق
يؤدي الى الزقاق ، بين جدران عالية تبين النوافذ
فيها كأنها أفواه فغرت بلاهة ، أو كأنها أفواه تفتحت
ما استطاعت لتحظى بقليل من الهواء . وكانت تلك
الجدران تهتز في بعض الليالي من وقع أقدام
الراقصين وهم يدبكون في عرس هذا أو تلك ،
فينبعث من الشبابيك صوت التصفيق والغناء وضحك
المدعوين . ولكن كثيراً ما انطلق من تلك الفجوات
صوت البكاء ليسمعه سكان الحي بأجمعه ، دون أن
يأبه له أحد :

أوليس لكل إنسان بلواه ومأساته ؟

★

غير أننا ـ ما دمنا نخشى الجهر بما بيننا من علاقة ـ عيينا عن التمتع بشيء واحد : الخلوة · الخلوة مع شيء من الراحة · حتى صرنا أحيانا نخشى المقابلة لما تضرم فينا من لهب لا نستطيع لها علاجاً · فقالت أمـــيرة :

ـ أما هناك من طريقة ؟ لقد سئمت ظلمة الشارع، وكرهت دكان نصر سلامه · أريد أن أكون معك وحيدة ، بعيدة عن كل خوف ·

ـ لن نجد الخلوة الا اذا خرجنا عن المدينة ·

ـ الى أين ؟

ـ الى ··· جبل برعم مثلا ··

فقالت متحمسة : « اذن لنذهب الى هناك ! »

ـ ولكن ، ألا تخافين ؟

ـ مم أخاف ؟ ألست معي ؟ آلا يكفيني ذلك ؟

ـ أميرة ، انك أشجع نساء الارض ! أنذهب غداً بعد الظهر ؟

ـ غداً بعد الظهر · سأنتظرك في الشباك في الساعة الرابعة · أتعرف الطريق ؟

ـ شبراً شبراً • منذ أيام الطفولة • كثيراً ما كنت أذهب مع رفاقي الى الكروم التي على جوانب جبل برعم ، فنسرق العنب والمشمش ، ونعود وأكثرنا موجع المعدة لكثرة ما أكلنا من فاكهة فجة •

ـ اذن ستسرق شيئاً من الفاكهة لي أنا هذه المرة !
وفي الرابعة من اليوم التالي مررت بالنافذة حيث كانت في انتظاري ، ثم استمررت في المشي حتى بلغت نهاية « شارع الظلمات » ، وهناك بعد دقائق جاءتني أميرة ، ومشينا نحو الجبل •

وقد استغرقنا الصعود الى أحد مرتفعاته حوالي ساعتين لم نشعر بهما • فقد سرنا في فجاج متلوية وطرقات صخرية ، تطل علينا فوق الشجيرات البرية والاشواك ، وتنحدر عند أسفلها جوانب الجبل محملة بأشجار الزيتون والمشمش واللوز ، الى أن تبلغ بطن الوادي المعتم بخضرته الكثيفة • وعلى الجانب الآخر ، عبر الوادي جبل آخر كثير الصخر والشجر ، وحولنا أينما نظرنا تلال متلاحقة تقل خضرتها قتاماً كلما ابتعدت ، الى أن تمخر أجواء من الغمام الشفاف ، فتزدهي فيها الالوان ، حتى اذا بلغت حواشي الأفق

امتزجت في ذوب من البنفسج الشاحب ، كأنها تجوس أعماق نوم ذهبي الاحلام .

لن أدعي أن أميرة رأت كل ذلك بعين يقظة ، عطشى الى المنعطفات والقمم المتباعدة والالوان المتمازجة في سحر العصر . غير انها استسلمت لما تراه دون وعي ، ككل امرأة سليمة الحواس والعواطف دون أن تنتبه الى ما يثير ذلك في نفسها من أحاسيس . فانطلقت في مرح لم أر مثله فيها من قبل ، بل ان ضحكتها نفسها بدا فيها رنين لعلها لم تعرفه أيضا من قبل . ولعلها أدركت ، حين جلسنا خلف صخرة متعانقين ، انها أمست جزءاً من الصخر والشجر والغمام ، وان لم تفصح عن ذلك بالكلمات . حسبها الآن أن تستلقي على ظهرها وتستسلم للهواء الهاب على جسمها ، وان تنظر الى السماء البعيدة ، فتجد في زرقتها الصافية انعكاساً لنفسها . وقد شعرت أنني أتلمس بيدي بل بحواسي كلها ، أفكارها العابرة ، والصفاء الرائق الذي طفق ينجلي في ذهنها ، واذا صفاء مثله ينجلي في ذهني ، فأشعر باتساع السماء في نفسي أيضاً .

واذكر كيف اختلط شعرها بالحشائش التي تحت رأسها وهي تقول : « لا غيوم في السماء ٠٠ حتى ولا غيمة واحـــدة ٠ » فأدركت أن الغيوم التي في نفسي قد انقشعت ، ولو لبرهة قصيرة ، استسلمت فيها للهواء والتراب ، للصخر والنبات ، وأمست أميرة حين ألمسها زهرة انبثقت من تربة انعدم فيها الماضي والمستقبل ٠٠٠ أترى أحبها اذن ؟ أأحبها ؟

وانحنيت فوقها متمتما : « أميرة ، أميرة » وانطبق فمي على شفتيها ، وجسمي يلتهب على جسمها ٠ فنسينا أن النهار قد ولى والشمس قد غابت ٠٠٠

واذا بيدين قويتين تطبقان على خاصرتي بغلظة ٠ فالتفت منذعراً ورأيت رجلا شرس الوجه ، في ملابس البدو ، منحنياً فوقي ، كأنه هوى من السماء ، وزجر : « ابتعد ! » ودفعني بعنف ، وفي الحال انثنت ركبتاه وانطوى فوق أميرة ٠

وزعقت أميرة ، وقد أصابها الرعب ، ولم تستطع حراكاً ٠

أما أنا فبعد عدة ثوان ، عندما أدركت ما حدث ،

طار رشدي ، ولم أع تماماً ما الذي أفعل • فتلفت حولي ووقعت يدي على حجر أخذته بيدي ، وبكل ما أوتيت من عزم رفعته ، وأهويت به على رأس البدوي •

فانفجر الدمن رأسه متراشقاً على وجهي ومعطفي، وسقط هامداً قرب أميرة • فجررتها بعيداً عنه ، وقد أغمي عليها • وصحت : « أميرة ! أميرة ! » ونظرت الى معطفي الملوث وقلت : « لقد وسخت نفسي • »

ثم عدت الى البدوي ، وهو هامد الجثة ، وتساءلت هل مات هل مات ؟

ثم صحت بأميرة ، ولكن مرت فترة كأنها القرن قبل أن تعود الى رشدها • وبعد قليل تجلى لها ما حدث • فأدهشني ما رأيت من رباطة جأشها حين قالت :

ـ هيا اخلع معطفك ، واتركه هنا • لا ، لنبتعد قليلا ، وندفن المعطف ونغطي مكانه بالحجارة •

ودون تردد أخرجت مافي جيوب معطفي من أغراض، وركضنا الى كهف مجاور ، وجعلنا ننبش بأظافرنا

الى أن استطعنا أن نواري المعطف والمنديلين اللذين مسحنا بهما ما على وجهي من قطرات الدم ٠

وعدنا الى البيت ، تارة نركض وتارة نلهث ، وقد عجزنا عن الكلام والتفكير ٠ ولم أقبلها حين افترقنا ٠ وذهبت تواً الى فراشي ٠

ولكن خلوة الفراش أرعبتني ٠

فقد كان ذلك الوجه الضاري يدنو مني بعينين ملتهبتين ويصيح : ابتعد ! ٠٠ وأرى نفسي كل مرة أمسك بذلك الحجر الضخم وأهوي به على رأسه ٠٠ هل مات ؟ لعله لم يمت ؟ سأذهب غداً الى الجبل لاتحقق ٠٠٠ لا ٠ سأقرأ الجرائد ٠ لا شك انها ستذكر الخبر اذا مات ٠ « جريمة غامضة على الجبل ! » وسيتهم أحد أقربائه ٠ مضحك ! فظيع !

ورحت أتقلب في فراشي ، والسرير يصر تحتي متململا ، وأنا أصارع ذلك الوجه دون انقطاع ، وهو يهوي علي متقداً بالشهوة ٠ وانظر بين اللحظة والاخرى الى ساعتي في الضوء الداخل الى الغرفة من مصباح الزقاق ، فأحسبها واقفة ٠ ولكنها تدق — والزمن لا يتحرك ٠

ابتعد !··· ويهوي الوجه علي ، وآخذ الحجر وأضربه به ، ولكنه ما زال يهوي ، يهوي ، وشواظ الغريزة يتطاير من شفتيه · ابتعد !··· ولكن ـ هذا ليس وجه البدوي · هذا وجه أعرفه · انـه وجهي ··· وجهي ··· ما زال يهوي على أميرة المستلقية على ظهرها ، ويصيح ، ابتعد!···فأضربه من جديد ··· انه وجهي !!

فلم أقــو على البقاء في الفراش ، وقمت ولبست بنطلوني وقميصي ، وجسمي حار يتصبب منه العرق ، خرجت الى الزقاق أستنشق هواء الليل · فخيل الي أنني أسمع أصواتاً لم أعرف مصدرها أول الامر · فأرهفت السـمع ، وما زال الخوف مرابطاً بين ضلوعي · واذا الاصوات تاتي من اتجاه بيت أميرة · فمشيت حذراً نحو بيتها ، الى أن وقفت قرب النافذة · ولم يبق عندي شك حينئذ · هذا صوت أميرة تصرخ بين يدي أبيها فيسمع صراخها رغم النافذة المغلقة · وهذه أمها تصيح بها وأبوها يشتم ولعلهم قضوا الساعتين الأخيرتين كذلك · ولم يكن عسيراً علي أن أتبين بعض الكلمات : « عاشقة

.. عاهرة .. الناس .. فاجرة .. فضيحة .. »

فتصورتني أقتحم الباب ، وأنقض على الاب ، وأنقذ أميرة ، وأهتف : سأتزوجها غداً !

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. لقد ارتجفت أوصالي غضباً واشمئزازاً. اتكأت على الجدار ، وقد تسمرت في مكاني مدة من الزمن ثم عدت الى غرفتي أزحف زحفاً كالكلب الجريح ، وأنا أقول لنفسي : سببت العار لاميرة المسكينة ، وقتلت رجلا لا أعرفه ... أم أنه لم يمت ؟

وأخيراً عندما طلع الفجر ، كنت قد صممت على شيء واحد اذا افتضح الامر ولا بد من ستر للعار : سأتزوج أميرة حالما أجد عملا يكفل لنا العيش .

ولما خرجت ، والشمس ما طلعت بعد ، ومررت بالنافذة المعهودة ، كانت مغلقة . فرحت أتمشى في الشوارع وقد بدأت تستجمع نشاطها ، وانتظرت صيحات باعة الجرائد . ثم جلست في مقهى ، حيث شربت ثلاثة فناجين من القهوة ، وحدثت الولد الذي جاءني بها ، كأن الدنيا لم تعرف الا الصداقة واللطف

بين أناسها • وبعد قليل كنت قد اشتريت جملة من جرائد البلد ، لم يكن فيها ــ بالطبع ــ نبأ عن جريمة في الجبل •

وعدت الى الدار والنافذة ما زالت مغلقة •

وبقيت مغلقة ثلاثة أيـام متوالية لـم أنم خلالها ساعتين متواليتين • وكنت كل يوم أمر بها عند الفجر في طريقي الى المقهى ، ثم أعود حاملا الجرائد التي لم تذكر شيئاً عن فعلتي • ورغم خوفي من أن أجد نبأ عن مقتل البدوي كلما تصفحت جريدة ما، كنت أشعر بالخيبة اذ لا أجد فيها أية اشارة اليه • ولكن آلمني الا أجـد أميرة تنتظرني في الشباك ، فاشتد اضطرابي وساورتني المخاوف عن مصيرها • ورحت أشتهي سماع صوتها ولو بكلمة واحدة ، وأتحرق الى لمسة من يديها •

وغداة اليوم الرابع جاءتني رسالتان ، احداهمامن المصرفالعقاري الذيكنت كتبت اليه طالبا وظيفة، والاخرى معنونة بخط لم أعرفه • ففتحت رسالة المصرف أولا بأصابع متلهفة ، واذا المدير يريـد مقابلتي بشأن العمل • وقفزت من فرحي ، ونسيت

فض غلاف الرسالة الاخرى الى أن أستقر قلبي قليلا. ثم فضضتها واذا بها في سطر واحد :

« اني في حاجة اليك . مر بي يوم الاربعاء في الساعة الرابعة ».

(أ)

وتذكرت حينئذ أن تلك أول مرة أرى فيها خط أميرة.

★

لم تذكر أميرة شيئاً مما حدث لها ، بل انها ادعت انها فتحت النافذة عدة مرات ، ولكنني لم أمر بها ، وبما أنني أدركت أن الاشارة الى الشجار الذي سمعت بعضه قد يجرح احساسها ، لم أسألها عنه ، بل أخبرتها في كثير من البهجة بأنني سأتوظف عن قريب.

كان ذلك على ما أذكر في أوائل حزيران ، لان مدير المصرف ، بعد أن قابلته ، أخبرني بأنني سأبدأ العمل في أول تموز . غير أن ذلك الشهر الاخير من البطالة كان أغرب شهر في حياتي ، اجتمعت فيه شتى أنواع المضض : مضض الفراغ ، مضض التوقع ، و . . . مضض الحب.

ألم أقل انني لم أشعر تجاه أميرة بما كنت أتوقعه من خلجات الحب ؟

لقدتجمعت الحوادث وتلاحقت حثيثة في ذلك الشهر القائظ (بعد أن نسينا البدوي الذي لم نعثر له على خبر فتيقنا انه لم يمت) وكان في أول أسبوع منه ان استدنت من عفيف الاسمر شيئا من النقود وعدته بتسديدها في آخر الشهر التالي عندما أتسلم أول رواتبي ، و « ضمنت » كرما في قرية مجاورة ، كان فيه ما يسميه القرويون « قصراً » ، وهو بيت بسيط من حجر دون طين ، يقام على مرتفع فيالكرم لكي يسكن فيه صاحب الكرم أو ضامنه أثناء موسم العنب . وكانت أميرة نفسها صاحبة الفكرة ، اذ قالت :

ـ أولا أجرة الكرم زهيدة . ثانياً ، فيه هذا القصر الذي يمكن وضع شيء من الاثاث البسيط فيه دون مشقة . ثالثاً ، من يعرف من يأوي الى الكرم في المساء ، والبيوت من حوله متباعدة والطرق غير مضاءة ؟ رابعاً ...

وهكذا راحت تقنعني ، وما بي حاجة الى الاقناع .

وحالما تسلمت الكرم ، أحضرت الى « القصر » فرشة عتيقة ، وعدة صحون وكؤوس . وفي المساء التالي كانت أميرة تتمشى معي بين الدوالي الغبراء ،ولكنها لم تطل المشي ، فقد آوينا الى القصر وأضأنا شمعة، سرعان ما أطفأناها ، مؤثرين عليها ضوء النجوم يجيئنا من النافذة الوحيدة ، ذات القضبان الحديدية، والتي لا باب لها يغلق . وكان ذلك ضوءاً كافياً أرى فيه الجسد الجميل الذي يعانقني .

وبعد ساعة من الزمن أخذت صديقتي الى الطريق العام حيث استقلت الباص الذاهب الى المدينة ، بعد أن وعدتني بالمجيء غداً . وانتظرت حتى جاء الباص التالي فركبته بدوري .

وفي المساء التالي انتظرتها بلهفة . ولما جعلت أتفقد الاشجار الست أو السبع الهزيلة التي في الكرم ، كنت بين لحظة وأخرى أشرئب بعنقي نحو الطريق الصخرية لأرى هل جاءت . وانتظرت حتى الثامنة، ثم التاسعة ، ثم العاشرة . ولم تجيء أميرة . وكان الباص الاخير قد ذهب ، فتحتم علي أن أمشي الطريق كله الى المدينة .

ولم أر أميرة في النهار التالي • ولكنني عندما كنت عائداً في الليـــل من بيت عفيف الاسمر ، دخلت « شارع الظلمات » ، فرأيت من بعيد فتاة ورجلا
يخرجان من ذلك المنعطف قرب دكان نصر سلامه ويسرعان في المشي • فضحكت لنفسي وقلت : « أعاشقان آخران ؟ » ثم قلت : « ما أشبه مشية تلك الفتاة بمشية أميرة ! » ولسبب ما شعرت بشيء من الراحة كأنني فعلا رأيتها •

والتقينا في المساء التالي في الكرم ، فأحسست كأنما السماء تضحك لي حين ضممت أميرة الى صدري ، ويا لعنف الرغبة الحلوة التي تتفجر مـــن القلب ولا تغيض • • • شرحت لأميرة بؤسي وألمي لعدم رؤيتها يومين اثنين وقلت : « ولكنني رأيت عاشقين مثلنا في شارع الظلمات أمس ، وظننت أن مشية الفتاة تشبه مشيتك » •

ولم تنطق أميرة ، بل بدا لي في الظلام انها ارتجفت قليلا ، فضممتها الى صدري قائلا : « أخشى عليك البرد » •

وقبل أن أرافقها الى الطريق العام كان عندها اقتراح قالت :

ـ أخاف اذا تغيبت في أكثر الامسيات عن البيت أن يرتاب أهلي في الامر • لانني آدعي دائماً أنني أسهر عند سامية أو غيرها من صديقاتي • فما رأيك في أن نلتقي هنا في الصباح حتى الظهر ، ثم لا نلتقي في بقية النهار ؟ أليس ذلك أفضل ؟ يمكننا أن نفعل ذلك على الاقل الى أن تبدأ عملك •

وفي العشية اللاحقة مشيت في الشارع المعهود ، وخيل الي أنني ، حين مررت بدكان نصر سلامه المغلقة ، سمعت حركة من داخل الدكان تلتها ضحكة خافتة هبطت لها أحشائي رعباً • أأعود لاتأكد ؟ لقد ظننت انها ضحكة أميرة ••• وهم كريه !! وثابرت في المشي الى البيت •

ولم تجيء الى الكرم في الصباح التالي كما وعدت• ورحت أتقلب على الفراش العتيق وأكاد أمزقه بأسناني ••• لا ، ليس هذا حباً ! انني لا أحب أميرة • انما أنا أقضي فراغي معها ••• صحيح ؟ أليس هذا الاحساس المؤلم في مؤخر العنق ألم الغيرة؟

الغيرة ؟ وهل يغار الا من يعشق ؟ ولكن الغيرة ممن ؟

الغيرة من رجل لا تراه ولا تعرفه . من يدري لعل تلك الضحكة التي سمعتها أمس هي ضحكتها ؟ وان الفتاة التي رأيتها تسرع مع صديقها هي أميرة ؟

مستحيل ! أتستطيع أن تتغيب عن البيت كلما طاب لها ذلك ، لعل عائقاً ، أي عائق ؟ أمها ؟ عشيقتها ؟

انني في الواقع لا أحبها . لا أبداً !

وعندما جاءتني في الصباح التالي هاجمني مزيج من الكره والنشوة . وعنفتها لانها خذلتني أمس . ولكنها عللت غيابها بحجة بسيطة ، فارتميت على صدرها وهمست همساً كالحشرجة :

ـ أميرة ، أميرة ، اني أحبك ، أعبدك !

وضحكت ضحكة طرقت أذني كالغناء .

وفي تلك الليلة مررت بدكان نصر سلامه ، وأرهفت السمع ، على كره مني ، فسمعت أصوات حركة خافتة تصدر منها ، مع أنني لم أر بأسفل الباب أي نور فيها ... وجعل قلبي يضرب ضلوعي كالمطرقة .

وهلعت فجأة لوقوفي هناك ، فمشيت حتى بلغت أول الزقاق ، وانتظرت ٠

لقد انتظرت هناك كالقاتل في انتظار فريسته ٠

ولكن مر بي بعض الجيران ، منهم من كان في بيجامته أو قميص نومه ، ومنهم من رفع يده الى رأسه باشا لي قائلا : « مساء الخير » ، فاضطررت الى رد التحية بشيء من اللطف ٠

وبعد أكثر من ساعة خرج من الدكان التي أراقبها من بعد شخص مشى في اتجاهي ، ثم شخص آخر مشى في الاتجاه المعاكس ٠ وكان القادم نحوي امرأة لم أستبنها في العتمة ٠

ومشت نحوي في خطى ثابتة ٠

وأمسك بعنقي ذلك الوجع اللعين الذي تشنجت منه عروق رأسي ٠

فقد كانت تلك المرأة أميرة نفسها ٠

دنت مني في براءة الحمل وقالت :

ــ تنتظرني ؟

ولكن يدي أجابتها بأن هوت على وجهها بلطمة عاتية كادت تسقطها على الارض • وتركتها في مكانها وانصرفت •

★

ليلة أخرى بلا نوم • ليلة أخرى أقحمتني في الجحيم •

كان علي أن أتخذ الحذر وأنا مندفع في نظرياتي ، ولكنني لم أفعل •

وكان من المضحك أنني زلقت في تلك الارض الخطرة ، ولم يطل بي الامر ، واذا أنا أهوي دفعة واحدة في المهاوي التي كنت حسبتني في مأمن منها ، واذا أنا أتقلب في الاعماق الشائكة ، حيث الالم والارق ، حيث القلق والتساؤل ، حيث اللذة الرهيبة التي لا تزداد الا بازدياد الشك ، ولا تشتد الا باشتداد العذاب •

وبكيت ــ كما قال عفيف ــ كالطفل الصغير •

وفي الصباح التالي مررت بشباكها ورأتني ، الا أنني أشحت بوجهي عنها • وذهبت الى الكرم وكلي

أمل في مجيئها رغم ما حدث البارحة ، وكلي خوف من مجيئها بعد ما حدث البارحة .

وجاءت .

وأقبلت على شفتيها أقبلهما بنهم ، كأنني لم أرها منذ سنوات . وأخبرتها بما سمعت ورأيت في الليلة السابقة . ولكنها أقسمت أنني توهمت . وانها لم تخرج من أي دكان ، بل كانت قادمة من بيت سامية . ووبخت نفسي على سوء ظني .

وحين توالت تلك الايام ، راحت الساعات تلفني في غيمة من الظلام لا أرى خلالها الا وجهاً واحداً : وجهاً جميلا مثيراً ، اذا تحركت فيه الشفتان بابتسامة رقص قلبي ، وشعرت أن الحياة قد تركزت بينهما ، وانني سأصل نفسي بالحياة حين أمسهما ـ الحياة ، الحياة .

والا فما الذي أبغيه ؟ مسائل الفكر ؟ النظريات الذهنية ؟ المال الكثير ؟ لا . الحياة انما تتزين بهذه زينة خارجية . أما أنا فأريد الحياة في شكلها الخام : الالم ، الغيرة ، الانتظار المضني ، ثم تحقيق الرغبة

تحقيقاً عنيفاً ، صاخباً . فالحب رقص . لا رقص شرقي تتلوى فيه الراقصة وهي واقفة في مكانها تهز البطن والارداف ، لا . بل رقص منطلق ، سريع الحركة ، يجاري الريح والحيوانات الراكضة والمياه الجارية . وقلت لنفسي : هذا ما أريد ! وأنا أعلم أنني سأسقط في النهاية منهمكاً ، وفمي يلهث على التراب ، ووجهي يتمرغ على الحشائش .

وصدرت أخيراً تلك الكلمة الغامضة المخيفة عن شفتي : الزواج . قلت لاميرة ، وهي بين ذراعي .

ـ بعد أيام لن أكون عالة على أحد . فأستطيع حينئذ أن أهيء لك البيت الذي تريدين .

قالت : « ماذا تقصد ؟ »

ـ أقصد أننا سنتزوج ، فنكون أسعد المتزوجين اطلاقاً .

ـ وما الذي يحدو بك الى هذا الظن ؟

فقلت في شيء من الدهشة : « لاننا نتزوج عن حب واختيار ، بينما لا يتزوج أكثر الناس الا عن مصلحة .

طبعاً لا بد من فترة بضعة أشهر المخطبة ريثما أوفر شيئاً من المال • »

غير أنني صعقت حين خلصت أميرة من بين ذراعي وقالت :

ــ أعطني مهلة لأفكر في الأمر •

فصحت : « ولم المهلة ؟ ألا تحبينني ؟ »

ــ ما أسخف سؤالك ! وهــل أتحدى هذه الاخطار كلها ، وأقابلك بين ركام الحجارة في هــذا الكرم العتيق لو لم أحبك ؟

ــ اذن لم المهلة ؟

ــ أتريدني أن ألقي بنفسي على قدميك في الحال ؟ ألا تظن انه من الحشمة على الاقل أن أعطي وقتاً للتأمل في مسألة خطيرة كالزواج ؟ وأنت تعلم أن حالتك المادية • • •

فشعرت أنني أسمع صوتها لاول مرة ، بل ان وجهها جديد علي • وعجزت عن الكلام ، الى أن قلت في النهاية : « حسنا اذن • كما تشائين • »

وبعد يومين ــ يومين اثنين ــ انتشر الخبر في الحي بأجمعه ٠

لقد باع نصر سلامة ، صاحب دكان الحرائر والاصواف في شارع الظلمات حانوته ، وخطب أميرة عائش ، وسيتزوجان بعد أسبوعين ، ويذهبان الى الاسكندرية لقضاء شهر العسل ، الخ ، الخ ٠٠٠

وانسدت النافذة المعهودة ، واختفت أميرة عني ٠

★

خيبة أثر خيبة ــ ذلك هو النضج ٠ ذلك ما قلته لعفيف اذن فلتكن هذه مرحلة أخرى نحو النضج ٠ ولكن أي نضج ذلك ، وأنا أتقطع غيرة وعشقاً ومهانة ؟ لقد جعلت أميرة مني أبله ، بينما كنت أتصور نفسي في دور الغاوي الذي يزجي ساعات فراغه باثارة عواطف امرأة ، دون أن تثير هي عواطفه ! لم تغب أميرة لحظة عن فكري طيلة الايام التالية ، والمرارة التي تملأ نفسي ٠ لم أذهب الى الكرم مرة أخرى ، وحتى النافذة المغلقة تجنبت النظر اليها ما استطعت ، كأني أتجنب النظر الى أميرة

نفسها ، وقلت مردداً : « يجب أن أنساها • يجب أن أقتلعها من فكري ، وأجتثها من بين عظامي • لقد كانت كالمرض ، والحمد لله الذي أنقذني في اللحظة الاخيرة • » الا أنني كنت في قرارة ذهني أعلم أنني ، لو جاءتني كلمة ــ كلمة واحدة ــ لاقبلت على ذلك المرض وأعدته الى مكانه بين عظامي •

★

وبعد حوالي ثلاثة أشهر جاءتني منها رسالة •

وكنت بعد أن تسقطت أخبارها ، قــد علمت انها عادت الى المدينة مع زوجها وسكنا في دار كبيرة في (حي الصنوبر) ، ولعله أجمل أحياء البلد • وكان زوجها قــد افتتح مخزناً كبيراً في أحد الشوارع الرئيسية •

جاءتني رسالتها دون توقيع ، ورغم ركاكتها ، فجرت قنبلة مريعة في صدري :

« اني تزوجت من غير أن أخبرك • ولكن ليس معنى ذلك انني لا أحبك • هذه ظروف الحياة تلعب بنا ، ولكنها لا تقدر أن تتعدى على حبنا • أرجو أن تفهم

الدافع الحقيقي لما فعلت • كان كل همي أن أخرج من ذلك البيت الذي كنت أكرهه كأنه السجن ، ومن ذلك الحي الذي كنت أمقت ترابه الذي يسفيه الهواء من النوافذ الينا •

« أما زوجي فرجل ممتاز •

« ألا تريد أن تزورنا ؟ سنكون كلانا في انتظارك في الساعة السابعة من مساء الجمعة »

فظاعة ، فظاعة ! لم أستطع النطق الا بهذه الكلمة • ولم أستطع التفكير أو التعليل • لقد كنت كمن لدغته العقارب ــ لدغته في كل موضع • أية جرأة تلك منها ، حين تتزوج عجوزاً طمعاً في ماله ثم تدعوني لزيارتها وزيارته ؟ انها لاتقصد الا تسليط عقارب جديدة علي •

ولكنني كنت أشتهي رؤيتها • فأقول وقلبي يتقطع : ما الضير في زيارتي لهما ؟ لقد تم ما تم • يمكنني على الاقل أن أرى ولو للمرة الاخيرة ذلك الوجه الجميل ، وتينك العينين الواسعتين ، وتينك الشفتين المنتظرتين •

ولكنهما لا تنتظر انني أنا • لا ، لن أزورها • لا أريد أن أرى عينيها أو شفتيها مرة أخرى •

غير أن مخيلتي لم تخلص إلي ، فجعلت تكشف لي عن يديها الذهبيتين وهما تلوحان ان تعال ، تعال ..

وحين ذهبت ماشياً في الوقت المعين الى بيتها ، كنت دون ارادة مني أتخيل أميرة في لون الغسق ، في لون الذهب ، في لون الاحلام ، وهي تتهيأ لي . ولكن السيد نصر سلامة ـ من يدري كم يبلغ من العمر ؟ ـ سيكون هناك في استقبالي . وعلي أن أجعل الزيارة قصيرة ومحترمة .

وبلغت الدار . وقرعت جرس البوابة الحديدية .

وبرزت أميرة ، ونزلت الدرج ، وفتحت لي البوابة . ودخلت .

★

« ليس في البيت أحد . لن يعود نصر قبل مساء الغد . وقد أرسلت الخادمة لتستريح في بيتها . » كانت تلك أولى كلمات أميرة ، بعد أن أغلقت الباب خلفي .

فتحجرت في مكاني ، وتمتمت ، وصوتي الابح يخرج من حنجرتي بمشقة : « ولكن .. السيد نصر .. كنت أظن أنني .. »

فضحكت وقالت : « سأعرفك به في مناسبة أخرى • أما الآن ــ » وارتمت بين ذراعي •

وما أن قبلتها قبلة جافــة مرتعشة لم أســتطع أن أتذوقها ، حتى فاجأني هبوط لم أتوقعه • لقد كان ضرباً من الخوف ، أو التردد ، حاولت عبثا أن أقصيه عن ذهني •

غير أن أميرة أخذت بذراعي واقتادتني الى غرفة صغيرة فيها «صوفا» مغطاة بسجادة عجمية ، وكرسيان كبيران مريحان ، ومائدة صغيرة وأشارت الى النافذة قائلــة :

ــ لقد احتطت للأمر من كل ناحية • فاذا حدث المستحيل ، وفاجأنا أحد ، فما عليك الا أن تقفز من هذه النافذة الى الحديقة الخلفية • ومن هناك تخرج من الباب الخلفي الذي تركته مفتوحا •

ولكن الخوف الذي فاجأني لم يكن سببه توقع المفاجأة • بل لعله لم يكن خوفا ، بل شيء آخر •

ورغم ذلك احتويت أميرة بين ذراعي ثانية وقلت :
ــ حطمت قلبي يا أميرة • حطمت حياتي •

فضحكت وقالت : « لا ، لا تبالغ · هل فوجئت بخبر زواجي ؟ »

ـ فوجئت ! لماذا لا تقولين هوجمت ، صعقت ،جننت·

فأرسلت أصابعها في شعري والضحكة ترقص في حلقها : « كنا لا نعرف أين نذهب طلباً للخلوة · أما الآن... انتظر · ففي الثلاجة زجاجة شمبانيا ، وسأذهب لاحضرها · »

وخرجت من الغرفة ، في حين جعلت أتلفت حولي كأنني أريد التعرف على تفاصيل الجو الذي أقحمت فيه · أهذا اذن ما كانت تريده أميرة ؟ بيت أنيق وزوج غني و ·· عشيق ؟ لقد أدركت ، وأنا قابع في انتظار زجاجة الشمبانيا ، ان أميرة لم تضحك مني فحسب ، بل هوت بي عن قصد في هاوية من الشهوة ، ثم غادرتني ساخرة · وما أنا الا عشيق تدعوني كلما شاءت لامتعها ، مهما كانت العواقب ـ كما كانت تقول · واذا المرأة التي بانت لي حتى قبل لحظات كأنها في لون الذهب ولون الاحلام ، لا تبغي في الحقيقة الا انتشالي من هاوية لتلقي بي في هاوية أعمق وأرهب·واذا تانك اليدان الجميلتان

لا تسوقانني الا نحو لذتها ، لذتها فقط .

وعادت تحمل زجاجة الشمبانيا في اناء فضي مملوء بالثلج (ولم أكن أعرف تلك الخمرة البيضاء الا من الكتب وأفلام السينما) . ولما نظرت في عينيها شعرت ، كما شعرت مرة من قبل ، بأنني لم أرها من قبل في حياتي . ففي اتساع عينيها نهم ، وفي أصابعها القابضة على الاناء الفضي شهوة ضارية .

وكم حاولت أن أنفض عني الخوف (أم كان ذلك اشمئزازاً ؟) فلم أستطع . أما هي فراحت تصب الخمر ذات الفقاقيع في كأسين ، وقدمت لي احداهما . وعندما مددت يدي لاتناولها أدنت خديها بحيث وقعت أصابعي على وجهها ، وقد أغمضت عينيها وتمتمت :

ـ أوه ... ما أرق أصابعك .

وللحال تشنجت أصابعي كأنها تريد النزول الى عنقها .

وشربنا الكأسين ، وتلتهما كؤوس . وخلعت معطفي ، وقد اضطجعت أميرة على الصوفا ، ثم عريت صدر تلك المرأة التي من أجلها أرقت الليالي وذقت مرارة

خيبتي ، وهي تضحك لاقل كلمة ، والنيران في يديها وشفتيها .

ولكنني لم أنتش بما شربت . بل شعرت بصفاء عجيب في رأسي . وانطفأت في صدري آخر جمرات الحب والشهوة . وعرفت ما الذي أوحى الي بالهبوط والخوف منذ أن تخطيت عتبة الباب .

لم أخف الا من أميرة نفسها . لقد استلقت على ظهرها ، وهي تضحك وتمد ذراعيها الى الفضاء ، وثرثرتها لا تنقطع . ولكني كنت خائفاً من ضعفي أنا ازاءها . لقد خفت مما في نفسي من رغبة السقوط في فخ شهوتها .

وانثنت ركبتاي على الصوفا ، وانحنيت ، واذا هي تنظر الي فتحتبس الضحكة في حنجرتها ، ثم تتسع عيناها رعبا ، وتلتوي شفتاها ثم تصيح :

ــ ما الذي حل بك !... ما هـذا !... أوه ، البدوي ، البدوي !

وأطبقت أصابعي على عنقها وصحت :

ــ فاجرة ، يا فاجرة ، كلنا مثل ذلك البدوي !

وضغطت بأصابعي حتى سال لعابها من زاويتي فمها ،

وطفرت الدموع من عينيها الجاحظتين • فهويت بشفتي على صدرها ، وأنا أعيد وأكرر « فاجرة ، فاجرة ، فاجرة • لن تخدعيني • هـذه المرة على الاقل • »

ولكنها لم تسمع شيئاً ــ لانها غابت عن الصواب • واصفر جسدها وسرى في نهديها صقيع لمسته شفتاي •

فأمسكت بزجاجة الشمبانيا المثلّجة ، وجعلت أرش ماتبقى منها على وجهها وجسمها في طفرات متوالية ، حتى تبلل جسمها كله ، وسالت الخمر من على صدرها وبطنها الى أطراف السجادة التي تحتها •

وعندما تحركت عيناها ثانية كنت ألبس معطفي • وما أن خرجت من الغرفة ومشيت نحو الباب حتى سمعت حركة ورائي ، ولكنني لم التفت • وفتحت الباب ، ونزلت الدرج متثاقلا ، ومشيت نحو البوابة ، وفتحتها ، وسرت في الطريق المعتم بين صفين من شجر الصنوبر ، دون القي على البيت نظرة أخيرة •
وخيل الي أن السماء كلها تضحك ، وان المدينة بجلبتها وضوضائها ترقص وتغني • ولكن لم يكن في نفسي الا فراغ فسيح تحده فراغات لا تنتهي •

الشجار

علا صوت جيراننا في شجارهم ، وجعلت الشتائم تنطلق من أفواههم بعنف شديد ، حتى أوشكت فرائصي أن ترتعد فجاءتني أمي وقالت : « ادخل الدار يا بني • هؤلاء النسوة وقحات فلا تستمع الى ما يقلن » •

ودخلت الدار وأنا خائف لسبب أجهله • وانطرحت على الارض محاولا أن أصد أذني عن سماع المتشاجرين • غير أن الزعيق كان ينصب فوق رأسي

انصباباً . لان زجاج النافذة كان مكسوراً مما جعل اغلاقها غير مجد ، كما ان أمي رفضت أن تغلق الباب ، لان اغلاقه يمنع الضوء من دخول الغرفة ، وهي تريد أن ترقع جوارب أبي • غير أنني بعد قليل استسلمت للنوم ، وأنا أفكر في الطريق الوعرة الموصلة الى الوادي حيث كنت نزلت قبل يومين أو ثلاثة لاعين قاطفي الزيتون ، الذين شاء لهم الكرم أن ينفحوني بكمية من الزيتون كدت أنوء بحملها الى الدار • فحلمت أنني نزلت الى الوادي مرة أخرى ، واذا القاطفون يرقصون ويغنون « على دلعونة » وان امرأة من بينهم أشارت الي وقالت : « انظروا الى هذا الولد ما أجمل رقصه ! » واذا أنا أرقص بينهم حتى غلب الضحك على جميعهم ، ورفعني واحد منهم وقذف بي الى قمة الشجرة التي كانت محملة بزيتون أسود • واذا الزيتون يتناثر على الارض والراقصون ينحنون ويجمعونه في أحضانهم • ولا أدري كيف انتهى ذلك الحلم لان أحلاماً أخرى تقاذفتني ، وصوت الشجار ما زال يتردد غير جلي في أذني ، الى أن أفقت فجأة وقد خدر ساعدي الذي كان وجهي عليه •

فوجدت أن حدة الشجار قد قلت وأمست ضرباً من المعاتبة ، وقد كلَّ الطرفان • ثم تلا ذلك سكون شامل أضحى فيه صوت الدجاج خلف البيت مسموعاً • فبدأت أمي وهي تخيط وترقع ، تغني بصوت خافت أغنية حزينة أصغيت اليها وأنا ما أزال ملقى على الارض • واضطربت نفسي اذ شعرت الحزن يتسرب الى حنايا صدري ، فيثير فيَّ أفكاراً غامضة لاأستطيع أن تابعها ، ولكنني تذكرت أنني رأيت أمي مرة ، منذ زمن مضى ، تغني هذه الاغنية نفسها ودموعها تنحدر من عينيها ، فبكيت دون أن أعرف معنى لبكائنا • بيد انني لم أذرف دمعاً هذه المرة ، لانني رغم حزني كنت ما زلت أسمع أصوات المتشاجرين تتخللها أغاني قاطفي الزيتون الذين رأيتهم في نومتي القصيرة يرقصون ، فنهضت ووقفت بالباب وسألت أمي عن سبب الشجار ، فقالت : « لا شيء سوى حب الناس للمخاصمة » •

فأدركت نوعاً ما أن الامر عسير علي أن أفهمه ، لانني صغير • فخرجت الى الخارج حين صاحت بي أمي : « اياك وأن تعود متأخراً ! والله ان لم ترجع قبل

غروب الشمس لن أسمح لك بالعشاء ! » وبما أنني كنت سمعت هـذه الكلمات منها مرات عديدة ، لم تؤثر فيّ كثيراً • وانطلقت راكضاً الى دار صديق لي كانت قائمة بنفسها على تلة صغيرة تشرف على حواكير رمان وتين وتوت ، فوجدت صديقي يأكل خبزاً وجبناً ، وأباه جالساً على الارض يدخن غليوناً طويل المشرب أصفر اللون ، وينفث الدخان من أنفه ، وقـد اصفر من شاربيه القسم الذي تحت منخريه من جراء ذلك •

فهبت من منظره وندمت على دخولي عليه راكضاً ، فتراجعت خطوتين وقرعت الباب كأنني أعتذر عن عدم استئذاني بالدخول • ثم تقدمت باحترام زائد وقبلت يد الاب ـ لان صديقي كان من دأبه أن يقبل يد أبي ـ ولكن رائحة الدخان ممزوجة مع رائحة البصل انبعثت من اليد الوقور الى أنفي ، واشمأزت نفسي من هذا التقبيل الذي لا ضرورة له ، لولا أن الشيخ كفر عن ذلك بأن قال لابنه : « أعط صديقك خبزاً وجبناً » • ثم سألني وأنا أمضغ لقمة لذيذة : « كيف حال أبيك ؟ » فقلت : « الحمد لله ، يسلم

عليك » وفكرت في شيء أحسن من ذلك أقوله ، ولكنه مد رجليه بشكل فهمت منه انه لا يليق بي ان استمر في الكلام لانني صغير ، وهو كبير جداً في العمر •

خرجنا أنا وصديقي ونحن نأكل الخبز والجبن ، وقد دنت الشمس من الافق الغربي ، فأطالت ظلينا طولا عجيباً • فقال صديقي : « يا ليتنا كنا طويلين كظلينا ! » فقلت : « ياليتنا ! لكنا كالجن نأتي العجائب » •

ـ ولكنا حصلنا على نقود كثيرة وأصبحنا من الاغنياء •

ـ نعم • ولكنا ذهبنا الى المدينة وأكلنا في مطعم جالسين على الكراسي •

قلت هذا وتذكرت أن جارنا أبا خليل كان قبل أيام قد أحضر الى بيته كراسي كبيرة عليها نقوش كثيرة الالوان ، وتذكرت في الحال زوجته أم خليل التي كانت أقوى نساء الحي في الشجار وأسلطهن لساناً في الشتائم فأردفت :

ـ كم أود السفر !

فقال : « لماذا » ؟

ـ لان جيراننا دائماً يتشاجرون فليتنا كنا نذهب الى مكان بعيد عنهم فلا نراهم ·

فنظر الي صديقي نظرة كنت أعرف معناها اذ قال :

« أتودنا أن ننزل الى الوادي ؟ » ووضع في لهجة سؤاله كل ما لديه من قوة واغراء ·

فقلت : « هيا بنا ! » ·

فنزلنا الى الطريق العامة ، ومنها الى حواكير جعلنا نقفز فوق حيطانها الى أن بلغنا فم الوادي ، ثم جعلنا نقفز من صخرة الى صخرة متسابقين ، حتى وقفنا على باب كهف تجمع ماء المطر في داخله ، فأخذنا نصرخ ونصغي الى الكهف يردد صدى الصراخ · ثم رمينا حجارة في الماء بشدة لكي نرى الرشاش يرتفع حيث يقع الحجر ، الى أن ابتلت ثيابنا · وفيما نحن نلعب عثرنا على بعض حلزونات ، فأخذناها في أيدينا ضاحكين ، وقفلنا راجعين ·

وعندما وصلت الى الدار ، وجدت أبي قد عاد من المحجرة حيث كان يشتغل ، وأمي تغسل رجليه في طشت وتقص عليه قصة الشجار · لكن حالما رآني

أبي دعاني اليه وأخرج رجليه من الطشت وأجلسني في حضنه • فلاحظت أن شاربه أسود والا صفرة عليه ، لانه لا يدخن •

قال أبي : «أحضرت لك شيئاً لذيذاً • أحزر ماهو؟•

قلت حالا : « تفاحة ! »

فأخرج من جيبه تفاحة كبيرة محمرة من ناحية ومصفرة من الاخرى وقدمها الي • فوضعت الحلزونات من يدي بسرعة على الارض ، وتناولت التفاحة ، ثم قلت :

ـ متى سنخرج من هذه الدار يا أبي ؟

قال : « عندما يشاء الله » •

قلت : « ومتى يشاء الله » ؟

فضحك أبي وقال : « حين تكبر وتشتغل » •

فعضضت على التفاحة وجالت في خاطري ذكرى الحدائق الملأى بالتفاح والعنب فقلت لنفسي : « حين أكبر وأشتغل سأشتري لي كرماً ، وسأستطيع أن أنزل الى الوادي في الليل • وهناك مع أصدقائي

سأغني أغاني كثيرة ، وأقدم لهم تفاحاً وعنباً » •
ثم عضضت على التفاحة مرة أخرى •

فلما رآني ساهماً قال : « عندما تحضر أمك الأكل، سأقص عليك قصة جميلة حدثني بها صديقي أثناء ساعة الغداء » •

ففرحت لذلك وانتظرت ريمثا أفرغت أمي الطشت من الماء القذر ووضعته في مكانه ، ثم دخلتْ الدار وأضاءت القنديل ، فدخلنا ، أنا وأبي ، وتربعنا على البساط المفروش على الارض مستعدين لقدوم العشاء والتلذذ بالقصة • ووضعت أمي الطعام بين أيدينا والبخار الجميل يتصاعد متلوياً منه ولكن ماكاد أبي يقول : « كان ما كان ، على الله التكلان »، حتى دوت في أنحاء الليل صرخة مخيفة ، تلتها صرخة نسائية عالية النبرات • فقفز أبي قفزة واحدة الى الخارج ، وهرعت أمي وراءه ، وسرعان ما سمعت أصوات أقدام أهل الحي تتراكض نحو مصدر الصوت• ثم كان هناك لغط شديد وأصوات عنيفة لا يستجلي فيها الكلام ، فقلت لنفسي لا شك أن الشجار قد عاد من جديد • ولسبب ما عادت تلك الرعشة البغضية

الى جسمي ، لاحساسي الغامض أن جريمة منكرة قد وقعت ٠

وعندما خرجت أتحقق مما حدث كانت بضع نساء يولولن ، وقد اجتمع نفر كثير حول شيء ملقى على الارض ٠ ولم يأبه لي أحد عندما جعلت أتسلل من بين أرجل المحتشدين ، واذا رجل ممدد ــ وقد عرفت في الحال انه أبو مراد ــ ورأسه ملطخ بالدم ، وقد ارتمت أم مراد على صدره تنتحب نحيباً مخيفاً ٠ فتراجعت متسللا بين الارجل مرة أخرى ، وذهبت الى الدار ، والطعام ما زال على الارض ولا بخار يتصاعد منه ، وقد عافت نفسي منظره ٠ فجلست على الارض ، واختلطت الصور في مخيلتي مع الضجيج والصراخ مرة أخرى ، ورأيت نفسي أركض في الحقول وقد امتلأت شجراً مفعماً بالنوار ، والاقاح كالنجوم تتألق بين الحشائش الخضراء ٠ ولكن شيئاً مريعاً لا أدري ما هو يلحق بـه ، وقد برزت له أنياب كالكلاب ، حتى اذا أمسك بي أفقت من نومي منذعراً ، فوجدت أني ما زلت وحدي في البيت ، ولا أدري أين ذهب والداي ٠

★

عندما فتحت عيني في الصباح التالي ، سمعت أبي يقول لأمي ، وهو يرشف القهوة :

– لقد قضيت الليل كله في المستشفى مع أبي مراد المسكين ، ولكنه لم يعد الى رشده الا لحظات معدودات ثم أسلم الروح •

قالت أمي : « رحمه الله ! »

فقال أبي : « كنا نظن أن جارنا أبا خليل من مساكين الله • من كان يصدق انه يستطيع أن يضرب بنبوته تلك الضربة الفظيعة على رأس أبي مراد » ؟

قالت أمي : « نجانا الله من المرأة الشريرة • لم يفعل أبو خليل ذلك الا بتحريض زوجته التي لا تكتفي من الشر ، كأن شجار النهار مع أم مراد وبقية النساء لم يكن كافياً لها » •

قال أبي : « من يدري الآن كم سنة سوف يسجن أبو خليل لهذه الجريمة » ؟

قالت أمي : « لا حول ولا قوة الا بالله العظيم » •

ونهضت حينئذ ، وأكلت خبزاً وزيتوناً وشربت قدحاً من الشاي (وكان هذا فطورنا كل يوم) • وقد كان الحي ساكناً ، وصوت الدجاج يسمع بجلاء خلف الدار •

الاختان وفاكهة من الشوك

« يجب على الطبيب أن يسعى جهـده فلا ينمي في نفسه هوساً لتعليل كل شيء • وعليه أن يتذكر أن الطبيعة شديدة الغموض في أكثر مسالكها ولا سيما الامراض • عليه أن يكون مراقب الطبيعة ، لا أمين أسرارهـا • »

البارون نيكولا كورفيسار
رئيس أطباء نابوليون

« لا ، لا ، مستحيل · انني واهمة · لن تفعل ذلك ، وهي أختي الكبرى · الكبرى ، لا الصغرى فأستطيع أن أنصحها · ولكنني واهمة · »

تقلبت ثريا في فراشها ، وزقزق سريرها ، كأنه أفاق هو أيضاً من نومه ، ثم هجع · ولم تفتح عينيها ، رغم الارق ، أملا في أن تستعيد نومها · ولكنهاكانت تحس بوجود أختها على السرير الموازي لها ، كأنها تراها بعينين مفتوحتين · « ما الذي رآه فيها ؟ ماالذي رآه فيها ، والفتيات كلهن يرفرفن حوله دون مشقة منه ــ ما الذي رآه في هدى ، بعد كل ما حدث ؟ »

وتقلبت مرة أخرى ، وزقزق سريرها مستجيباً ، قلقاً مثلها · « بعد كل ما حدث · ولكنني واهمة · والا ، فانني سأمقته ، سأتمنى موته · أما هدى الحمقاء ، فانني أشفق عليها · أكرهها · لا ، لست أكرهها ، بل أشفق عليها · ولكنني واهمة · أف ، أريد أن أنام · » وهزت رأسها على الوسادة يمنة ويسرة ، وأزاحت اللحاف عن صدرها ، وعيناها مغلقتان ، وهي ترى هدى (« ترى هل هي نائمة ، أم انها مستيقظة ولكنها تخشى التقلب لئلا أسمعها ؟ »)

وراء أجفانها المطبقة • ولكنها لا ترى هدى وحدها • انها تراه هو أيضاً • هو • تكاد أحياناً لا تذكر له اسماً • اسمه هو وجهه ، يداه ، عيناه ، مشيته ــ رافد داود الحلبي • ما الذي قرن رافد بداود ، ماالذي قرن ذلك الصوت ، تلك الكلمات باسم معين ، وهوية معينة ، بشهادة الطب وعيادة في الطابق الثاني في شارع مأمن الله ؟

« أحبك ؟ لماذا ترددين هــذا الســؤال ؟ أحب الجبال ، أحب الشــوك على السفوح ، أحب جماجم الدواب التي أجدها بين الحجارة مع الزبالة والنفاية • » لقد رأته يحمل تلك الجمجمة الكبيرة ــ لعلها جمجمة حمار ــ الى بيته ويغسلها في المطبخ ثم ينشفها ويضعها علىمائدةجانبية ثم يصيح : « ثريا ! هيا معي لنحضر باقة من الشوك • »

ــ باقة من الشوك ؟

ــ نعم • لنزين بها مكتبتي •

ونزلت معه الى الحديقة وخرجا الى التلة المجاورة التي كانت مغطاة بالحجارة والشوك ، وجعل يجتث

(وهي ترقبه) عساليج الشوك من عروقها ، وأدمى أصابعه ، وهو يضحك .

ـ ثريا . لقد أدميت اصبعين بالشوك .

وصعدا الى المكتبة ، ودسّ عروق الشوك في عيني الجمجمة ، وبين فكيهـا الكبيرين . ثم أوقفته ، وتصدت لـه بعينيها ، بصدرها النافر ، بشفتيها الجافتين قلقاً ، وقالت : « أتحبني ؟ »

ـ أحبك ؟ لماذا ترددين هذا السؤال ؟ أحب الجبال ، أحب الشوك على السفوح ـ

« أف ! أريد أن أنام . أنام . أنام . » وتقلبت واستجاب السرير وزقزق .

« أدميت اصبعين بالشوك ! » وأحست بالسلاميات في كل اصبع من أصابعه . كانت يداها تتلمسان يديه في استكشاف عقيم ، ولكنه لا ينتهي . لقد أرادت أن تتلمس الحركة التي تأتيها يداه ، وكل اصبع من أصابعه ، في تلك الثنيات والانحناءات والايماءات التي تتوالى وهو يتكلم كأنها رقص تلتذ عيناها بتتبعه . ولكنها لم تستطع . « عجزت .

فشلت. وتملّص من بين يدي . ولكن هدى ـ هدى التي تلثغ وتتلعثم اذا تكلمت ، والتي لا تفهم ما يقال لها فتضحك ـ كيف خطر له آن ينظر اليها ويطيل النظر ؟ رافد ، لا بل هؤلاء الشباب كلهم الذين يدّعون العلم ويتكلمون كأنهم كتب تُتلى عن ظهر قلب ، أطباء وغير أطباء ، كلهم كاذبون ، كلهم لا همّ لهم الا لمس وجه جديد وصب مبالغاتهم في آذان جديدة .. رافد .. وهدى نائمة كالحطبة في هذا السرير . » وسمعتْها تتنفس بانتظام. وتقلبت مرة أخرى .

« أأخبرها اذن ؟ ولكن لعلني واهمة. لعل التقاءهما عدة مرات من قبيل الصدفة . أيراها في العيادة ؟ سأخبرها بقصتنا . انها لا تعرف كم كذبتُ عليها وموهت لكي أخفي عنها أمري مع رافد . سأقص عليها كل شيء . ألن أنام هذه الليلة أيضا ؟ سأقص عليها كل شيء ... »

ودست يدها تحت الوسادة وأخرجت زجاجة صغيرة أخذت منها حبة واحـدة بلعتها وهي تقول : ليتها تنوّمني سنة كاملة . هـذه هي الليلة الثامنة . »

وأفاقت ثريا فجأة حين هزت يد كتفيها برفق ،ورأت أختها هدى واقفة عند رأسها تبتسم ، وقد ارتدت ثيابها وحمرت شفتيها ٠

قالت هدى : « السابعة والنصف ٠ ألست ذاهبة الى المدرسة اليوم ؟ »

لم تشعر ثريا بأنها نامت اطلاقا ٠ وقالت لنفسها « فمها جميل » ثم قالت : « السابعة والنصف ؟ » وفزّت من فراشها ٠

« اني ذاهبة ٠ قمت في السادسة والنصف اليوم ٠ لقد حضّرت الاسئلة والحمد لله ! » قالت هدى ذلك وأخذت حقيبة اليد ودست فيها بضع ورقات ، وتناولت مجلة كانت على المائدة الصغيرة قرب فراشها ، وخرجت وهي تصيح : « مامي ! أنا رايحة ! »

وأجابت أمها من الرواق : « مع السلامة ! » ثم أضافت بنبرة عالية : « وأنت يا ثريا ؟ أراك تأخرت اليوم ٠ حتى هدى سبقتك ! من كان يصدق أن أختك

ستصبح معلمة ، وتذهب كل صباح الى مدرستها دون تردد ؟ »

★★★

« العينان واسعتان .

« الانف قصير يندفع طرفه السفلي الى الاعلى .

« الفم أميل الى الكبر ينفرج عن أسنان نضيدة ، اذا تمعن فيها الناظر رأى سنّين في الداخل تلتمعان بالذهب .

« الوجه أقرب الى الاستطالة ، سمرته خفيفة ، فيه شحوب .

« الشعر أسود مفروق عن جنب ، لا هو بالطويل ولا بالقصير ، يبدأ بعضه كالزغب قريباً من الحاجبين لكثافته .

« القد أقرب الى الطول ، أو هو يبدو كذلك لطول الساقين ، وارتفاع الردفين ، وصغر النهدين .

« البشرة ملساء .

« النتيجة : فتاة يبدو عليها الشرود ولكنها ليست

شاردة ، ضحكتها تكاد تكون دائمة ، وهي اذا فرحت طفرت في الهواء ورفعت فستانها فوق ركبتيها لتطفر في الهواء طليقة الحركة مرة أخرى • فيها جذب دون اغراء متكلف ، ولا أظنها تعرف عن الحب الا ما قرأته في الكتب • »

بعد أن فرغ الدكتور رافد الحلبي من كتابة هذه الاسطر على احدى أوراق العيادة الصقيلة التي يستعملها للوصفات ، كتب في أعلاها : « هـ • م » ثم أعاد قراءتها وقال لنفسه : « ترى أتعرف هدى لو قرأت هذا الوصف انني اياها أعني ؟ » ولكن هدى ليست من الذين يسمح لهم رافد بقراءة هذه الورقات التي يضيف اليها كل يوم شيئاً جديداً (وهو جالس الى منضدته الطبية في انتظار المرضى) ويحفظها في درج مقفول • وما الداعي الى اطلاعها على ما يقوله بينه وبين نفسه ؟ انما المهم أن يراها كل مساء اذا أمكن • وهي على كل لا تحتاج الى اغراء شديد « لتطل » عليه بعد انصراف خادمه عبد في السابعة في أكثر الأماسي ، أو تزوره أحياناً في البيت مع أمه وأخيه بحجة ما بين العائلتين من قرابة -

(لقد تزوج خال هدى ممدوح من ابنة عم أمه ــ فنشأت بين العائلتين علاقة تشتد وتضعف حسب الظروف • لقد اشتدت حين تعرف بالاخت الصغرى ثريا في بيت خالها ، ثم كادت تتلاشى حين أدركت ثريا الا أمل يرجى منها • ثم انتعشت من جديد حين رأى أختها هدى ثلاث مرات متوالية ، وقال لها المرة الرابعة ، وقد اختلى بها في مكتبته في البيت لدقيقتين : « هدى ، أين كنت مختبئة بهذا الجمال ؟» فقالت : « لم أكن مختبئة • ولكنك لم تلتفت اليّ قط في الماضي • »)

« هذه القربى حجة لالتقاءاتنا • » كتب رافد هذه العبارة في صفحة أخرى • « أكذوبة أخرى بالطبع • لابد من الاكاذيب للمجتمع • والمجتمع لا ينخدع بأكاذيبه دائمـاً ، ولكنه في أغلب الاحيان يراعي أصول اللعب ، فيحترم الاكذوبة • »

جاءه المضمّد عبد وقال : « هل أنتظر يا دكتور ؟ »

فنظر الى ساعته ثم قال : « لا • اذهب الى البيت • »

وبعد ذلك بقليل سمع وقع أقدام على الدرج ، فأسرع

الى الباب وفتحه ، ليرى هدى تصعد آخر درجة وفي يدها حقيبتها الصغيرة ٠

★★★

جلست ثريا قرب الشباك ، وبين يديها رزمة من أوراق الامتحان عادت بها ظهر ذلك اليوم ٠ وقد وعدت طالباتها باعادتها صباح اليوم التالي ، ولكنها ما أن جلست قرب الشباك ، والشمس على وشك المغيب ، حتى شعرت باستحالة البر بوعدها ٠ ورقة فوق ورقة كتبت بقلم الرصاص ، كلها تعيد وتكرر، بأساليب متقاربة ، غزوات الجرمان للامبراطورية الرومانية جواباً على السؤال الذي كتبته على اللوح حال دخولها الصف ، لاشغال الطالبات ساعة الدرس ٠ لم تكن في حالة من الذهن تساعدها على خوض بحث جديد عن القرون الوسطى ، وهي قد قضت الليلة السابقة في أرقٍ وتقلب ٠ (ولم تنس أن تذهب ، عند عودتها ظهراً ، الى صيدلية لشراء زجاجة أخرى من حبوب النوم ٠) وهي الآن والهواء البارد يهب متكاسلا من النافذة ليست بأحسن حالا مما كانت عليه في الصباح ٠ انها تريد الاستسلام للنسيم ،

للأصيل ، لكل ما يترقرق في السماء من نور أزرق فضي••• يكاد يشبه زرقة الفجر ، فجر ذلك اليوم عندما أفاقت في الرابعة في انتظار الساعة السابعة —

كأنني سأزف ذلك الصباح• كأنني سأبدأ برحلة الى أمريكا — متنكرة بالطبع • أميرة في زي العوام — في زي معلمة • وقد أخذت كتبي وأوراقي وباقة القرنفل وركبت الباص• ولكن نزلت منه قبل وصولي الى المدرسة • وأخذت باصاً آخر • ياربي ! ما زالت الساعة السابعة والربع • ومشيت مسافة طويلة • ثم مشيت المسافة نفسها عودة • وقصدت البيت • ألعله نائم بعد ؟ السابعة والنصف • بل تقريباً الثامنة الا ثلثاً • ضغطت زر الجرس • وجاء الى الباب في بيجامته • ورأى بين يدي باقة القرنفل •••

— ثريا ! قرنفل •••

ادخلني كمن يدخل ضيفا • واعتذر عن نومه حتى تلك الساعة • لم يكن يتوقع مجيئي •

ألم يعرف أنني كنت في انتظار سفر أمه مع أخيه لاستطيع الاختلاء به في البيت ؟ ألم أعده بذلك ؟ (« ثريا ، حالما تسافر أمي ، حاولي أن تأتيني هنا بعد المدرسة بالطبع • » فقلت : « وقبلها اذا قدرت • »)

— أتذهبين الى المدرسة ؟

— سأغيب اليوم • سئمت الوظيفة • وغداً آخذ الى المديرة تقريراً طبياً — منك !

— ثريا • أنت شريرة !

فضحكت وبحثت عن مزهرية لاضع فيها الزهور • وعندما توارى في الحمام قلت : « أفاجئه بتحضير الفطور • »

حالما خرج من الحمام ورأى الفطور قبلني قبلة قصيرة وضحك • وأكل • وخرج الى البلكون • ثم عاد • وأخذني الى مكتبه • نحن والحضارة، والكاتب السوري القديم لوقيان يسخر من كل شيء وسوفوكليس يحلل مأساة البطولة والكبرياء في وجـه الآلهة والهواء ما زال يهب بارداً في

الظل • ثم أمسك بي فذابت ركبتاي ولم أستطع الوقوف على قدمي • كانت شفتاه حارتين • وتشبثت به • أخيراً ••• أخيراً •• وشعره يتشعث فوق عينيه • ويداه تصران على تحسس صدري والكتب تحيط بنا •••

ـ لماذا ترتجفين ؟

ـ لست أدري • هيء هيء • لست أدري (لماذا ضحكت كالبلهاء ؟) أوه أخيراً ••• أقلعت بي الباخرة • ملذات الدنيا تلقى بين يدي الاميرة • ثريا تستلقي على الطنافس • على الجسم أن يتلقّى أشعة الشمس عاريا ••• وفي الصف تلك الساعة ثمان وعشرون فتـاة يقرأن عن هانيبال وقرطجنة • والافيال تعبر فجاج جبال اسبانيا ••• والشمس خلال النافذة تشتعل فوق تلال خضراء ونحن نركض على السفح وندوس الزهور الصفراء والشقائق التي تنمو من الدم وتتضمخ به وأقدامنا تزلق على الدم ورافد يصيح اتبعيني الى حيث أشجار الصنوبر تتراص كمظلة واحدة مترامية تتيه

فيها النساء والرجال حيث جمجمة الحمار
وجمجمة الخنزير وأنا أنوح مستلقية على السفح
والبحر من بعيد يشتمل بالشمس ورافد ينتظر
قدوم المساء . ذلك اليوم الذي انفجرت فيه
قنابل مؤقتة في سوق الخضرة ووجدوني مغمياً
عليّ بين القتلى والجرحى وسمعتهم يقولون
اليهود اليهود ، ورافد وهدى وأمي وأبي يبحثون
بين القتلى والجرحى في ردهة المستشفى الكبيرة
البيضاء والملابس البيضاء والنواح والعويل
ـ الحمد لله على سلامتها . جرح بسيط في الفخذ .
جرح بسيط الحمد لله . نزيف بسيط . أعطوها
مسكّناً . دكتور نصار ! دكتور كمال ! دكتور
رافد ! سستر نزيهة ، سستر جورجيت ، سستر
مارشل ـ أوف رجعنا ؟ رجعنا ؟ ـ « أتحبني ؟ »
« عزيزتي » ثريا ، ماي دارلنغ ، ثريا ، توتو ،
الحياة لا تحد ، الحياة تطالب بالحياة . يو نو
وت آي مين . « سازورك في البيت حالما نذهب
أمك و ـ » .

ثريا ! أين هدى ؟

ـ نعم بابا ؟
ـ قلت أين هدى ؟
ـ لست أدري • أعتقد أنها ذهبت لحضور محاضرة في النادي •
ـ لعن الله المحاضرات ! أما تنتهي ؟ قومي ساعدي أمك • نريد أن نتعشى • محاضرات ، علم ، حكي فارغ • ما الذي استفدناه من كل هذا العلم ؟ طلعت روحي وروح هذه المرأة أمك الى أن أنهيتما المدرسة أنت وأختك ـ وما الذي رأينا منكما ؟ بضعة دريهمات في آخر الشهر • قومي ، قومي ساعدي أمك ! نريد أن نتعشى •

لم تجب ثريا بشيء ، بل قامت وأخذت تهييء المائدة وهي تقول لنفسها : « عاد الى عصبيته • سيقيم لنا عرساً هذه الليلة • أين هدى ؟ مع رافد ولا شك في هذه اللحظة • يجب ، يجب ، يجب أن أخبرها بقصتي معه • « ورأت أباها يدخل ثقيل الحركة الى المطبخ ليغسل عن ذراعيه ووجهه لوثات السيارات التي يشتغل بتصليحها وقالت : « متى سيكون لدينا حمام منفصل عن المطبخ ياربي ؟ »

★★★

ــ اننا منهمكون دائماً في ملء حفرة لا قرار لها • ولذلك فسنبقى منهمكين وستبقى الحفرة فارغة •

ــ لماذا اذن لا نتوقف عن عملية كهذه ، مادمنا نعرف بطلانها ؟

ــ لاننا اذا توقفنا ولجأنا الى السكون أصابنا الشلل • فاما شلل السكون أو حركة باطلة • أيا تفضلين ؟

ــ لست أدري • لم أنظر الى الحياة بهذا الشــكل من قبل •

ــ لا حاجة بك الى ذلك •

ــ أرجوك • اني أريد أن أعرف وأن أفهم وأن أعي • أريد أن أطل فوق الحفرة وأنظر الى قرارها •

ــ قرارها الذي لا يوجد ؟ واذا وقعت فيها ؟

ــ لا بأس • سأظل في هبوط مستمر • • • مستمر • • • الى مالا قرار • • • مخيف !

ــ اذن فالحركة هي ما تبغين ؟

ــ هذا ما يبدو لي • الحركة •

ــ رغم عبثها وبطلانها ؟

ـــ رغم العبث والبطلان .

فأمسك رافد بيد هدى ، وحدق بعينيها في صمت سمع أثناءه السيارات تمرق هادرة في الشارع تحت النافذة .

ثم قال ببطء ، محاولا أن يستخلص من مبهماته فكرة واضحة محددة : « هدى ، أشعر أنك تركضين وأنا ألاحقك . ثم تنقلب الآية فجأة فأهرب أنا وتلاحقينني أنت . »

ـــ ألست واثقاً من شيء ؟

ـــ لست واثقاً الا من لمس يديك ، ورؤية هاتين الحفرتين من السواد : عينيك . في كل منهما نقطة من البريق .

فسحبت يدها من قبضته وقالت : « أما أنا فواثقة من أشياء كثيرة . » ورفعت يدها الى صدره ، وصوّبت شفتيها نحو فمه .

ـــ مثلا ؟

ـــ مثلا . .

ورفعت يديها الى وجهه ، وأخفضت رأسه نحوها حتى

كانت شفتاها بين شفتيه ، وراحت أصابعها تمر بين خصل شعره بعنف ، والقبلة تطول وتشتد . ثم جعل رافد يمر بشفتيه على خدها وفكها ، وعنقها ، واحدى يديه تضغط نهدها دون هوادة .

ثم قال : « تعالي معي الى البيت . ألم تسأمي رائحة الأدوية هنا ؟ »

ـ ولكن أمك ؟

ـ خرجت أمي هذا المساء للزيارة ولن تعود قبل العاشرة .

ـ لا بأس .

ونزلا بسرعة الى الشارع حيث كانت سيارته ، فركباها وانسابت بهما الى بيته في الطالبيه .

وفي غرفة المكتبة ، بين الكتب وباقات الشوك ، جلست هدى على الصوفا جلسة غير مريحة تنظر حولها كفأر حـذر .

ـ واذا فاجأتنا أمك ؟

ـ كفاك خوفاً !

الصق فمه بفمها ، ومالت بجذعها الى الوراء وأصابعه تسرح على جسمها ، واذا استقرت لحظة غارت في جسمها ، ثم عادت لتسرح على أعضائها من جديد ٠

***

كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف عندما نزل رافد وهدى درج البيت ٠ وانتظرت هدى عند البوابة تلقي حولها نظرات جزعة ، كأنها قد خرجت من البيت بشيء ثمين قد يراه أحد المارين فيصيح في وجهها : سارقة ، لصة ! انها لتتحسس هذا الشيء بين ذراعيها ، على شفتيها ، لصق أهابها ، ولا تريد أن يراها أحد وهي تتمسك به ، ريثما أخرج رافد مفتاح السيارة وفك بابها ودخلها وسحب الرتاج لبابها الآخر ٠ فتحته هدى بسرعة وركبت الى جانب رافد وصفقت الباب ، وللحال أحست بالامن والطمأنينة ٠ ثم أحست بالترف الذي يبثه مقعد السيارة الوثير ٠ أخفضت زجاج الشباك ، ولكن الهواء قرس وجهها وصدرها فرفعته ثانية ، فاشتد احساسها بالترف والطمأنينة ٠

نظرت الى بروفيل رافد وهو يسوق ، فلمحها من زاوية عينه اليمنى والتفت اليها وقال : « أضروري أن تعودي الى البيت الآن ؟ »

ـ جـداً .

وتذكرت أباها جالساً الى مائدة الاكل يقابلها مغضباً، وأمها تحاول تسكين غضبه فقالت لنفسها « سأدعي أن المحاضرة كانت طويلة ، طويلة جداً . »

ـ ما رأيك في جولة قصيرة ؟

ـ ولكن أبي ، ما الذي أقوله لأبي ؟

ـ لا بأس . أنت محقة . فلنبتعد عن المشاكل .

فثارت وقالت : « ولماذا نبتعد عن المشاكل ؟ لقد قضيت حياتي وأنـا أبتعد عن المشاكل ، فماذا حصلت ؟ »

فأجابها باصرار :

ـ لا ياهدى . يجب أن آخذك الى البيت .

ـ اني أكره البيت . اذا لم تسق بي في جولة خارج البلد الآن ، لن أكلمك مرة ثانية .

فضحك رافد وقال : « يا أعند نساء الارض ! » وعند أول منعطف في الشارع أدار سيارته ليبتعد بها عن البيت الذي « تكرهه » ٠

★★★

بعد ما يقارب الساعة دخلت هدى البيت ٠

وللحال قلّصت أساريرها المنبسطة حتى تلك اللحظة، وبالغت في التقطيب عندما ألقت حقيبتها من يدها على أقرب كرسي ، وجاءتها أمها متلهفة قلقة لتسألها بصوت منخفض يوحي بخطورة سؤالها : « أين كنت حتى الآن ؟ »

لم تستطع مجابهة أمها بعينيها ، فأجابت وعيناها في اتجاه غرفة نوم والديها ، كأنها تخشى أن يسمعها أبوها ـ ان كان في فراشه ـ فلا يصدقها : « في النادي ٠ تأخر المحاضر المحترم في القدوم ، ثم ألقى محاضرة طويلة أعقبتها أسئلة وأجوبة كثيرة ٠ كان النقاش في الواقع أمتع من المحاضرة نفسها ٠ فما استطاعت الخروج ٠ ولما خرجنا أخيراً لم أستطع الحصول على مكان في الباص لشدة الازدحام ٠ فانتظرت وانتظرت ـ وها أنت ترينني يا ماما ٠ »

نظرت الى أمها نظرة عجلى لتتبين مقدار اقتناعها ، فأدركت أن أمها لم تقتنع • غير انها قالت : « طيب يا هدى • من حسن حظك أن أباك قد خرج للسهرة بعد العشاء فوراً • ولن نقول له متى عدت • ألست جائعة ؟ »

ــ لا • أين ثريا ؟

فجاء الجواب من غرفة أخرى : « في الفراش • تعالي حدثيني عن المحاضرة • »

فأسرعت الى غرفة النوم التي تنام فيها مع أختها ، وجلست على سريرها ازاء ثريا •

★★★

كان البيت مضاء عندما عاد رافد ، فأدرك أن أمه وأخاه قد سبقاه في الوصول • وقد سمع صوت أمه تتحدث وهو يصعد الدرج دون أن يستبين الكلام ، ولكن علو صوتها على ذلك النحو لم يكن أمراً عادياً • وحالما دخل غرفة الاستقبال انقطع الكلام فجأة •

« مساء الخير • »

فأجاب أخوه مازن : « مساء الخير » ، غير أن أمه لم تلتفت اليه ·

كانت أمه تلبس السواد الذي ما نزعته في السنتين الاخيرتين منذ وفاة زوجها داود الحلبي · في عينيها الكبيرتين الرطبتين وأنفها الطويل وشفتيها المزمومتين ما يوحي بالحزم والتمتع بالسلطة ·

ـ ما الخبر ؟ خير ان شاء الله ؟

فقال مازن : « ليس لكلام الناس نهاية · »

ـ أي كلام ؟

ـ أنت أدرى · قيل وقال ، زيجة وزواج ·

فضحك رافد وقال : « أيريدون ايقاعك في الفخ ؟ »
فالتفتت أمه اليه : بل إيقاعك أنت · »

ـ ايقاعي أنا ؟

فأجابت وعيناها تبرقان رغم الظل الساقط عليهما : « رأيناك الليلة في لمحة خاطفة ، وياليتنا لم نرك ، وقد جلست بقربك فتاة · »

فضحك رافد قائلا : « تلك كانت هدى · وقد

أوصلتها الى بيتها • أفي ذلك ما يغضبك ، ماما ؟ »

فقال مازن : « من الصدف الغريبة ان أمك سئلت هذه الليلة ان كنت تنوي الزواج من هدى • »

فقاطعته أمه : « سألتني أم حبيب أصحيح أن الدكتور سيتزوج ؟ فقلت ابني يتزوج ؟ لم يستقر بعد منذ رجوعه من الجامعة في بيروت ، فكيف يتزوج • فقالت سمعنا انه سيتزوج • قلت ممن سمعتم ، قالت غير مهم • قلت لا ضروري أعرف • قالت سمعنا انه سيتزوج هدى ممدوح • فطار عقلي وقلت : أعوذ بالله من ألسنة الناس • من هي هدى ممدوح حتى يهتم بها ابني ؟ قالت ــ وأنا أعرف أنها تكايدني ــ قالت : لا بأس بالفتاة • انها جميلة • قلت جميلة لأمها وأبيها • الله يستر عليها • ولكن أرجوك ألا تعيدي مثل هذا الكلام • فقالت : هذا ما سمعته من أناس يرونهما معاً • قلت : مستحيل • انها محسوبة قريبتنا فهي أحياناً تزورنا • ولكن ما دخل ذلك بالزواج ؟ فقالت : لا يا أم خليل ، المسألة ليست مسألة قرابة وزيارة • المسألة ــ »

فقال مازن : « كفى يا أماه • »

فرفعت يدها في حركة عنيفة وقالت : « لا أريد أن أسمع مثل هذه الاقاويل أبدا • من هي هدى ممدوح حتى يقرنوها باسمك ؟ معلمة أطفال ! لقد تقطعت يدا أبيها في تصليح سيارة المرحوم أبيك ، وزيادة في الازعاج أراها في السيارة جالسة بقربك ! لمحة خاطفة ولكنها كانت كافية • يجب أن تقطع ألسنة الناس • سيقولون صام وصام وأفطر على بصلة • هذا ما سيقوله الناس • »

لم يقل رافد شيئاً • ظل متكئاً بعجزه على ظهر أحد الكراسي ، وقد كتّف ذراعيه ، كأنه يجعل من كلام أمه أمواجاً تمر به وتغمره ، ولكن رأسه طافٍ فوقها • ثم جاءته موجة أخيرة : « أنت طبيب الآن • حافظ على مركزك ! »

ونهضت أمه منكرسيها وهرولت الىغرفتها مغضبة • أما مازن فقد ظل جالساً في كرسيه بادي الحرج ، كأنه يريد أن يقول شيئاً ولكنه يخشى اثارة أخيه • ثم قـال : « لا تزعل يا أخي • أنت أدرى بعقول النساء • »

فقال رافد : « تقوم الدنيا وتقعد ، يفجرون القنابل

المؤقتة بالبراميل في شوارعنا ، يهددوننا بالمحق والدمار ، والنساء اللواتي مثل آمي ما زلن يفكرن بالمركز الاجتماعي والفوارق الطبقية • »

ــ ولكنها تفعل ذلك لمصلحتك • اني معك في كل شيء كما تعلم ولكن قضايا الزواج شيء آخر • ثم من قال انك تريد الزواج من هدى ؟ سيتلطخ اسمها بين الناس بعد قليل ، وقد تفقد وظيفتها كمعلمة ، ثم يضعون اللوم كله عليك •

ــ بحياتك كفى يا مازن • لن أقبل تدخلا بشؤوني الشخصية •

ــ حتى من أمك وأخيك ؟

ــ ولا من أحد •

ــ تذكر انك في القدس ، في بلد عربي • أنت لست في لندن أو نيويورك •

ــ أشكر لك النصيحة •

قالها رافد ، واتجه نحو المكتبة • فتبعه أخوه الى الغرفة الصغيرة التي هي صَدَفة رافد ، مملكته

الصغيرة وبيت أسراره ، وقـال : « أتذكر حكاية أختها ؟ »

فانزعج رافد والتفت اليـه محتدأ : « وما شـأن أختها ؟ »

ـ لقد عالجتها عندما جرحت في حادثة القنبلة ٠

ـ ثم ماذا ؟

ـ ولكن بعض ذوي الألسنة الشريرة علقوا بأنك أوقعتها في حبك ٠

فتأفف واستلقى على الصوفا (وهي ما زالت تحمل أثر هدى : فقد خـُيـّل اليه أنه يشم بقايا عطرها) قائلا : « مسكينة ثريا ٠ كادت تفقد احدى ساقيها ٠ ولكن الناس يستطيعون الايلام أكثر من العطف ، فلم يفرحوا لشفائها بل بحثوا عن القذارة قبل كل شيء ٠ »

وفجأة تذكر جمجمة الحمار (التي كانت قد حيرت ثريا حين أصر على غسلها) وأزجى اليها نظرة وقد استقرت على أحد رفوف المكتبة بمحجرين أجوفين ،

وقواطعها العليا مطبقة على الفك الاسفل الطويل بعناد وصلابة . وأردف :

« أترى هذه الجمجمة بين الكتب ؟ هذه الكتب كلها لا تتنفس الا أنفاس الشك والتساؤل . والجمجمة هي اليقين الوحيد في عوالم الشك والتساؤل هذه كلها . الموت هـو اليقين . ولعل العكس صحيح أيضاً . اليقين هو الموت . أما الحياة فهي الشك . أنـا لا أعلم ان كانت ثريا وقعت في حبي أم لا ، ولا أعلم ان كنت أحب هدى أم لا . ومن كل أمر في حياتي أنا في شك . لا يقين الا في الموت ـ أو تحدّي الموت . عندما أرى جماعة من شبابنا يدحرجون برميلا من الديناميت في حي يهودي جوابا على فتك اليهود بنسائنا في سوق الخضرة ، أدرك أن هناك من بلغ يقينا في حياته . أما البقية ـ »

ـ ولكن يا رافد ، قضية فتاة تعرّض نفسها ـ

ـ للؤم الناس ؟ أمر غير مهم .

ـ طيب ، طيب .

ـ أتعرف عبارة هاملت المشهورة ؟

ـ أي عبارة ؟

ـ « بوسعي والله أن أعيش في قشرة جوزة وأعد نفسي سيد الرحاب التي لا تُحَدّ ، لولا أنني أرى أحلاماً مزعجة • »

فهز مازن برأسه غير فاهم ، وقد يئس من حديث أخيــه •

ثم قال رافد : « اننا نرى أحلاما مزعجة • متى سنخرج من قشرة الجوزة ؟ »

فأجاب أخوه وقد ضاق صدره : « أفهم أمي هــذا الكلام ـ ان استطعت • » وخرج من المكتبة •

★★★

ـ كيف كانت المحاضرة ؟

ـ لا بأس •

فضحكت ثريا ضحكة ساخرة وقالت :

ـ انك تعيدين دوري من جديد •

فانتصبت هدى في جلستها وقالت :

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ جعلت تكذبين كما كنت أكذب مرة بعد أخرى. لم تكن في النادي أية محاضرة الليلة .

ـ يعني ؟

فلم تجب ثريا للحظتين ثم قالت بصوت منخفض ، وقد ركزت عينيها في عيني أختها :

ـ كنتِ مع الدكتور رافد .

فاصفرّ وجه هدى وقالت هامسة :

ـ هُسّ ، لئلا تسمعك ماما .

فأحست ثريا برجفة في يديها وركبتيها حاولت تغطيتها ، وحاولت مااستطاعت أن تمنع التهدج من الظهور في صوتها اذ قالت ، وقد صممت على القذف بكل ما يفور في دمها :

ـ أتعرفين لماذا فُسخت خطوبتي ؟

ـ لان خطيبك كان نذلا .

ـ لا ياهدى . لم يفسخ شكري الخطبة الا للسبب المألوف الذي يسعى الجميع في اخفائه . لقد فسخها

لانه عرف بعلاقة لي سابقة مع رجل آخر . والرجل الآخر هو ... رافد .

وقع الاسم كصفعة على خد هدى ـ صفعة قوية يمتزج فيها الالم والاهانة .

ـ رافـد ؟

ـ لم تدم علاقتي برافد أكثر من خمسة أسابيع أو ستة بعد أن عالج ساقي ، ولكنها كانت كافية لتحطيم حياتي .

ـ ثريا حبيبتي ، أرجوك ألا تبالغي .

ـ لا لست أبالغ . بل مهما قلت ومهما فعلت فلن أستطيع الا اعطاء صورة مصغرة عما حدث لي . لم يعرف أحد منكم في البيت أي نار كنت أتقلب فيهـا .

ولكن هدى استعادت عبارة أختها لتكتشف معناها من جديد :

ـ علاقتك برافد ؟ رافد ؟ متى ؟ كيف ؟

ـ قبل خطبتي بأيام . ذهبت اليه وقلت له : رافد

أتعرف شكري الجاسم ؟ فقال نعم • قلت انه يريد أن يتزوجني • واذا بوجهه يشرق ، وعينيه تلتمعان، كأنني بشّرته بأشهى ما يتمناه ، وقال : تزوجيه ، انه شاب ممتاز !

ـ ولكن هل كنت تحبينه ـ أعني هل كنت تحبين رافد ؟ وهل كان يعلم ذلك ؟

ـ أجل يا هدى • لقد أحببته كالمجنونة •

ـ وهل قال انه يحبك ؟

ـ طبعا • وهذا مالم أفهمه قط • كنت أقول لنفسي أنني أحب أعظم رجل في الدنيا ، وسوف أفعل أي شيء يريده مني • وصممت على المطالعة المتواصلة لاكون أهلا له • أتذكرين الكتب التي كنت أجيء بها كل يوم وأنكب على قراءتها ؟ لقد كانت كتبه • والحفلات الموسيقية والمحاضرات التي جعلت أذهب اليها كلما سمعت بأن هناك حفلة أو محاضرة ؟ كان يتحدث عن أمور لا أفهمها ، ويملأ أحاديثه بأسماء يغيظني ألا أجد معنى لها ، وهي لديه كل شيء • فأقول طبعا ، لقد درس وتثقف في الجامعة الامريكية،

وأنا لم أدرس الا في مدرسة ثانوية هنا. كنت أتهرب من عملي في المدرسة لأقضي معه ساعة أو ساعتين. ولكن ـ لم أستطع فهم موقفه مني. قلت له يوما : كيف تشعر لو مت فجأة ؟ فقال : لا تكوني سخيفة. فأصررت على سؤالي : أتحزن جداً لو مت ودفنت ؟ فقال : لماذا تسألينني سؤالا سخيفا كهذا ؟ وللحال وجدتني أبكي بين يديه ، وقلت : لست أدري ، أشعر أنك لن تهتم كثيراً بي ولو واراني التراب. وفي الحقيقة كنت أريد ايلامه ، فلم أؤلم الا نفسي. وتمنيت الموت لانني كنت أعرف أنني ـ أوه لست أدري. ثم كان يقبل علي ويعانقني.

(تصورت العناقات بشدة ووضوح ، وتذكرت كيف كانت ركبتاها تذوبان اذا كانت واقفة فتتداعى بين ذراعيه ، وتشتهي لو يقطّع جسمها عضواً عضواً ، وتسأله باستمرار أتحبني ، وهو لا يجيب الا بلمسات تخف وتعنف ثم يلقى بها عنه).

ويقول انه يحبني وانه لم يعرف فتاة مثلي ويطري على عينيّ وذراعيّ.

(كان يغضبها انه لا يمدحها ولايبدي همه الا بتقبيلها أو لمسها) ٠

ويقول ان خدي صقيلان مثل ٠٠٠ (لم تستطع أن تتذكر شيئاً صقيلا لمقارنة خديها به) ٠٠٠ أوه حبيبتي هدى لن تعلمي ماذا فعل بي رافد ٠٠٠

اجتمعت في صدرها آلام أشهر طويلة من الجفاف ، وأخنت عليها الشفقة على النفس ، اذ شعرت بأنها ضحية هوت عليها السكاكين ـ لقد أحست بالطعنات في صدرها وأحشائها ـ فتفجرت عيناها بدمع ثقيل سخين جرى على خديها متواصلا ، وتفلّع وجهها خطوطاً رسمها الارق ، ونشجت نشيجاً طغى على ألفاظها ٠

غير أن هدى لم تتحرك ولم تقل شيئاً وهي تنظر الى بكاء أختها ٠ سألتها :

« ثم ماذا ؟ »

فجاءت كلمات أختها متقطعة بدمعها :

« ثم ٠٠ لـــم يكن لي الا ٠٠ » وأحجمت عن قول ماعنّ لها فجأة في تلك اللحظة ، فترددت ونشجت

ثم أكملت : « إلا الانزواء والصمت · والآن جاء دورك · »

وبقيت هدى على صمتها جامدة العينين ، ثابتة الوضع ، الى أن كفت ثريا عن در دمعها ، فقالت :

« قبل ساعتين طلب مني رافد أن أتزوجه · »

فرفعت ثريا عينيها الحمراوين وحدقت بعيني أختهـا :

ــ وماذا كان جوابك ؟

ــ أجبته بالموافقة ·

فكادت ثريا تصرخ ، غير أنها حبست الزعيق في حلقها لئلا تسمعها أمها وقالت بحشرجة : « أتوافقين على الزواج من رجل خليع ؟ رجل يقابل النساء سراً في عيادته ؟ رجل أحب أختك وحطمها ؟ »

ــ ولكن لم تخبريني بذلك من قبل ·

ــ والآن وقد علمت ؟

ــ لست أدري ·

ــ لست تدرين ؟

ـ لست أدري ٠

طبعا تحبينه ٠

ـ لست أدري ٠

ـ لا شك انه أسمعك أنواع الاطراء ، وأنواع الغزل، وأنواع الفلسفة التي تبهرك لانك لا تفهمينها ٠ يجب أن ترفضي لا الزواج منه فحسب ، بل رؤيته أيضاً ٠

ـ لا أظن أنني أستطيع ٠

ـ هدى ، هدى ، هدى ٠٠

ـ ششش ، ثريا ٠

وطَنَّت أذنا ثريا طنيناً ثقيلا كأن رأسها طبل تدق به العصي، وقررت أن تقذف بآخر قنبلة تستطيع القذف بها في وجه أختها : « لن تعلمي هول الحبل بلا زواج ٠ ولن تعلمي هول الاجهاض ٠٠ »

وانكفأت بوجهها على الوسادة لتدفن فيها نشيجاً راح يهز بدنها هزاً عنيفاً ، وأختها جالسة على سريرها لا تبدي حراكا ولا تدري ماذا تقول ٠

★★★

كانت الساعة بعد الحادية عشرة صباحاً ببضع دقائق وقد فحص الدكتور رافد خمسة مرضى منذ أن وصل الى العيادة • ثم جعل يكتب بخطه الصغير :

« لن تسمح أمي بزواجي من هـ • من السهل جداً فهم الدوافع في مثل هذا الرفض • الزواج الناجح في رأيها هو الزواج الذي يتكافأ فيه الطرفان اجتماعياً ومادياً مهما قال المحبون عكس ذلك • هذا اعتقاد لن تتزحزح أمي عنه ، وهو الى حد ما أمر معقول •

« ولكن هناك دائماً الشاذ الذي يحطم كل قاعدة ولا يعلل بالمقاييس المألوفة ، فتنفتح به امكانيات للحياة جديدة • وأنا يهمني أن أبرز السخف في كل قاعدة اجتماعية ، والاّ أخضع للمألوف مهما تكن النتيجة ، وأن أجعل الناس ـ أمي ، أخي ، الاقارب ، الاصدقاء ، الزملاء ، المعارف ، قراء الجرائد ، رواد السينما ، وغيرهم ، وغيرهم ـ ينبهرون وينزعجون ، ولو لمدة ما ، ويعودون الى تفحص « قواعدهم » التي يعيشون بموجبها ليروا ما فيها

من عطب • الخارجون على المألوف هم الذين يطوّرون المجتمع •

« يعجبني أن هـ • ليست كثيرة التساؤل ولا كثيرة التأمل • هـ • تفكر بحواسها لا برأسها ، بعكس ث • لن تسمح هـ • لخيالها بالجموح بها ، ولكنها تتمتع دائما بما هو أمامها وبين يديها • أما ث • فلن تهنأ الا بتباريح خيالاتها وآلام تصوراتها • ولها من قوة الخيال ما يقنعها بحقيقة أوهامها ، ومتعتها هي في تصديق تلك الاوهام • من قبلتين خلقت لنفسها مأساة ، وجعلت تسألني كيف يكون شعوري لو وجدتها ميتة بين ذراعي ! من ألف قبلة لن تخلق هـ • الا ملهاة ضاحكة فتقول : غداً أبحث عن الف قبلة أخرى في مكان آخر • اذا تزوجتها فقد تزوجت نقيضاً لي لا يأبه للتحليل ولا للنظريات • ولا أستبعد امكانية خيانتها لي مع أي من أصدقائي — اذا كان جميلا • أما ث — فالويل لي من تشبثها والفِسْق الذي يعيث في دماغها ! »

بعد أن كتب ذلك صاح بمضمده : « عبد ! »

— نعم دكتور •

ـ هل من أحد في غرفة الانتظار ؟
ـ سيدتان .
ـ ادخل الاولى .

أودع ورقاته الدرج ثم أقفله ، ولما دخلت المرأةقام لها مرحباً : « أهلا وسهلا . تفضلي اجلسي هنا . كيف حالك ؟ »

وما كادت المرأة تفتح فمها حتى دخل المضمد وهمس بأذنـــه :

« تقول السيدة الاخرى انهـا ليست مريضة وانها تريد رؤيتك في الحال . »

فقال بلهجة حازمة :
« قل لها انني سأراها بعد دقيقتين . »
وانصرف الى المريضة .

ولكن قاطع المريضة هذه المرة جرس التلفون .

فتناول الطبيب السماعة وقال بكل رزانة : «هالو .»

فجاءه صوت نسائي أشبه بالنشيج : « الدكتور رافد ؟ »

ـ نعـــم ٠

ـ من فضلك تعال الينا في الحال ٠ أرجوك ٠

ـ من الذي يتكلم ؟

ـ أم ثريا وهدى ٠

فوجب قلب رافد بشدة فجائية ، غير انه حافظ على هدوء نبرته : « خير ، خير ؟ »

ـ ثريا ٠٠ دكتور ، ثريا ما قامت من نومها حتى الآن ٠٠٠ وهي صفراء ، صفراء جداً ، دكتور ٠٠ لا نعرف ٠٠٠ اذا كانت ٠٠

فقاطعها بلهجة الطبيب الواثق مما يجب عمله في كل حالة : « لا تمسوها الى أن آتي ٠ »

ـ ولكن دكتور ٠٠ بحياتك ٠٠٠ أسرع ٠٠٠ لاني خائفة انها ٠٠

ـ لا بأس لا بأس ٠ سآتي في الحال ٠

وأعاد السماعة الى مكانها قبل أن يعيد الصوت تكرار المخاوف ٠ وهو يقول لنفسه : « يجب ألا أبدي لهذه المريضة أي اضطراب أو امتقاع في اللون ٠ » ثم قال بلهجته الطبية :

« اسمك من فضلك ؟ » وانصرف الى تدوين ماتشكو منه المريضة • ثم طلب اليها أن تضطجع على سرير الفحص وهــو يفكر : يجب أن أعطي كل مريض حقه ، مهما كانت حالتي الذهبية •

وحالما فرغ من كتابة الوصفة وخرجت المريضة نزع عنه معطفه الابيض واذا بعبد يفتح الباب ويومىء الى الزائرة الاخرى ويقول : « تفضلي » •

وكانت الداخلة هدى •

فقال وهو يجمع أدواته في الحقيبة السوداء الصغيرة : « صباح الخير ، هدى • آسف أنني لم أكن أدرك أن المسألة مستعجلة جداً »

ـ ولكن أراك تريد الخروج ؟

ـ الى بيتكم • خابرتني أمك بالتلفون قبل دقائق •

ـ أمي ؟ ما دخل أمي بالامر ؟ هل أخبرتها ثريا ؟

فتوقف رافد عما هو فيه ونظر اليها نظرة حادة :

ـ ألست قادمة من البيت ؟

ـ لا من المدرسة •

ـــ اذن ألا تعرفين أن ثريا ٠٠

ـــ ما بها ؟

ـــ فاقدة الوعي منذ ساعات ؟

فضغطت على حقيبة يدها بأصابع متشنجة وقالت · « هذا تطور جديد · عندما غادرت الدار في السابعة والنصف كانت ثريا نائمة ـ أو هكذا حسبتها ـ فلم أزعجها · »

ـــ لنذهب بسرعة ·

وأخذها من يدها ، وجرها الى الخارج جراً ·

★★★

انقضى النهار ورافد وزملاؤه الاطباء الثلاثةالذين استدعاهم الى المستشفى ، حيث نقلت ثريا ، في استشارات متصلة وعمل دائب · وفي الرواق خارج غرفتها عدد من النساء والرجال حول أم ثريا وأبيها في قلق وتساؤل يتراوحان بين الجهر والهمس ·

ـــ لم تفق بعد ·

ـــ ستفيق بعد قليل ·

ـ فرّغوا معدتها •

ـ قيّأوها •

حَقَنوها •

ـ لم ترمش عينها •

ـ صفراء • ولا تتنفس •

ـ تتنفس قليلا •

ـ سم ؟

ـ اليود قتال •

ـ حبوب النوم قتالة أيضاً •

ـ تتوقف على الكميّة •

ـ أربع وعشرون ساعة ؟

ـ لا شيء • قد تظل ثلاثة أيام •

ـ سيقتلها الجوع • ولكن سيطعمونها بالانبوب •

ـ وهي فاقدة الوعي ؟

ـ عجيب ، عجيب •

وانتصف الليل والممرضات يحملن أوعية من مكان الى آخر • ورافد يروح ويجيء والاطباء الثلاثة يخرجون ويدخلون •

وكلما رأى أبو ثريا رافد سأله :

« هل ستعيش يا دكتور ، هل ستعيش ؟ »

فيقول رافد : « يتوقف عليها • ولكنني أعتقد أنها ستعيش • »

وانصرف أكثر الزائرين ولم يبق في الرواق الا والدا ثريا وهدى •

ولاول مرة في تلك الساعات كلها شعر رافد بوجود هدى • كانت صامتة فوقف معها قرب والديها ، وأخرج سيكارة وأشعلها • ولم يقل شيئاً •

فقال ممدوح بصوت خافت ، بلهجة من يعترف بسر لرجل يأتمنه : « دكتور ، أنت قريبنا ، ولذلك أحب أن أستشيرك • تدري أن ثريا فسخت خطبتها قبل مدة • أتعتقد أنها فكرت في الانتحار بسبب ذلك ؟ » فسحب رافد نَفَساً عميقاً من سيكارته ، وقد أحس بالاعياء : « كل شيء جائز • »

فقالت الأم : « ثريا حساسة جداً • وكتومة • ولكن عشرات الفتيات يخطبن ثم تفسخ خطبتهن • ماكنت أتصور أنها حساسة لهذه الدرجة • »

فقال رافد : « هناك عوامل كثيرة في قضية كهذه ، منها الظاهر ومنها الخفي · ولعلنا لا نعرف الا الظاهر منها · وهو الاقل أهمية · »

وفجأة ارتمى ممدوح على ركبتيه عند قدمي رافد ، وأمسك بيده وراح يقبلها ، وقال ، وقد انفجر بكاؤه من حلقه ذبيحاً يائساً : « بجاه الله وبجاهك ، خلّصها · ورحمة والدك خلّصها · · · »

فجر رافد يده بعنف وأمسك بكتفي ممدوح وأنهضه على قدميه ، وقال له : « أؤكد لك انها ستعيش · ستعيش · »

وانسحب الى غرفة ثريا · ولما حاول ممدوح اللحاق به أوقفه بالباب وقال : « لا · لا تدخل الآن · بعد قليل · بعد قليل · الهدوء من فضلك · » وسد الباب ·

ودنا من الجسد المستلقي أمامه دون حراك ، وأمسك بالرسغ وجس النبض · غير انه أجفل حين أحس بظلٍ يسقط عليه ، فالتفت واذا هدى بوجهها الجامد تقول :

— هل كنت تحبها ؟

فقال بثبات : « لقد جاءتني عدة مرات . »

ـ هل كنت تحبها ؟

ـ لا .

ـ هل حبلت منك ثم أجهضت ؟

فشعر كأن الدم سيتفجر من رأسه غيظا : « من أين لك هذا القول ؟ »

ـ منها هي .

ـ منها ؟ وهم من أوهامها .

ـ وهم ؟ ألا تراها انتحرت لانها عرفت أنك تحبني؟ لقد اعترفت لي بكل شيء ليلة البارحة .

ـ بماذا ؟

ـ بعلاقتكما .

ـ لم أمسها . لقد قبلتها ، نعم . ولكنني لم ، لم... أمسها قط . بعد ساعات ستعود الى وعيها ، بعد أن لفتت أنظار العالم الى تعاستها ، وسنرى .

ـ اذن لم تحبها ؟

فالتفت الى وجه ثريـا الاصفر المستقر في الوسادة البيضاء وقال : « هذه مأساتها . لم يحبها أحد . »

ثم عاد فنظر الى هدى وقال : « هل ادعت أنها حبلته وأجهضت ؟ »

ـ نعم •

فصمت رافد متجهماً ، ثم قال ببطء : « أؤكد لك انها ما زالت عذراء • وأؤكد لك انها لم تأخذ من حبوب النوم ما يكفي لموتها • واذا ما أفاقت وشفيت أرجو أنها ستعترف لك بالحقيقة • »

وفجأة انتفضت ثريا في فراشها مجهدة الوجه ، وقد انشدّت زاويتا فمها الى الاسفل ، وتقطب حاجباها • ثم رمشت أجفانها الزرقاء ، وأنّت أنيناً خافتاً جعل رافد يدور على عقبه ، ويقفز صوب الباب • غير أن هدى أوقفته وقالت : « الى أين ؟ »

فوقف رافد مكانه ويده على مقبض الباب وقال : « لأبشّر والديك بحياة ثريا • » ثم ضحك وأضاف هامساً : « ولأطلب منهما حياة هدى واحدة بواحدة • »

وأنّت ثريا مرة أخرى ، وهدى تجيب هامسة في شدة عصبية :

« لا ، لا . لن تفعل ذلك ! لن تطلب حياتي ـ ولو انني مستعدة الآن للقذف بها في البحر من أجلك . »
وأقبلت على سرير أختها لترقبها وهي تفتح عينيها بلأيٍ وجهد ، بينما فتح رافد الباب وقال للوالدين القاعدين في الرواق : « أفاقت ثريا ! »

★★★

ـ ليتها ماتت !

ـ لا أقبل منك هذا الكلام .

ـ طبعاً لا تقبلينه . لأنني طبيب ، ولأنك أم الطبيب الفخورة بالطبيب .

ـ لقد أرهقت نفسك يا ابني . لا بأس ، لا بأس .

ـ لا بأس بماذا ؟

ـ بغضبك عليّ .

ـ اذن لن تعترضي على زواجي من هدى ؟

ـ رافد ، أظللت أسهر في انتظارك حتى الثانية صباحاً لتأتيني بذكر هذه البنت من جديد ؟ ألا ترى ماذا فعلت أختها ؟ تنتحر وتعرض نفسها لكل أنواع القيل والقال ؟

ــ ولكنها لم تمت • لقد أعدناها الى الحياة •

ــ من يدري أي مأزق كانت فيه ؟ ومع ذلك لاتتردد أنت ــ

ــ لا بأس • أنا ميت من التعب • لقد بحثت ذلك كله مع هدى قبل مغادرتي المستشفى •

ــ رُحْ نَمْ يابني • لانهم سيحتاجون اليك في النهار •

وذهب رافد الى غرفة نومه وأضاءها وجعل ينزع ثيابه • ولما لبس بيجامته ، أطل من الباب عبر الرواق ، فوجد أن أمه ما زالت جالسة مكانها في غرفة الاستقبال • فعاد اليها وقال :

« أتدرين لماذا انتحرت ثريا ، أو بالاحرى لماذا حاولت الانتحار ؟ »

ــ لا يهمني أمرها كثيراً •

ــ لتحقق ما تريدينه أنت •

ــ لست أفهم •

ــ لكي تمنع زواجي من هدى •

ـ هي تمنع زواجك من هدى ؟ لم أفهم بعد ٠

ـ وقد نجحت ٠ لقد أرهبت أختها بأن استحضرت شبح الموت وزرعته بيني وبين هدى٠ ولذا فان هدى تخشى الزواج مني الآن٠ شيء عظيم يجب أن أسجل ذلك في ملاحظاتي الطبية ٠ أترين ؟ جعلت ثريا من مرضها ذريعة للهجوم ، فخرجت منتصرة٠ واستفدت أنت من حيث لا تعلمين ولا هي تعلم ٠ تصبحين على خير ٠ أرجوكم ألا توقظوني قبل العاشرة ٠

ـ رُحْ نَمْ حبيبي ٠ تصبح على خير ٠

وقامت أمه المجللة بالسواد واتجهت نحو غرفة نومها (وهي تقول لنفسها : انه متعب ٠ سأسأله غداً ما الذي يعنيه بهذا الهذر) وتبعها رافد ٠ وبحركة من اصبعه أطفأ النور في غرفة الاستقبال٠ ثم أطفأه في الرواق ٠ ثم أطفأه في غرفته ٠ وتلمس طريقه الى الفراش في الظلام ٠

أصوات الليل

« إنْ تعظمْك النساءُ ... » بـدأ عدنان ، ثم تنحنح ليجلو حنجرته وأرسل نظرة لها معناها في الحلقة الصغيرة من الشباب الجالسين حوله ، وقد أضاء وجهه وتوترت عيناه واتسعتا . فأدركوا في الحال انه يبغي أن يتلو آخر ما نظم من الشعر . كان « الكازينو » المطل على دجلة يكاد ينفتق بمن فيه ويبح باللغط والضجيج . والاستكانات ترن ، والنرد يطقطق ، وقطع الدومينو تقع على الموائد

في طرقات متعاقبة ، والراديو يعلو بجئيره فوق الجميع •

ولكن حلقة عدنان سكتت لتصرف عن آذانها ماااستطاعت كل صوت سوى صوته ، وقد علا كصيحة فوق هدير البحر ، ويمناه بأصابعها الممتدة تعلو وتهبط بايقاع :

« ان تعظمك النساء • • • »

ولا أذكر أبيات قصيدته بالنص ، ولكن لن أنسى فحواها ، وهو ان النساء يعظمنك رمزاً لشهواتهن ، لكي يصلبنك يوما على نخلة وفمك فاغر لغبار الهاجرة • فيسكبن الخمر على قدميك ، ثم يأكلن عينيك ويندبن شفتيك لان ليس من يقبلهما ، ثم يرقصن حول أوصالك وهن يقطعنك عضوا عضوا ، ويسكبن الخمر من جديد • ثم يفرغن مثاناتهن ، فينمو الشوك كثيفاً حول بقاياك •

فهتف حسين : « عظيم ! أعد ، بالله أعد ! »

وبصوت أشد اهتزازاً من قبل ـ وكان صوت عدنان احدى خدعه المسرحية ، فهو يقول : ما نفع تلاوة

الشعر ان لم تكن درامية أو أشبه بصوت الوحي ؟ــ
أعاد عدنان تلاوة قصيدته ٠

فهز عبد القادر رأسه ، وهو شاب طويل الشعر ضامر الوجه ، له نظرياته في كل أمر من أمور الحياة ، من الشعر الى الثـورة ، وقال : « ولكنها ملأى بالمرارة ٠ »

فأجاب حسين : « أما أنا فأقول ليس فيهـا مرارة كافية ٠ تذكر أن عصر الورود والفجر الندي قد راح وولى٠ اننا نريد شعراً خشناً آكلا يستفز سامعه بل يغضبه ٠ »

فقال عبد القادر ، والغليون بين فكيه : « أخشى أن ليس في ذلك الا وقفة المتظاهر ٠ وذلك يعني أن مثل ذلك الشعر كاذب ٠ »

فقال عدنان : « كاذب ، كاذب ! أليست فيه خلاصة لمئات الاختبارات الانسانية ؟ قد تكون أنت صاحب هذه الاختبارات أو غيرك ، هل لذلك أهمية ؟ »

قال عبد القادر : « أقصد انـه كاذب لانه ليس صحيحاً بالنسبة الى الحياة ٠ »

ـ وما الصحيح بالنسبة الى الحياة ، أرجوك ؟ الحكمة المملة التي تملأ الكتب القديمة ؟ وواقعية الروايات المعاصرة ؟ قيل : أعذب الشعر أكذبه • وكان الافضل لو قيل : أحق الشعر أكذبه • فقد مرت القرون الطويلة على شعرائنا وهم يبتدعون أكاذيبهم من أجل «العذوبة» ، أما أنا فأوثر ابتداعها من أجل الحقيقة • وما الرموز ان لم تكن أكاذيب كبيرة تبتدع لخدمة الحقيقة ؟ وما أن حقيقة الحياة هي المرارة والقذارة والخيانة والشر ـ وهل كان لاحد من شعرائنا « العذبين » الجرأة للاعتراف بذلك ؟ ـ لن تكون الا المرارة غاية « الكذب ـ الحقيقة » في الشعر • اني أدع الورود وندى الفجر لك •

فاشتدت شفتا عبد القادر وبدت فيهما القسوة : « ومن يريدها ؟ ان ما أريده هو الفن للشعب وعن الشعب • أريد من الشعر أن يكون صوت المجتمع ، لا شطحات أفراد معتوهين ، على الشاعر أن يقلق على أمراض أمته ويجد لها العلاج • »

وقال كريم : « يجب أن يسترشد بمبدأ سياسي ، فيستطيع حينئذ أن يكون مرشداً للشعب • »

فتأفف عدنان قائلا : « أعرف نظرياتك كلها • »

وأضاف حسين : « الثرثرات المعهودة • »

فقلت : « اني أميل الى الاتفاق مع عدنان • فقد كان للانسانية منذ أقدم العصور أنبياء ومعلمون دينيون وقادة سياسيون ، لينصحوها بما تفعل وماتتجنب والىأين تذهب ، ومع ذلك فان الانسانية ما زالت في حالة محزنة • لست أعتقد أن الشعراء سيوفقون في ذلك أكثر من غيرهم • فلنسمح لهم اذن بخلق المتعة لنا ، اذا لم يستطيعوا خلق أي شيء آخر • فلعل البشر عن طريق المتعة يبلغون من نعمة الله ما لم يبلغوه من قبل • »

فأضاف عدنان : « المتعة بالمرارة • »

قال عبد القادر : « أريد فهما ، لا متعة • فاذا جاء الفهم عنطريق المرارة ، صفحنا عن المرارة نفسها • ولكن يجب أن توضع المرارة في خدمة مجتمعنا : يجب أن تستهدف الخلق عن طريق الهدم • والمشكلة هي كيف نفعل ذلك • »

كان لعبد القادر عينان كبيرتان عميقتا المحجرين ،

يظلل أسفلهما هلالان من الزرقة • وخداه العظيمان، وفكاه المربعتان توحي بشكل جمجمة حية • وكل شيء عنده « مشكلة » يجب معالجتها لغرض معين وبدون رحمة • وكلما فاه بعبارة ، التمع في عينيه بريق يضطرب لـه جليسه • وراح يقول : « ان مشكلتنا هي كيف نستخدم الفنون في قضية الفقراء وأشباه الجاهلين • لم يقض على أدبنا الا هذه الفردية المفرطة العقيمة في أدبائنا الذين يتنكبون عن الجماهير • »

فأجاب عدنان : « أما أنا فأعتقد بنقيض ما تقول • لا أظن أن في أدبائنا فردية كافية • انهم على الاغلب عموميون ، مرتخون ، مائعون ، وهـذا بالضبط ما يريده جمهور ليس له من القراءة والكتابة الا النزر اليسـير • بل ان أكثرهم يحاول أن يعلم ويرشد ، ولكن تعليمه من أسخف ضروب التعليم • وهم لا يتنكبون عن الجماهير : كل ما في الامر هو انهم يعتقدون ان الارتفاع بالشعب ، لا يجيء ، في هذا العصر الوثاب ، الا عن طريق احياء الفكر القديم • ولهذا تراهم يلغون بكل ما هو رث وبال،

ولا يكتفون بالعلماء الذين من وظيفتهم أن يخترقوا طبقات القديم ، بل يحثوننا جميعا على الاقتداء بهم • فهم يخلطون بين الهواية التاريخية والفكر الابداعي • وهذا هو السبب في انك لا تستطيع هضمهم • وكلنا لا نستطيع هضمهم ، وها هم شيئاً فشيئاً يغلفهم السكون والحمد لله ، فذلك خير لهم • أما الادب الوحيد الذي يستطيع البقاء ، فهو ذلك الذي تخلقه أذهان حظيت بسهم وافر من الفردية • »

فقال عبد القادر في شيء من الحنق : « ليس الاديب من هؤلاء الا بهلوانا بين جمهور من الكسحاء • اننا لا نريدهم • اننا نريد أناسا يعرفون كيف يستفيدون من أعضائهم ، ليعلموا الآخرين كيف يستفيدون منها • والمشكلة بالطبع ليست مجرد مشكلة أدبية • »

فردد كريم كالصدى : « لا ، انها ليست أدبية صرفا • انها سياسية • »

فقال حسين « الثرثرات المعهودة ! فكلما ذهبت الى الماخور بقصيدة الى سميحة ، وجب علي أن أذهب اليها برسالة سياسية ، ها ؟ انني أفضل أن أذهب

اليها ، كما أفعل دائماً ، ومعي قصيدة عنها . ولكنني لا أمسها مطلقاً ، لانني أعتقد أن السيلان والمعدة الخاوية لا يتفقان كثيراً . كل ما هناك هو انني أنفعل بالجمال والشفقة ، ويلذ لي أن أرى لعنة الشر تنهش رونق الحياة . لا أكثر ولا أقل . »

فقال كريم : « انك انحطاطي يا حسين ! »

ـــ انا انحطاطي ؟ طبعا ، طبعا . ألست أقيم في بيت كالقصر ؟ أوليس عندي طاهيان وثلاثة خدم وسائق سيارة ؟ سيارتي «الكادلاك» من موديل السنة القادمة، ولي أربع خليلات . طبعا . انا انحطاطي !

فضحكنا جميعا . حتى عبد القادر ابتسم ، ممسكاً يغليونه بين أسنانه .

وقال عدنان : انك تستحق استكانا آخر من الشاي على هذه النكتة . يا ولد ! » فقفز نحونا الخادم ، وهو غلام مشدود الجسم ، أشعث الصدر ، يكشف قميصه الرث عن صدره ، وفي زاوية فمه عقب سجارة . « استكانا آخر من الشاي ، وليكن من أحسن ما عندك ! »

« حاضر ! » قال الخادم واختفى في حشد الجالسين • واذا عدنان يهمس الي : « رأيتك مرة أخرى • ما لك تكرر النظر الى ساعتك ؟ »

قلت : « أنت تعلم أنني مدعو للعشاء في بيت سلمى الزبيدي هذا المساء • »

قال : « ما زال هناك متسع من الوقت • انها ليست الثامنة بعد • وفي وسعك أن تمشي الى بيتها في عشر دقائق • »

قلت : « أعرف ، أعرف • »

كان قد انقضى شهر منذ أن قابلت السيدة سلمى الزبيدي لاول مرة ، يوم طلبت الي أن « أثقف » ابنة أختها سلافة الصفوي ، باعطائها درسين في الاسبوع • وقد تركت سلمى دعوة خطية للعشاء مع سلافة لتعطيها الي • ولما سألت تلميذتي أذاهبة هي أيضاً للعشاء عند خالتها ، ضحكت ، أجل ضحكت ، كأن سؤالي يبعث على الضحك ، وقالت : « انني أسمع عن حفلات العشاء وأقرأ عنها ، ولكن ذلك لا يعني أنني أشترك فيها • »

ـ لماذا ؟

ـ لاسباب ظاهرة ٠

ـ أ ٠٠٠ في الواقع لم تخسري شيئاً ٠

ـ من يخسر شيئاً لم يحصل عليه قط ؟ ولكن أصحيح أن في هذه الحفلات يتكلم المدعوون بالتلميح وان ٠٠٠ دسائس الحب تنتعش ؟

ـ ذلك أمر مبالغ فيه جداً ٠

ـ لا أدري ٠ ولكن ليتك تحضر احدى حفلاتنا النسوية ـ أحد « قبولاتنا » ٠ ان المرء ليظن من حديث النساء حينئذ انه ليس في الدنيا شيء سوى الحب ٠

فسرني أن أراها تستطرد ، ولو قليلا ، عن النحو الانكليزي الذي كنت أدرسها اياه ، غير انني لم أكن مستعداً للبحث معها عما اذا كان في الدنيا شيء سوى الحب ٠ فصرفت الموضوع بضحكة مني لم تستجب لها سلافة ، وعدنا الى الدرس ٠

أما الآن ، فالظاهر من حديث جلسائي أن هناك

أشياء أخرى تشغل على الاقل بال الشباب • فالمسألة الخطيرة عند عبد القادر (وهو يدخن غليوتا لانه ، كما يقول ، أرخص من السجائر) هي مسألة الفن للشعب بعد القضاء المتوقع على « غير المرغوب فيهم » سياسياً في البلاد • ولكن كثيراً ما كان يسئمني في مثل تلك الحلقات ان أراهم يثورون ويتشاجرون لآراء أولية • وكنت في شيء من ارهاق الارادة أضع نفسي مكانهم لاذوق نشوة اكتشاف آراء كتلك لأول مرة • فقد كانوا كمن ينظر الى دجلة ثم يهتف فجأة :
« انظر ! انه يتحرك ! وفيه سمك يعوم ! »

راح عبد القادر يستفيض في الحديث عن الكتابة ، قائلا ان القصص يجب أن تستقي جميعها من حياة المعدمين والمتسولين والمجرمين ، لكي تكشف عما سماه بالتفسخ والنتن في وسطنا • واذا الجميع فجأة يصرخون فرحاً عند مرأى توفيق وهو مار بالمقهى ، ويدعونه الى الجلوس معنا • لم أكن قد رأيت توفيق من قبل ، وهو دون الثلاثين بقليل ، طويل ، نحيل ، ذو عينين ضيقتين حادتين اشتبهت في أنهما زرقاوان • كان يرتدي عقالا وعباءة بدوية ، وحالما عرّفت

به ، فتح أطرافها وكشف عن حزام للرصاص يلبسه تحت العباءة (كأنه قد وصل تواً من معركة) وقال:
« هذا فخري وعاري ! »

فقلت : « بل انه في غاية الروعة • »

فقال فخوراً : « انه في غاية الروعة ، ولكنني كلما لقيت أخاً من فلسطين أدركت أنه من العار أن ألبسه هنا ، لا في جبهة القتال في فلسطين • »

فأثر كلامه فينا جميعاً ، وقد أدرك هو ذلك ، ثم جلس وحييناه من جديد ، وطلبنا له شاياً •

ويبدو أن كريم ، وهو الظل الهزيل لعبد القادر ، كان يعلم ما الذي يستفز ضيفنا ، اذ قال : « كنا نتحدث عن الادب والشعب • »

فضحك توفيق قائلاً : « يسعدني أن أراكم ، كلما عدت من مضارب العشيرة ، ما زلتم تتكلمون • ليس هناك مثلنا في الكلام • »

ـ كنا نتكلم عن الكتاب والشعراء • ويعتقد عبد القادر أن قصصنا يجب ـ

ـ أعرف ، أعرف • ولكن هناك شيئاً واحداً لن تتعلموه • وهو أن القصص والرسم والموسيقى ، الى آخر ما هناك من خزعبلات حياتكم الخانعة ، ليست الا من اختلاق المدنية • »

ولم أفهم مرماه فسألته في براءة تامة : « أتظن اذن أن علينا أن نشجعها أم لا نشجعها ؟ »

فأجاب توفيق : « لا حاجة بكم الى تشجيعها ، لان المدنية ستفعل ذلك مهما حصل • ولكنك تعلم أن المدنية تعني التقهقر ؟ »

ـ آ ؟

ـ انها تعني المرض ، الفساد • والفن نتيجة هذا الفساد • انه الغاز السام الذي ينفثه هذا المستنقع الفسيح الذي تدعوه المدنية •

فأشار عدنان الي بعينيه كمن يقول : دعه يتكلم •

فسألته : « اذن تعتقد ألا حاجة الى الفن ؟ »

فأجاب : « يتوقف ذلك على ماذا كنت تريد المحافظة على مدنيتكم • وكل فنان بالطبع ، وكل كاتب قصة ، وكل روائي ، يطعن بخنجره المسموم جسم الحياة

الصحيح ، لانه يخدم قضية « المدنية » • وماالمدنية؟ انها ، كما يدل اشتقاق الكلمة ، حياة المدن • والمدن تنتعش على حساب الصحراء والريف • وما الذي تحصل عليه في النهاية ؟ هذا ... » وأتى بايماءة واسعة بيده يعني بها الجمهور الكبير في المقهى • « قاعدين على مؤخراتهم ، يلغون طيلة النهار ، يتململون ويسأمون ، يصيبهم الامساك ، ثم تصيبهم العنة ـ والعنة متفشية فيهم حتى غدت أكثر نساء المدن اما مساحقات أو متهتكات ، لان أزواجهن عاجزون عن تمتيعهن • هذه هي المدنية • ثم يأتي الفنانون ويستخرجون من أمراضهم وخنوعهم أحلاما مزوقة • أحلام ؟ لا بل قيء • أتريد حضارتكم ؟ اليكم بالقيء • ها ها ها ! » ونظر حوله وصاح : « يا ولد ! ماء ، ماء ! » ثم أتى بشخرة عنيفة جلا فيها أنفه وحنجرته ، وقذف من شفتيه كتلة كبيرة من البلغم على الارض •

فأخذ عبد القادر غليونه من بين فكيه وقال : « أعدنا الى سخافاتك مرة أخرى ؟ آلا يكفينا أن الصحراء منذ قرون تلتهم مدننا وأراضينا الخصيبة ، فتريد منا الآن أن نتوقف عن مقاومتها • »

فأجاب توفيق : « أنـا لا أريدكم أن تتوقفوا عن مقاومتها • » وصب لـه الغلام من ابريق نحاسي كأساً من الماء شربه توفيق جرعة واحدة وأردف : « كل ما قلته هـو أن الفن هو قيء المدنية ، لان المدنية بدورها هي مرض • وكل مرة أعود فيها الى المراعي الفسيحة التي ترعاها عين الله ، بين المواشي الثاغية والكلاب النابحة ، ازداد يقيناً من ذلك • هل ركبت حصاناً في حياتك ؟ »

ـ ومن يريد حصاناً اذا استطاع أن يركب سيارة ؟
ـ سيارة تشتريها من أمريكا بعرق مؤخرتك ، حين تستطيع أن تركب جواداً عربياً أصيلا ؟ هل ركبت جملا يوماً ؟ طبعاً لا • هل نمت ليلة في خيمة ؟ هل صليت مرة في وسط أفق رحب كأنه دائرة الفلك حولك ؟ هل قضيت في حياتك ليلة حراسة وبين يديك بندقية محشوة ؟ هل عرفت غزوة ؟ هل اشتركت في مخاطرة يوما لتروي عنها ، أو هل أصغيت الى قصة مخاطرة ـ أصغيت اليها ، لا قرأتها ؟ طبعا لا • » وحضر شايه فشربه في جرعتين متواليتين • « تلك هي الحياةالعربية الصحيحة ، وليس بباق سواها • »

ثم ألقى علي نظرة نافذة وقال : « أقلت لي أنك أستاذ ؟ لعل الاساتذة الذين تلقوا العلم في الخارج لا يروق لهم رأي كرأيي • ولكنك ربما تعلم خيراً مني أن العرب ما ضاعت ريحهم الا عندما استقروا في المــدن التي فتحوها • لقد نخر في عودهم ترف الامم التي قهروها ببأسهم • ولكن ما الذي كان مصــدر قوتهم أول الامر ؟ الصحراء • فالصحراء معقلنا وحصننا ، خبزنا وماؤنا • وما الذي سيعيد للعرب اذن بأسهم ونشاطهم ؟ الجواب واضح : العودة الى خشونة الصحراء وسنتها الاخلاقية • العودة الى الصراع بين القبيلة لكي نبقى على صحتنا ويقظتنا • وهناك في الصحراء لن تستخرج القصص من أحلام أفراد مخنثين خائبين ، يحسبون الحب أعظم مكتشفات الانسان ، ومع ذلك لا يحصلون من ملذات الحب الا على جلد عميرة ! ها ها ! المعذرة عن هذا الكلام • فنحن أبناء الصحراء لا نؤمن باللف والدوران ، ونسمي الاشياء بأسمائها لان لنا معدأقوية ، ومتعتنا جسدية ومباشرة • وقصصنا هناك هي أخبار أناس حقيقيين وحوادث بالفعل • ولا يهمنا أن نسجلها

في الكتب ، لانها تبقى حية على شفاهنا • أعمالنا الفنية الحية هي نحن أنفسنا ، وكل ما عدانا ميت ولا قيمة له • أتذكر قصة البدوي الذي شعر مرة بدافع يحدوه الى صنع تمثال ؟ لقد أراد أن يصنع تمثالا لامرأة ميتة كان يحبها ، ولكن لم تكن لديه مواد يشتغل بها • غير انه وجد كمية من التمر • فصنع التمثال من التمر • وجاع في الصباح التالي، فأكل التمثال ! وقد أصاب في ذلك • فنحن أنفسنا يا سيدي تحف الجمال الوحيدة ، والحمد لله الفنان الاوحد • »

فانفجر عدنان بقهقهة مدوية ، وقال : « نحن أنفسنا تحف الجمال الوحيدة ! ما أعظم خداع النفس ! والمخلوقات القاطنة في أكواخ (العاصمة) تلك المخلوقات المريضة ، الهزيلة ، جوعا ، هي تحف من الجمال ولا ريب ! »

فتصدى له توفيق قائلا : « مدنيتكم هي التي حطت منهم ـ حضارتكم الكريهة • »

قال عدنان : « وسكان الاهوار في الجنوب ، الذين يعيشون مغموسين في المستنقعات حتى يتساقط اللحم

عن أقدامهم وكواحلهم ، هم تحف من الجمال أيضاً »
ولم يمهله عبد القادر للجواب اذ قال : « لو سمعك
أعداؤنا لعشقوا كل كلمة فهت بها • »

« ماذا تعني ؟ »

« أعني أن الصهاينة يتمنون لو نعتقد نحن بضرورة
العودة الى الصحراء • »

فاشتعلت عينا توفيق غضباً وصاح : « يا ابن
الـ • • • لقد رأينا أمثالكم في حرب فلسطين • اني
أعرف عدد الشعرات على مؤخراتكم ، كل واحد منكم
ملأتم الدنيا كلاماً وتشدقاً ، ولكن في ساعة العمل
تحجرت مفاصلكم لان الانكليز والامريكيين لم يتفقوا
معكم • ولولانا نحن العشائر ، لكان الانكليز مازالوا
على ظهوركم في هذا البلد حتى الآن • »

فقال كريم : « لم يكن لدينا تنظيم سياسي صحيح ،
وما زلنا نفتقر اليه • ولكننا لا ندعو الناس الى
البراري والفلوات لندفن رؤوسنا في الرمال • »

ـ « ليس في قلوبكم ذرة مـن الايمان ، تلك هي
بليتكم • كلكم تنضحون كلاماً ، ولكن لا ذرة من

الايمان فيكم ولا قطرة • تعالوا عيشوا في خيام الصحراء شهراً واحداً ، أعلمكم كيف يشعر الانسان عندما يعمر قلبه بالايمان ، وكيف يحق لكم حينئذ أن تفتخروا بأنفسكم هذه الصغيرة العاجزة • »

كان توفيق كالسلك الكهربائي المعرَّض ، في لمسه خطر • وفي مقدوره أن يفوق كلاماً جميع من يعيرهم هو بكثرة الكلام • وقد لاحظت أن الشباب الآخرين قد يخالفونه في الرأي ، ولكنهم معجبون بفصاحته ويستمتعون بفوران حديثه • ولعلهم كانوا يمازحونه ليستدرجوه الى مثل ذلك الفوران • ولكنهم كانوا يعلمون أنهم أعجز من أن يصرفوا عنهم أقواله بسهولة • واذ كانوا هم يبحثون ويتساءلون في كثير من الحيرة والتردد ، فلا بد أن ثقته العملاقة بنفسه تزعزعهم كثيراً • « توفيق الخلق مشكلة ، مشكلة كبيرة • » همس الى عبد القادر ، وأشعل عود كبريت ليولع غليونه مرة أخرى • كانت الساعة الثامنة والنصف ، وكان علي أن أتركهم لابلغ بيت سلمى في الموعد المضروب للعشاء •

★

كان الليل قد انتصف عندما انفض المدعوون في بيت سلمى • فشعرت برغبة في رؤية عدنان والتحدث اليه مرة أخرى ، فعدت وحدي ماشياً ، والهواء البارد يهب عبر النهر بليلا منعشاً • فلما بلغت « الكازينو » حيث تركت صحبي يتناقشون ، وجدت أن المقهى قد تحول الى مكان فسيح خال ، وقد رصفت كراسيه فوق الموائد ، ازاء أحد الجوانب ، وأوراق الجرائد الممزقة تزحف مع الهواء عابثة على الارض الملطخة ; وكان هناك في الضوء الوحيد الباقي في أحد الاركان ، بضعة رجال يتحدثون في هدوء بين أعقاب السجائر ، وحسين جالس على طرف منهم يقرأ في مجلة •

فسألته : « أين الجماعة ؟ »

فقال : « ذهبوا الى (الليالي الذهبية) مع توفيق لشرب العرق • »

والليالي الذهبية مقصف قريب ، فمشيت نحوه ، واذا عدنان وتوفيق يخرجان منه ، وهما يضحكان ، وفي مشيتهما ترنح واضح •

فصاح عدنان حالما لمحني : « ها ؟ أعدت من بيت سلمى ؟ ايدك بالدهن ! »

فقال توفيق : « لماذا ؟ أصبية سلمى ؟ »

ــ في سن جدتي ، أو على الاقل في سن الاربعين . ولكن اذا شددت ظهرك بسلمى الزبيدي ، حصلت على ما تريد .

فقلت : « يظهر انك سكران . »

ــ سكران ؟ سلمى الزبيدي ابنة خالة أمي . وأنا أحبها وأكرمها . ولكنها حشرت نفسها في ذلك الوسط المصطنع الكريه ، لتكون محاطة بالمدعوين ليلاً ونهاراً فلا تتكلم إلا بالانكليزية . لقد قررت أن أزورها غداً وأخبرها برأيي فيها .

فقال توفيق : « نأخذها معنا الى الصحراء ، نحجبها ، ونبقيها في خيمة مع النسوة والماشية . ولتتكلم بالانكليزية عند ذلك الى أن تشبع ! »

ــ أي صحراء يا توفيق ؟ أحتى العرق لا يقتلع الرمال من رأسك ؟

ــ أليست الرمال أصفى وأنظف من كل هذه البيوت

المحشوة بمن فيها ، والشوارع البائسة التي قضيت عمرك تتشبب بها ؟

ـ لو تدري ما أتمناه لشوارعنا التي أعشقها ، لو تدري فقط ! ان ما أتمناه هو أن أراها وقد انقلبت رأساً على عقب ، وبيوتنا وقد خوت ، ونساءنا وقد ملأن الازقة عربدة ، والدم يجري حتى الركب • لا صحراء ، ولا مدن ، ولا فن للشعب ، ولا سياسة ، ولا مباغي ، ولا حفلات عشاء • فوضى متضاغية ، وعبد القادر يرفع غليونه من بين أسنانه الصفراء ليغب من بول الشعب ، وسلمى تصب خمرها الفرنسية لعشر جيف حولها ، وأنا أنعب بقصيدتي الاخيرة فوق الخرائب •

كان لصوت عدنان رنين في الطريق الخالي كرنين أجراس ضخمة في واد من الصخر والشوك • يتكلم وهو يدافعنا على الرصيف المشجر ، ويقف بين الخطوة والاخرى ، ويرفع يـده وينزلها كأن ألفاظه تعلو وتهوي معها •

فقال توفيق : « والله لاركبنك فرساً وأحمّلنك بندقية ، وأعلمنك معنى الرجولة • »

ـ خليت الرجولة لك • ولكنك عنيد يا توفيق • تفضل عنزتك على نسائنا ، ومع ذلك لا تستطيع أن تبقى بعيداً عن المومسات شهراً واحداً • تعال معي أعلمك معنى الضعف ، معنى الخوف ، فتعرف كيف يقطع اليأس القلب والاحشاء والدماغ • لا • لا أريد تحفك الجمالية ، ولا أريد فن عبد القادر وهو يقود للفقراء والجاهلين • أع ••• أريد ، أريد ••• الســماء مطبقة على الارض ، والناس ممســكين بأحشائهم يئنون ، والشرطة يصوبون بنادقهم على رؤوس النساء ، وأنا وأنتم فوق ركام الشوارع ننعب كالغربان •••

وتدشأ مرة ، واعتذر ، وتدشأ مرة أخرى ، ثم اتكأ على شجرة ، وقال : « وحينئذ ••• وحينئذ ستخلد ذكرانا الملفات السرية في الـ ••• أع • »

وتراشق القيء من فمه • فأمسكنا به ، وقد غدا لين الجسم ، عاجزاً عن الوقوف ، وقــال توفيق :

« أما قلت لك لا تكثر من العرق اذا ما كنت قد تعشيت ؟ »

وتقيأ عدنان مرة أخرى ، وقال توفيق هامساً لي :
« المسكين ما معه فلس ليتعشى عشاء مثل الناس . »

ثم أجلسناه على الارض ليستريح .

النهر العميق

أفقت من نوم ثقيل فأدركت أنني مستلق على ضفة النهر • وما كدت أتحرك حتى شعرت بألم يحطم رأسي ، وأحشائي تتلوى •

وهممت بالقيام على قدمي ، ولكن عزيمتي خانتني في المحاولة الاولى ، فقلت لنفسي : « ولماذا أقوم ؟ الى أين أذهب ؟ » ولمحت مياه دجلة الصفراء تتألق كمستنقع راكد ينفث الغازات المسمومة ، فخيل الي أنني ارتميت على حافته ، فابتلعني المستنقع على

مهل ، وانطلقت من فمي الفقاقيع • ثم تساءلت : وماذا ترى تفعل عائدة حين تسمع أنني انتشلت من بين الاوحال جثة مشوهة ؟ ألعلها ستبكي ؟ ألعلها ستكتب قصيدة في رثائي لن تقرأها لاحد ؟ ألعلها ستفكر في الانتحار أيضا ؟ وماذا يقول أبي ؟ سيأتيه الخبر وزجاجة العرق بين يديه • ولن يفهم فحوى الخبر في بادىء الامر ولعله سيشتم جليسه ، ويقذف بالزجاجة في وجه الخادمة سكنه المسكينة • ولا شك أن قلبه سيتفطر رغماً عن نفسه ويقول : « يا ضيعة شبابك ! »

يا ضيعة الشباب ! هممت بالنهوض مرة أخرى ، فنجحت • واذا برجل مهلهل الثياب جالس على مقربة مني يرقبني • وكان أول ما لحظت فيه قدميه الكبيرتين : قدمين حافيتين ، تضخمت كل اصبع فيهما حتى غدت كقطعة من الحطب • قدمين حطبيتين لعلهما تحترقان بلهيب يتطاير الشرر منه لو أدني منهما عود كبريت • وسمعته يقول وهو ثابت في مكانه ، وفي يده مسبحة صغيرة : « أتريد مساعدة يا ولد ؟ »

مساعدة ! وليت له ظهري ومشيت حاملا وقر رأسي المصدع الى أن مرت بي عربة أوقفتها ، وفي شيء من الصعوبة علوتها واستلقيت على المقعد • ولما سألني السائق « الى أين ؟ » عجزت عن الجواب ، ثم قلت : « الى الميدان » •

ونظرت الى مؤخر رأس الحوذي وشعره القذر ينزل من تحت عمامته الملونـة بعرقه ، ويصيب ياقته المرقعة ، فأدركت أن لا صديق لي في الميدان وانني لا أريد الذهاب هناك • غير انني لم أستطع أن أتكلم لبضـع دقائق ، والحصانان العجوزان ـ أو هكذا خلتهما ـ يركضان بالعربة والسوط يهوي عليهما بين آونة وآونة •

السوط ••• رددت الكلمـة لنفسي ، وفي الحال تذكرت حسين العاني الذي يشتغل في جريدة « صوت الزمان » • لا ريب أن حسين سيكون الآن في غرفته الصغيرة في المطبعة ، مغموراً بين الاوراق التي يكرهها ، يكتب ويصحح ويوسخ يديه بحبر الطباعة ، ويلعن الناس الذين يشترون جريدة لا يعطيه صاحبها من الراتب أكثر من تسعة دنانير

في الشهر . يا ضيعة الشباب وضيعة العلم معاً !

قلت للسائق : « خذني الى مطبعة صوت الزمان . »

وإذ سمعت صوتي صادراً عن حنجرتي بشيء من العزيمة شعرت بشيء من الانتعاش . فمددت يدي الى شعري ورتبت وضعه ، واذا بورم في مؤخر رأسي يؤلمني اذا لمسته ، فقلت « لا بد انني اصطدمت بشيء ما » . ثم شددت رباط عنقي ، وأخرجت من جيبي علبة السكاير ، ولسبب ما قدمت سيكارة للسائق فلما التفت نحوي ليأخذها رأيت وجهه المبتسم شكراً ، فقلت لنفسي : « يا له من وجه رهيب . . . أتراه يحجم عن جريمة قتل ؟ »

ولما نزلت من العربة عند باب مكتب الجريدة ، هرعت الى الداخل . واذا السائق يصيح ورائي ، ولشد ما كان خجلي حين أدركت أنني نسيت أن أعطيه أجرته . فأعطيته ثلاثة دراهم دون تردد ، أخذها دون أن ينبس بكلمة شكر ، وانطلق بحصانيه العجوزين .

وما كدت أدخل المكتب حتى شعرت بأن في الجو أمراً

غير عادي • فقط اختلط المحررون الاربعة مع عمال المطبعة والفراشين ، وكلهم يلغطون • وما أن رأوني حتى صاحوا : « ها هو كامل ، ها هو كامل » • وبادروني في الحال بقولهم : « أرأيت حسين وأنت قادم ؟ »

وتوجهت نحوي الابصار بشكل أثار فيّ الفزع • فانني في تلك اللحظة ، على قصرها ، وعلى شدة الالم في رأسي ، والاعياء في جسمي ، رأيت عيونهم واحدة واحدة ، كلها جاحظة ، كلها محمرة كثيرة العروق ، في وجوه كأنها من خلق كابوس كريه •

قلت : « ماذا جرى لحسين ؟ لقد جئت لاراه » •

فقال أبو طه الطباع : « ألا تعرف ماذا حدث ؟ »

وقال أحد الفراشين : « عمي اذهب واختبىء في الحال • »

وقال علوان ، المحرر المسؤول عن الجريدة : « أترى يا كامل ؟ أوقعت نفسك في مصيبة ، وأوقعت حسين معك • »

فصحت مزمجراً : « ما لكم تنهالون علي بهذه الاقوال المزعجة ؟ ماذا حدث ؟ »

فقال علوان : « لقد جاء الشرطة وألقوا القبض على حسين • »

ـ ألقوا القبض على حسين ؟

ـ لانه كان معك •

ـ ماذا تقصد بذلك ؟

ـ ما الذي دهاك ؟ ألا تفهم ؟ انهم يبحثون عنك •

ـ عني ؟

فقال ناصحاً : « خير لك أن تغادر بغداد في الحال اذا أردت النجاة • لا تذهب الى الدار لانهم في انتظارك هناك • أما حسين ـ »

فلم أتورع عن الشراسة ازاء تلك الوجوه الغضينة الشوهاء ، وقلت : « لا أريد نصائحكم الخرقاء • انكم تنظرون اليّ وقلوبكم ترقص فرحاً لانكم تعتقدون أنني اقترفت جرماً • ولم يخطر في بالكم لحظة أنني قد لا أكون مجرماً • قبحكم الله فوق قبحكم جميعاً ! »

وخرجت وأنا أنتفض غيظاً. وذهبت الى أول «كازينو» صادفني وتهالكت على مقعد في احدى الزوايا . وحاولت أن أفكر في أمر الشرطة الذين يبحثون عني، غير أنني لم أستطع التفكير طويلا . وما كدت أشرب « استكان » الشاي الذي قدم الي حتى شعرت بنعاس شديد ، استسلمت له طائعاً . ولكن يدا عنيفة هزتني وأيقظتني ، واذا أنا أرى فوق رأسي وجه أخي شفيق .

لم أر أخي مضطرب العينين ، معرّق الوجه كما رأيته في تلك اللحظة .

قال : « ما الذي تفعله هنا ؟ »

ـ وما الذي يفعله هؤلاء الرجال جميعاً حولي ؟

ـ هل قررت أمرك ؟

ـ بخصوص ماذا ؟

ـ الشرطة يا أحمق ! أكان من الضروري أن تفعل ما فعلت ؟

فجن جنوني ثانية وصحت : « ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ؟ »

فهز شفيق كتفيه وقال : « افعل ما تشاء . وأنا على

كل حال لن أخبر أحداً بأنني رأيتك هنا . »
قال ذلك وانصرف .

ولاول مرة أصابت جسمي قشعريرة ، وشعرت بالدم ينسحب من رأسي...أتراني متهماً بجريمة ما وأنا لا أعرف ؟ أتراني حقاً ارتكبت جريمة ؟

ورأيت في مخيلتي وجه سائق العربة يبتسم الي ويتناول السيكارة مني . وجه مجرم ... ورأيت الرجل المندلق البطن الجالس بالباب ، وطبق الفلوس بين يديه ـ واذا وجهه سائق العربة : وجه رهيب ... فقمت في الحال ودفعت ثمن الشاي له . لعل وجهي لا يختلف عن ذلك الوجه ـ رغم العمامة العتيقة التي تعلوه ... وجه مجرم .

ما كدت أخطو خطوتين على الرصيف حتى أطبق علي شرطيان . فلم أقاوم قط . نظرت الى أحدهما وقلت :

« الى المركز ؟ »

فقال : « نعم . »

قلت : « هيا بنا . »

وشعرت بارتياح .

★

ما أن بلغنا مركز الشرطة حتى أودعت في «الموقف»، وهو غرفة صغيرة لها باب من قضبان حديدية . ولم يكلمني أحد ، بل رأيت العيون التي ترمقني في مزيج من الشفقة والاحتقار ، ورأيت رجلاً قصيراً بديناً ينظر الي في رعب ظاهر ويبتعد عني .

ولشدة تعبي جلست على الارض ، وحاولت أن أستجلي ما فعلت أمس واليـوم الذي قبله ، لكي أستطيع أن أعين موقفي تجاه السلطات اذا اقتضى الامر . ولكن حالما أعملت فكري قليلا ارتعدت هلعاً لم يكن في رأسي الا فراغ عريض . فجعلت أحك جبيني مستذكراً أمس على الاقل ... واذا أمس كورقة مزقت من كتاب أفتش عنها عبثاً ... وشعرت كمن هو على وشك الغرق يكافح الموج لكي يصل الى الضفة ، ولكن الضفة تبتعد عنه رغم كفاحه ... ما الذي فعلته أمس ؟ كيف وجدتني اليوم ملقى على ضفة النهر ؟ ما هذا الورم الاليم الذي في رأسي ؟

كان الشرطة دائبي الحركة ، يلغطون ويصيحون ويضحكون ، وأناس يدخلون ويخرجون ، وفي أيديهم عرائض يحملونها بحذر كأنها مؤلفاتهم الثمينة .

فتذكرت عائدة وهي تتلو احدى قصائدها من ورقة طويلة ، ثم تذكرت مقابلتي لها في دار أبيها • لقد كانت تلك آخر مرة قابلتها ـ أمس ، أمس ! أذكر قولها « سيعود أبي ظهراً » •

عائدة ••• وتذكرت عينيها الواسعتين وقد امتلأتا فزعاً ••• كانت تقص علي حلماً مخيفا رأته تلك الليلة • قالت :

« كنت جالسة في هذه الغرفة (ما أوضح ما أذكر حلمها الآن !) ولكنها كانت صغيرة جداً ، أشبه بزنزانة في السجن • واذا بك في الخارج تنظر الي من خلال النافذة وفي يدك ورود بيضاء وتقول : تعالي اخرجي الى هذه الحديقة • فوجدت أن حول دارنا حديقة جميلة ملأى بالزهور ، فلم أتردد في القفز من النافذة الى الخارج • فأعطيتني وردة • ولكنني كلما حاولت أن أدنيها من أنفي شعرت بثقل هائل يمنع يدي عن الارتفاع ••• ثم خرجنا سوية من الحديقة ، واذا نحن قرب النهر • فمشينا نحوه وأنا أحاول عبثا أن أرفع الوردة الى أنفي لاشمها ••• ومن حيث لا أدري خرجت سيارة كبيرة مملوءة

جنوداً وجعلت تلحق بنا • فقلت لي : لندخل مياه النهر ونختبىء فيها فلا يرونا • ولما خضنا المياه ، أنزلنا رأسينا تحت الماء ، غير أنني شعرت بحاجة الى التنفس وحاولت أن أخرج رأسي الى الهواء ، ولكنك منعتني • فجعلت أعاركك ، وأنت تمنعني ، حتى أحسست بأنني أختنق ••• ثم أفقت وقلبي يدق كمطرقة على صدري وجسمي يسبح في العرق •»

ثم تذكرت كيف كنت قبل ذلك قد سمعت جرس التليفون يدق وأنا في غرفة النوم ـ ولما أتناول فطوري ـ فنزلت الدرج راكضاً كأنني أعلم أن عائدة هي التي تريدني • واذا صوتها بادي الاضطراب وهي تقول : « ليس في الدار أحد • أريد أن أراك اليوم ـ هذا الصباح • أسرع الي • » وكان قد مر أكثر من أسبوع لم أرها فيه • فخرجت في الحال واستأجرت أول سيارة عابرة الى دارها واذا هي ترقب المارة بين ستائر النافذة في انتظاري •

اذن ، فقد قضيت نصف نهار أمس مع عائدة • فاذا اقتضى الامر ، حين أعرف ما الذي يتهمونني به ، طلبت اليها أن تشهد بذلك • آه ، ولكن ••

ولكن ماذا يقول أبوها المقدم سالم الجبلي ، اذا علم بذلك ؟ أتراه يسمح لها بالادلاء بشهادة مثل تلك ؟ بل ان الامر أسوأ من ذلك بكثير • انه اذا علم أننا قضينا الصباح سوية في غرفتها ، فمن يدري أي عقاب مريع ينزله بابنته ؟ اذن لا أستطيع الاعتماد عليها •

وحاولت ثانية أن أذكر ما فعلته بعد ذلك ـ دون جدوى ، ولا سيما بعد أن مرت صورة سالم الجبلي في مخيلتي ، بوجهه المجدور وكبريائه العنيفة • فكلما ذكرته تخيلت عائدة ، بعينيها الواسعتين (ما أطول أهدابهما السوداء وما أجملها !) تطأطىء برأسها وتشد بقبضتها ، ولكمات أبيها تنهال عليها أنّى وقعت ، وهي تمنع نفسها عن البكاء ـ الى أن تختلي بنفسها •

وقد غدت صورة سالم الجبلي تثير فيّ شعوراً كريهاً بالرعب • وهو رعب تمازجه بغضاء مريرة كنت أظن أحياناً انها ستدفعني يوما الى قتله •

وفي هذه المرة ، حالما ذكرته ، هاجمني ألم حاد في مؤخر رأسي ، وتشنجت أعصابي ، وشعرت بالخوار

في جسمي من جديد . غير أن شرطيين تقدما من الباب الحديدي وفتحاه ، وصاحا بي :

ــ قم ! تحرك !

ونهضت مستجمعا ما تبقى لدي من قوة ، وأخذاني الى غرفة حاكم التحقيق . كان هذا رجلا كبير الرأس ، حليق الشعر ، له شارب قصير عريض تحت منخريه ، تتدلى شفته السفلى الكبيرة كشفة الجمل . أزجى الي نظرة من عينين واسعتين رأيت فيهما مزيجاً من البله والقسوة . يظهر انه كان في انتظاري . وقد جلس على المنضدة الى يمينه شاب شعره مصفف يلمع بما عليه من زيت .

قال المأمور : « ما اسمك ؟ »

قلت : « كامل الصوفي . »

وأدركت ، اذ جعل الشاب الذي على يمينه يدون ماقلت ، انه سيدون الافادات التي سأدلي بها ــ وأنى لهما أن يعرفا الا إفادة هناك البتة ؟

قال المأمور : « عمرك ؟ »

قلت : « ٢٤ » .

ـ حسناً • والآن أريدك أن تعطيني تفاصيل مافعلت، ولا تخف عني شيئاً أبداً • أنت تعرف ولا شك ـ لانك شاب متعلم كما يبدو لي ـ أنت تعرف أن القانون فوق الجميع ، وان القانون لا مفر لانسان منه • ولكن اذا تكلمت الصدق فلعل العدالة ترافق بك فيكون قصاصك أقل مما تستحق • تكلم •

وأخذ يقلب أوراق الاضبارة التي أمامه •

قلت : « أتكلم عن ماذا ؟ »

ـ أولا كيف اقترفت الجريمة • ثم أخبرنا عن الدوافع • وتذكر أن عندنا أدلة وتفاصيل كثيرة ، ولن تستطيع المخاتلة أو التحريف في وصف مافعلت •

ـ انني مستعد لوصف جريمة اقترفتها يا سيدي • ولكن بودي لو أعلم أولا ما هي هذه الجريمة التي تعتقدون انني اقترفتها •

وما كدت أفرغ من قولي ، حتى هاجمني أحد الشرطيين ورفع يده بعنف وصاح : « أجب على أسئلة جلال بك ، ولا تكذب ! » ثم أنزل يده دون أن يهوي بها علي •

فقلت موجهاً كلامي الى المأمور : « يخيل الي أن هناك خطأ ما ، فأنا لا أذكر أنني أتيت أي شيء يعد خروجاً على القانون. سوى انني أسرفت في الشرب في اليومين أو الثلاثة الاخيرة . »

فاحمر وجه المأمور وجحظت عيناه الكبيرتان ، وتضخمت شفته السفلى ، حين ضرب المنضدة بيمناه وصاح :

ـ ما هذا الحكي ؟ أتسخر منا ؟ أترتكب جريمة قتل في رابعة النهار وتدعي انك لم تفعل شيئاً سوى الاسراف في الشرب ؟ حبل المشنقة في انتظارك ، يا حيوان . أتتعدى على بنات الاشراف ثم تتظاهر بالبله ؟

وما كان منه الا أن نهض من مكانه وصفعني صفعة رنت لها أذناي . ثم عاد الى مكانه .

وكدت أسقط أرضاً من الاعياء والالم وهول الاهانة . غير أنني تجلدت وسددت نظرة كراهية مريرة الى عينيه . أما هو فاستوى على كرسيه ، وعاد اليه هدوؤه بسرعة عجيبة ثم قال :

ـ والآن ! هات ما عندك . كيف قتلت عائدة بنت سالم الجبلي ؟

وما سمعت ذلك حتى شعرت بالارض تميد بي ، وهاجمت أذني أصوات مدوية ، وتلوت أحشائي ، وأغمي علي .

★

عندما أفقت وجدتني ملقى على الارض ، وأرجل الشرطيين منتصبة فوقي من الجانبين . فتذكرت في الحال أين أنا . وجئت بحركة أريد القيام بها ، واذا أحدهما ينحني ويساعدني في النهوض . غير أنني لم أستطع الوقوف على قدمي بثبات ، فاتكأت عليه . ولم أجد مأمور التحقيق في مكانه ، ولا الشاب الذي كان على يمينه .

واقتادني الشرطيان وهما يثرثران الى الغرفة التي وضعوني فيها أول مرة ، وقال أحدهما : « تهيأ للكلام بعد الظهر ، ولا تهب . كن رجلا . ألم تكن المقتولة من قريباتك ؟ »

ودار المفتاح في القفل .

ثم جاءني أحد الشرطيين مرة أخرى ، وأنا مقرفص على الارض ، وناولني استكانا من الشاي فشكرته ، وشربت الشاي بجرعتين ، ثم اضجعت جانباً واستسلمت للنوم ٠

غير أنني رأيت عائدة في حلمي تتحدث الي ، ولها وجه شاحب الصفرة ، وفي صدرها جرح بليغ ٠ ففزعت لرؤيتها كذلك ٠ وأفقت من نومي ، واذا بي فجأة أتذكر ٠٠٠ يا للهول !

هذه عائدة واقفة أمامي تتضرع الي ٠ وهذا أنا وفي يدي مسدس ، وها أنا أطلق النار عليها ، ولا أتريب لاراها تسقط مضرجة بدمائها ، بل القي بالمسدس من يدي وأخرج مهرولا الى الشارع ٠ ثم أستقل سيارة الى مطبعة « صوت الزمان » حيث أرى حسين العاني فنخرج سوية ونذهب الى غرفته ٠٠٠

★

وفي غرفة مأمور التحقيق ، وقد عاد هذا الى منضدته ، وكاتبه الى يمينه ، قلت :

ــ أجل يا سيدي ، أنا الذي قتلت عائدة الجبلي ،

وقد قتلتها بكامل وعيي وادراكي • لست أدري ان كان يهمك أن تعلم أن عائدة الجبلي كانت فتاة شديدة الذكاء شديدة الحساسية • كانت أحيانا تنظم شعراً لا تقرأه على مسمع أحد سواي • وكان شعرها رائعا •

فلوى المأمور شفتيه احتقاراً وقال :

ـ صارت حتى نساؤنا ينظمن القصائد ! كنت تحبها ؟

قلت : نعم • بلغت هـذا العمر ولـم آحب امرأة سواها •

ـ منذ متى ؟

ـ منذ ثلاث سنوات تقريبا ، أيام كنا طالبين معاً في الكلية •

ولمحت رجلا خارج الباب المفتوح يستمع الي من بعيد ، بصق على الارض ، ثم أعمل قدمه في مسح البصاق •

ـ هل كان أبوها يعرف بذلك ؟

ـ لا شك • لانه ضربها مرة ضربا مبرّحا • ولم يتورع عن استعمال حزامه الجلدي على بدنها • ثم منعها من اتمام دراستها في الكلية لانه ارتاب في أمرها • وكان ذلك في سنتنا الاخيرة •

ـ عجيب ! كيف كنت تلتقي بها اذن ؟

ـ ظننت أن عجبك يا سيدي سيكون كيف أقتل من أحب !؟

ـ ولكن لم لم تتقدم لزواجها ؟ ألست مسلما أيضا ؟

ـ بلى •

ـ اذن لم لم تطلب يدها ؟

ـ لانني كنت أعلم أن أباها لن يرضى بزواجنا •

فمد المحقق شفته الكبرى حتى رأيت الاحمر ، وقطب حاجبيه ، وهو يقلب الاوراق التي في الاضبارة أمامه ، ثم قال :

ـ ألك أخوات ؟

ـ لي أخوان •

ـ سألتك : ألك أخوات ، أخوات اناث ؟

لم أرد الاجابة على سؤاله ، لانني شعرت بأنه سيسوقني الى اعتراف أكرهه . غير انه صاح :

أجب ! هل ساجدة الصوفي أختك أم لا ؟

ـ سيدي ! لا حق لك بمثل هذا السؤال .

ـ اذن ساجدة الصوفي أختك . وهي المعروفة باسم المغنية حنان ؟

ـ نعم !

ـ وأين هي اليوم ؟ في دمشق ؟

ـ لست أدري !

ـ اذن لم يرض سالم الجبلي بزواجكما ؟ فهمت ! فهمت !

فقلت :

ـ ولكن ممانعة أبيها لم تمنعنا عن اللقاء ، بل زادت من حدة عواطفنا . كان أبوها يضطر كثيراً الى التغيب عن المنزل ، فكنت اذا علمت بغيابه لاأحجم عن زيارتها في بيتها . غير أننا في كل مرة نشعر كأن

مطرقة ستهوي على رأس كلينا في آية لحظة ، وغدت عائدة عصبيةكثيرةالصداع ، مستمرة الارق ، حتى جعل جسمها ينهد تحت ضغط آلامها ، وقلة نومها . واذا نامت رأت أحلاما مفزعة . وقد لحظ ذلك أبوها ، فأخذها الى عدة أطباء الواحد تلو الآخر . الا أنه لم ينثن عن مقاومتها كلما لمحت الي . اننا لم نستطع أن نتوقف عن اللقاء كلما سنحت الفرصة المخيفة . وأخيراً أدركت أنني أنا المحقوق في كل هذا . فلا أنا أستطيع الهروب بها والزواج منها ولا أنا أتركها وشأنها . والحقيقة انني لو كنت على شيء من السعةلهربت بعائدة ، وليكن ما يكون .

ـ أليس أبوك ميسور الحال ؟ ما الذي يعمله ؟

ـ أبي ؟ انه موظف متقاعد ، وهو يشرب . لقد أمسك بالزجاجة منذ بضع سنين وصمم على أن ينتحر بها ببطء .

ـ منذ أن ... اشتهرت حنان ؟

فلم أجبه على سؤاله ، وندمت على الاشارة الى أبي . ولكنني أردت أن أصف ظلمة البيت الذي كنا نقيم

فيه ، وأبي يصرف راتبه التقاعدي على سكره المتواصل ، وقد حبس نفسه في غرفة صغيرة مع زميل له أو اثنين ، ليخرج بين حين وآخر ، رافعاً صراخه في شجار عقيم مع زوجته وأبنائه ، يوماً بعد يوم • لقد أردت أن أقول أن بيتنا لم يكن مأوى لنا الا عند ضرورة النوم • غير أنني لم أشر الى ذلك واستأنفت كلامي ، وقد عزمت على الايجاز في القول :

ـ فقلت لعائدة يوماً انه يليق بي أن أنصرف عنها ، ولا أراها ثانية ، وانها يجب أن تحاول استعطاف أبيها ، فلعلها تجد بعد ذلك زوجا يسعدها • أتسمح لي بكأس من الماء ؟

ـ احضروا له كأس ماء !

ـ فثارت في وجهي كالنمرة ، ثم بكت ، ثم ثارت مرة أخرى •

وكم تمنيت لو أعترف بمبلغ ألمي ، ونشوتي ، حين رأيتها تثور وتبكي على ذلك الشكل • غير أنني رفضت أن أطلعه على دخائل نفسي ، فلم أذكر من

قصتي الا خطوطها الظاهرة · وهل أسمح ليد مثل يده ، اعتادت تجسس موضع الجريمة من كل نفس حتى تبلدت ، بتلمس خلجات قلبي ؟ كنت أرى امارات السخرية على وجهه أحياناً ، وقد تدلت شفته السفلى ، ولعله كان يتخيل صوراً فاضحة لعائدة اذ أختلي بها ، فيتمنى لو أسهب في وصف علاقتي بها أكثر مما فعلت · ولكن أنى له أن يدرك الدوافع الغامضة التي تفعل في نفس شاب يعرف الحب لاول مرة ، في جو من الشبق والحرمان ، فيلذ له ، كما يلذ لكل عاشق حديث العهد بالحب ، ان يتألم في حبه ، ويتعذب في شهوته ؟ كنت حين أتحدى أبا عائدة ، أظن أنني أتحدى المجتمع كله : فخيل الي أنني بطل مأساة عليّ أن أستمر بها فأوصلها الى الذروة من الألم واللذة · فاذا بكت عائدة بين يدي وتقطع قلبي لها ، شعرت شعوراً غريباً بأن جسمي، كجسم عائدة ، حين يتشنج من شدة الألم ، ينتفض أيضا من لذة الحب الذي أوجد ذلك الألم ·

شربت الماء الذي قدمه الي جرعة واحدةواستأنفت:

ــ ··· وجعلنا نتصل الواحد بالآخر كل يوم

تليفونياً . ولم أكن أنا لأنصرف عنها وهي على تلك الحال . والواقع أنني عميت عن كل انسان في الدنيا سواها . لا شك انك يا سيدي تتذكر أحياناً لحناً ما ، فتحاول أن تغنيه ، ولكنه يراوغك ، ويتهرب منك في مطاوي الدماغ . فتبحث عنه مستذكراً ، مستذكراً ، وهو يراوغ ويتهرب . وفجأة يكشف لك عن نفسه ، فتغنيه بمتعة هائلة... هكذا كانت عائدة بالنسبة الي كلما تركتها . أحاول تذكرها وتذكر المتعة بجمالها ، فتتهرب كلتاهما مني ، الى أن أراها وأسمع صوتها . فأغنيها وأغنيها ـ ولكن في نطاق من الجزع والقلق . العفو .. أراني أهذي .

فضحك المأمور وزميله ضحكة طيبة نظيفة . وفجأة أحسست بأنني أستطيع بأن أصارحه أكثر مما فعلت من قبـــل ، لأن ضحكتهما كانت خالية من التهكم . فقلت :

ـ قبل يومين جئت الى الدار في ساعة متأخرة فوجدت أبي في ثورة هوجاء من الغضب ، يترنح ويتعثر على أثاث المنزل ، ويصيح بأخي شفيق . وما أن رآني داخلا حتى انهال علي بالشتائم ، وقذف بزجاجة

فارغة في وجهي ، أصابت خدي هنا ، وعيني • واذا غضبه من أجــل عائدة • فقد خابره سالم الجبلي بأمري ذلك المساء وأثار حفيظته علي ، فاستسلم للعرق وراح يصخب ويزمجر على أخي شفيق ، لانه لا يردعني عن « دعارتي وفسقي » • وأقسم بأنه لن يسمح لي بالبقاء تلك الليلة في منزله وهو يردد : ألم نشبع مــن الفضيحة يا كذا وكذا • فخرجت وصفقت الباب ورائي ، وشتائمه تلحق بي في الطريق •

وفي الصباح ــ بعد أن قضيت ليلة في «فندق النهرين» ــ أسرعت في عودتي الى البيت ، آملا في مخابرة من عائدة • وبعد مدة قصيرة دق التلفون ، واذا بهــا تقول : أسرع الي الآن • أريد أن أراك • ليس في البيت أحد •

وحالما وصلت ، ودخلت بيتها متلهفا جزعا ، جاءتني بشيء مغطى وقالت همساً : أحزر ما هــذا ؟ فلم أحزر • فرفعت عنه الغطاء فاذا هو مسدس • وقالت : انه أحد مسدسات أبي • وهو محشو •

فقلت : لا تعبثي به فتؤذي نفسك •

قالت : لقد عزمت على واحد من أمرين : أما أن أقتل نفسي ، أو أقتل صاحب هذا المسدس ·

فهلعت لذلك القول وعنفتها على حماقة كتلك ، غير انها قالت بكل برود وتؤدة :

ــ أو أقتلك أنت ··· السبب في شقائي وبؤسي ، حتى أصبحت لا أستطيع مجابهة أحد دون الشعور بالخجل · لقد جاهرت أبي بعلاقتنا في الليلة الماضية وطالبته بشيء من الارث الذي أستحقه من مال أمي وصرحت له بأنني سأفر معك الى حيثما شئت · فاندفع في وجهي اندلاع النار وأقسم انه سوف يتخلص منك ، مهما كلفه الامر · ثم انهال علي بالضرب ، وكنت قد توقعت ذلك ، فلم أتزحزح من مكاني · ولكنني كنت قد أخذت هذا المسدس دون علم منه وخبأته في غرفة نومي ·

ثم استمرت تقول :

ــ ان المجتمع اذا أصابه النتن ، بما فيه من تعصب ورذيلة ، لجأ الى الظلم لكي يستر رائحته الكريهة · والرذيلة الكبرى هي الرياء · أنا لست بأشرف من

أختك ، وليس أبي بأشرف من أبيك · ولكننا انما نشتهي الكواكب النائية ، النائية عن كل ما تعست به الارض ···

كان المسدس في يدها وهي تتكلم ، واذا بالدموع تجري على خديها وتبلل وجهها وهي صامتة البكاء · وقالت : سيأتي أبي ظهراً · ويجب ألا يراك · ولعله يعلم انك تزهق روحي على مهل · نعم ، تزهقها على مهل · كل ليلة أرى أناسا يحيطون بي ، وكلهم أنت · كلهم لهم عيناك وشفتاك وجسمك · أينما تلفت رأيت واحداً منهم يتأهب للانقضاض علي ليحطمني بين ذراعيه ، ثم يطبقون علي جميعهم دفعة واحدة · واذا هم أنت ، بيديك المغريتين ، وهمسك المسموم يسري في دمي ، فأموت ببطء ولا أموت ، وأتقلب في فراشي لعلني أنجو من الموت فلا يدنو مني الا وجه أبي الرهيب ينفث في وجهي لهيباً آكلا ، ثم يتلوه وجهك ضاحكا لينفث في وجهي همسك المسموم مرة أخرى · ثم ··· ثـم قصت علي حلماً آخر ، يا سيدي لن يهمك أمره ·

وسكتتْ ، اذ تذكرتُ الورقة المطوية التي أخرجتها

عائدة من جيبها بيد ، والمسدس ما زال باليد الاخرى ، فصحت بها :

ــ عائدة ! ضعي المسدس جانباً !

ولكنها فتحت الورقة وقرأت بصوت عميق أجش :

تفجرت صخرة هذا الجسد
عن ينابيع الحقد والشهوة
ومست يداي المعجزة ·
أهنا بين الكلاب السائمة
عائشة في قفص من اسمنت
في طريق الحفاة المقرفصين
بوجوه من عظام ــ
وحول المائدة مع أبي سبع جثث
ترسل الضحكات والشتائم كل ليلة ،
كما ترسل البواليع أنفاسها ــ
أهنا ، حيث تُعقد الشمس بين عينيّ
كالدملة ؟ ــ

فصرخت بها موقفا ذلك التيار الأسود العاتي : عائدة، عائدة ، كفى ! لن أتحمل أكثر من ذلك · كفى

كفى !· واختطفت الورقة من يدها ووضعتها في جيبي ·

كان المحقق والشاب الآخر ينظران الي كأنهما ينتظران انصرافي عما يدور في نفسي ثم قال المحقق: « وبعد ذلك ؟ »

فقلت : « وبعد ذلك ، قدمت الي المسدس وقالت : ان كنت حقاً تحبني أطلق النار علي ! »

فتناولت المسدس منها ووقفت ازاءها وقد ضمت يديها متضرعة وهي تقول :

ـ أطلق النار علي ، أطلق النار ، أرجوك !

لم أكن أطيق أكثر من ذلك · فأطلقت النار ··· وخرجت ·

★

يظهر أن مأمور التحقيق لم يكن ينتظر تلك النهاية المفاجئة فاتسعت عيناه الكبيرتان عجباً ، وقال وهو يهز برأسه :

ـ غريب ، غريب · كلامك غير معقول ، غير معقول أبـداً ·

قلت : « هذه هي الحقيقة • »

فالتفت الى الجالس على يمينه وقال •

ــ أظن أن الولد فيه شيء من الخبال •

ثم الي : « متى قلت انك قتلتها ؟ »

ــ أمس ، قبيل الظهر •

ــ أمس ؟ ما هذا التلفيق ؟ لقد وجدت مقتولة مساء أمس الاول • مساء يوم الاثنين •

قلت : « تماما • أي أمس • »

ــ انك تهذي يا ولد ، أو انك تكذب • اليوم الاربعاء لا الثلاثاء • وقد وجدت عائدة مقتولة مساء يوم الاثنين •

فانعقد لساني دهشة ، وعاودني الشعور بالاعياء الكلي الذي كنت قد نسيته ، واصطكت ركبتاي ، وكدت أسقط على الارض • فقال :

ــ خذوه الى الموقف • سأراه غداً ثانية •

ولما خرجت بقيادة الشرطيين سألتهما :

ـ أحقاً اليوم الاربعاء ؟ اذن ـ اذن ـ ما الذي فعلته أمس ؟ أين كنت أمس ؟

★

ـ اعترفت أمس بأنك قتلت عائدة الجبلي . تمام؟
قال المحقق ذلك وفي لهجته ما ينم عن عدم اقتناعه بما أدليت به .

فقلت : « تمام . »

ـ ما الذي فعلته بعد أن أطلقت النار عليها وخرجت؟

ـ آ ... آ ...

رباه ! فراغ مريع في ذاكرتي .

ـ ما الذي فعلته ؟ تكلم .

ـ آ ... لا أستطيع أن أتذكر بالضبط . أعتقد انني ذهبت وشربت ... لا ، كان الوقت ظهراً . ذهبت .. .

فمد المحقق رأسه فوق منضدته بحيث رأيت عينيه كحلقتين كبيرتين من سواد قذر تكادان تمسان عيني ،

ثم قال ، كأنــه ينبش خفايا ذاكرتي : « حسين العاني ؟ »

ــ صديقي ٠

ــ هل رأيته بعد الـ ٠٠ جريمة ؟

ــ نعم ، نعم ٠

ــ أين ؟

ــ في مطبعة « صوت الزمان » ٠

ــ و بعد ذلك ؟

ــ آ ٠٠٠ لا أذكر بالضبط ٠٠٠

ــ دقيقة !

وضغط على زر الجرس الذي في منضدته ٠ وجاءه شرطي فقال له ، وهو يتفحصني بعينيه الكرويتين: « شلوب حسين » ٠ فرآني أجفل لسماع الاسم ومط شفته السفلى ثم أعادها الى مكانها ٠

و بعد لحظة أدخل الشرطي رجلا ما كدت أراه ،حتى شعرت برغبة جامحة في الانقضاض على عنقه ٠

شلوب ، سائق سالم الجبلي ، صنيعته وآلته الطيعة .
ونبض مؤخر رأسي بالالم نبضاً عنيفاً .

واستمر التحقيق .

★

لقد استمر التحقيق عدة أيام واتضح لي كل شي ،
الا أمراً واحداً جوبهت به ورفضت تصديقه متكرراً :
وهو انني لم أقتل عائدة .

من قتلها اذن ؟

قالوا انها انتحرت ، ووجدوا أدلة على ذلك .

فصحت : « كذب ! بهتان ! أنا الذي قتلتها ! أنا ،
أنا ! »

غير أن حسين وأخي شفيق دفعاني الى الخارج دفعاً،
وقد أفرج عني ، كما أفرج عن حسين .

وراح حسين يصب منطقه على رأسي ، مرتبا الحوادث
التي جرت بعد أن خرجت من دار عائدة ظهر يوم
الاثنين ـ الحوادث التي نسيتها ، أو رفضت أن
أتذكرها .

وقال : « انك تدعي قتل عائدة ارضاء لكبريائك !»

ولكنني بعد أن كنت فريسة الاستجواب من هـذا وذاك أياماً متوالية ، وأنا أصارع ذاكرتي ، وأنقب جرحي ، لم أستطع الكلام كثيراً • بل جعل كل شيء يبدو لي غريباً كأنني أرى وجوه الناس لاول مرة ، وأسمع أصواتهم فلا أدرك ما تنطوي عليها مـن معاني •

قال حسين : « ألا تذكر كيف تغدينا معا في (مطعم الشمس) ؟ وكنت تقول انك تريد الاتصال بعائدة تلفونيا ، ولكن تخشى أن يكون أبوها في البيت ؟ ثم تشجعت وخابرت عائدة • وقد رأيتك والسماعة الى أذنك ، وهمسك يفضح فحواه وجهك المضطرب• فسألتك بعد ذلك عن اضطرابك ، فقلت ان عائدة تقول ان أباهـا وسائقه شاهداك من بعيد وأنت خارج ••• أتذكر ؟ وبعد حوالي الساعتين ذهبنا الى (ليالي الفرح) وطلبنا ربعين من العرق • واذا بشلوب يدخل علينا ، فقلت لي : دعني أعالجته وحدي • وأمسكت بذراعه وخرجتما الى الحديقة المطلة على الطريق • وقد ظننت أن بينكما حديثاً

بخصوص عائدة فقد ركبت السيارة الى جانبه ٠٠٠ ولم أرك بعد ذلك ٠ واذا بالشرطة بعد يومين تلقي القبض علي ٠ »

ما كدت أركب السيارة حتى جعل شلوب وهو يسوق بسرعة يهددني بالقتل ٠ فلكمته على وجهه لكمة أخلت بقيادة السيارة ٠ فأوقفها ٠ فهويت بقبضتي على وجهه مرة أخرى ، وهممت بالخروج من السيارة لكي أجره منها الى قارعة الطريق ٠ ولكنني ما كدت أضع قدمي خارج السيارة ، حتى باغتني من الخلف بضربة على رأسي بشيء ثقيل كان معه ، وفقدت الصواب ٠

لعله كان يبغي قتلي ، أو لعله ظن أنني مت ٠ وقد اعترف بأنه أخذني بالسيارة وألقى بي على ضفة النهر ٠ ولو ارتفعت المياه قليلا لغمرتني وحملتني حيث شاءت ٠ وبقيت ملقى هناك أكثر من يوم كامل ٠ « أتريد مساعدة يا ولد ؟ » لعل ذلك العجوز ، ذا القدمين الحطبيتين ، كان قد أنقذ حياتي دون علم مني ٠

وليكن ذلك ! وليكن استدلالهم واستنتاجهم كله

صحيحا ! ماالذي يغير ذلك من الحقيقة الواحدةالتي أعرضوا عنها ورفضوا الاخذ بها ؟ ما الفرق بين أن أكون أنا الذي ضغطت على زناد المسدس وبين أن تكون عائدة هي التي ضغطت عليه ، أو أي شخص آخر مادمت أنا السبب ، وأنا الاصل ، وأنا الدافع؟

لقد أمسكت بيد عائدة واقتدتها الى المياه العميقة ، وهناك أغرقتها وأنا أنظر اليها • وقد كنت مهيأ للغرق أنا أيضا ، غير أن المياه لفظتني ، وتركتني وحدي على أوحال الضفة النتنة ، أصغي الى ضجيج الناس ولا أستطيع حتى البكاء •

السيول والعنقاء

قصة في ثلاثة مقاطع

الآلهة الصغيرة

اضطجعت في القارب الطويل بعد أن ربطته بالحبل الى شجرة الصفصاف ، وجلست شيلا بجانبي والكتاب بين يديها ٠

قالت : « لقد تعبت ، ولك الحق في شيء من الراحة ٠ وسأقرأ لك قصيدة وأنت نائم ٠ »

قلت : « ألا تعرفين أن جمالك يقلقني ؟ ولصوتك من العذوبة ما لعينيك من فتنة ٠ فاذا سمعت صوتك أقلقتني عذوبته ٠ »

ـ اذن أتؤثر أن أبقى صامتة ؟

ـ شيلا عزيزتي • اقرأي لي واقلقيني بجمالك • انه لقلق لذيذ •

فقالت مستضحكة : « لماذا أوقعني ربي في حب شاعر مثلك ؟ ولكنك عاق • لم تقبلني اليوم سوى مرة واحدة • وكانت تلك قبلة أشبه بأداء الواجب منها بشرارة من قلب مشتعل • »

فأغلقت عيني وقلت بهدوء : « حالما نعود سأخنقك بالقبل • »

ـ أوعد ذاك أم وعيد ؟ ولكن اسمع •

وراحت تقرأ القصيدة • فتمثلت حدائق فيحاء ، تجري الجداول من ثناياها ، وشيلا تلاعب ظبية وتراكضها بين الشجر ، ثم يمتليء الجو بضوضاء فرسان يقتحمون سكون الحدائق ويقتلون الظبية ، ويحملون شيلا بأيد شرسة ، وتنطلق بهم الخيل نحو أفق بعيد الى أن يتلاشوا في غبار كثيف • غير أن صوت فتاتي متزن • وها هي جالسة بقربي تقرأ الشعر • واني ، وان أكن مغمض العين ، لا عرف

كيف تتحرك شفتاها ، وتظهر أسنانها بين اللحظة واللحظة ، تارة تقطب حاجبيها وتارة ترفعهما ، وهذا دأبها حتى عندما تتكلم : انها لا تتكلم الا من قرارة قلبها • انها لا تتكلم الا من قرارة قلبها • انها تقلب الورقة الآن ، وما أجمل يدها الصغيرة ! لشد ما كانت دهشتي عندما رأيت يديها يوم تقابلنا لاول مرة • فقد كانتا صغيرتين في تناسق دقيق ، وهل أنسى كيف أمسكت بيدها فوق الصحون ـ ونحن جالسان الى مائدة العشاء في المطعم الصغير ـ ولثمتها ، واذا هي تحمر حتى أذنيها حياء وتنظر حولها خشية الرقباء ! وقد كانت تلك اللثمة ختما على اقراري الصريح بحبي لها وما كان قد مضى على حديثي معها لاول مرة سوى ساعتين أو ثلاث • وقد علمت الآن ، وأنا متمدد في القارب وصوتها يملأ حواسي بجمالها ، صدق الشاعر حين قال : « أو هل رأيت عاشقا لم يكن حبه من أول نظرة ؟ »

ـ جميل ! أنائم أنت ؟ اذن ضاعت عليك قراءتي !

ـ لا يا عزيزتي • كيف أنام وكلي يقظان ؟

ـ انني سأغضب اذا نمت • ألا يكفيك انك لم

تقبلني الا مرة واحدة طيلة النهار ؟ ولكن لا بأس. نم يا عزيزي ، لانك في الحقيقة تروق لي عندما تنام . كم الساعة ؟

ـ لست أعرف كم الساعة ، ولا أريد أن أعرف . فقد تركت ساعتي في غرفة النوم ، ولن أحملها مادمت معي . أليس من السخف أن يضع المحبون للزمن مقاييس وحدوداً ؟ دعنا نعش أحراراً من عبودية الزمن وابنته الساعة البغيضة .

فضحكت شيلا وقالت : « أنت رائع في نومك ، ورائع في غضبك . اني أحسد نفسي عليك ! وأخذت يدي بيدها وضغطت عليها . »

ـ يداك الناعمتان تذكرانني بالياسمين .

ـ الياسمين زهرة شرقية . أليس كذلك ؟

ـ اصغي الى شعري المنثور يا شيلا ، ولا تقاطعيني بالاسئلة . والآن ـ لقد أضعت علي فكرة جميلة .

قلت ذاك واستويت قاعداً وحدقت في عينيها . فالتمعت فيهما النيران ، وقلت لنفسي «ما أجمل هذه الفتاة!» وقلت لها : « كيف أصف لك جمالك ؟ »

قالت : « صفه شعراً و نثراً • صفه بالصور والموسيقى. صفه بالرقص والتمثيل • وسأجعل عرائس الفن كلهن يوحينك ــ اذا كنت حقا تحبني • »

قلت : « اذن سأستوحي احداهن هذا المساء ، فأعبر لك عن جمالك بالرقص • أنذهب الى الرقص بعد العشاء ؟ »

ــ نعم لنذهب • سأحل القارب من عقاله الآن ، ونعود الى البلد •

وقفزت الى الضفة وحللت السلسلة ، ثم قفزت الى القارب مرة أخرى ، وقمت الى عصا القارب الطويلة والقيت بطرفها الىقاع النهر ، وحولت اتجاه القارب عودة ، فاندفع طائعاً والامواج الصغيرة تتضارب رقراقة على جوانبه • وهب الهواء لطيفاً ، فكان يلاعب فستان شيلا ، وينزل بخصلات شعرها فوق عينيها ، فتهز رأسها وتعيد شعرها الى مكانه ، وقد استقرت أطرافه على كتفيها • غــير أنني تذكرت الحدائق الفيحاء والظبية تراكض شيلا ، واذا بصورة الفرسان تعود فيقتلون الظبية ويختطفون الفتاة ، فأراها وقد تدلى رأسها وهي ملقاة على الحصان ،

وشعرها يطير في الهواء كخيوط من الذهب ، ولكن الغبار يرتفع ويلتهم في أحشائه خيالاتي المزعجة •
واذا بشيلا تقول : « جميل ! »

ـ نعم ؟

ـ بماذا تفكر ؟

ـ لم أكن أفكر بشيء •

ـ لقد كانت في عينيك نظرة بعيدة ـ نظرة بعيدة غريبة •

فكذبت قائلا : « كنت أفكر في العشاء الفاخر الذي سنتناوله في المطعم • »

فقالت : « لا أصدقك ، ولكن لا بأس • ألا تظن انه يحسن بنا أن نقتر على نفسينا قليلا ، فلا نذهب الى المطعم هذا المساء ؟ »

واذ رحت أدفع القارب بعصاي ـ ونهر الكام مزدحم بالقوارب ـ جعلنا نتداول في أمر التوفير الذي لابد منه • فقد كنا اذا جمعنا ما معها وما معي من مال لا نحسد على ثروتنا ، ونحن نريد كل أنواع المتعة في فرصتنا القصيرة معاً • فكنا نقول : سنضحي

بالضروريات في سبيل الكماليات ! وكيف نرضى بالحياة اذا لم نخرج بين الفينة والفينة الى النهر ونأخذ قارباً نبتعد فيه عن المدينة ، ولم نذهب الى المقاهي بعد الظهر لشرب الشاي بين فتية المدينة وفتياتها ، ولم نسع الى الرقص كل يوم أو يومين ونحن نعشق الرقص ، ولم نذهب مرة على الاقل في الاسبوع الى المسرح ومرة الى حفلة موسيقية ؟ اذن فالبرنامج حافل ، ولا بد من التقتير شيئاً لكي نستطيع تنفيذه بأجمعه ·

وانى لي أن أصف النشوة التي كنا ننضح بها ونحن مندفعان ، وذراعها بذراعي ، في الطرقات نحو أهدافنا ؟ وذلك الكلام الكثير والتحليل الدقيق والنقد المتواصل لكل شيء رأيناه وعملناه ؟ وفوق هذا وذاك ، كم كنا نتيه زهواً اذ نعرف أن العيون ترقبنا أينما ذهبنا ، والرؤوس تلتوي في اتجاهنا أينما حللنا فقد كان لشيلا جمال العذراء في صور الرسامين الايطاليين ، وشعرها السابل مفروق في الوسط ويحيط بعنقها كاطار ذهبي ، فيبرز جمال عنقها الطويل ، وتنحدر كتفاها باستدارة لطيفة نحو

ذراعيها فيلذ للعين ألا تصدم ، بل تنحدر منها النظرة بلطف نحو نهديها الصغيرين ثم سفلا نحو خصر دقيق تحيطه في أكثر الاحيان بزنار عريض • كان جمال شيلا بارزاً في أنوثتها الوادعة ـ ولم تحاول يوماً أن تزعج بشرتها بالمساحيق ـ ولكنها كانت أنوثة المرأة الذكيةالواثقة من نفسها ، ولعلها تثور حين تريد ، فتكاد تصبح أنوثتها بركانية • ومشيتها المندفعة ، بساقيها الطويلتين المنسجمتين ، دليل على ذلك •

وكما كانت شيلا تلفت أنظار المارة بحسنها ، فقد لفتت نظري يوم رأيتها لاول مرة قبل ذلك بثلاث سنوات ، عندما ذهبت كطالب الى جامعة صغيرة في مدينة « ك » في الجنوب ، لكي أهذب لغتي الانكليزية قبل أن أدخل كمبرج كطالب حقوق • وكانت هي أيضاً طالبة حديثة العهد مثلي بالجامعة • رأيتها واقفة في الداخل قرب نافذة موصدة الزجاج وأنا في الخارج ، فاقتربت من النافذة وهي قد أرسلت نظرها نحو الافقكأنها تفكر في شيء تكتبه لانالقلم والورق كانا بين يديها ، فشعرت كأنني جفلت من

جمال عينيها . ولما مررت بالنافذة وكان ظهري مداراً اليها تساءلت في نفسي : ترى هل لاحظتني ؟ وخشيت فجأة أن تكون لاحظتني فلم ترق لها ثيابي ، اذ كنت ما زلت ألبس ثياباً قديمة الطرز خطتها في بلدي . غير أنها أخبرتني ، عندما تعرفت بها بعد ذلك بأيام ، انها لم ترني يومئذ ، وانها كانت قد رأتني مرة في احدى حفلات الطلبة وهي جالسة خلفي ، فدهشت لشعري الطويل وقد كاد يتلوى خصلا وراء رأسي ، فقالت لجليسها : أود لو أستطيع أن أغمس يدي في هذا الشعر الاسود الغزير !

وكم كان يروق لها أن تفعل ذلك فيما بعد ، وكأن في أصابعها تيارات دقيقة . وها هي الآن جالسة في القارب تضحك مني ، لان الهواء يعبث بشعري ولا أستطيع أن أعيده الى وضعه لان يدي مشغولتان بدفع القارب . وهاهي تقول : « اياك أن تمشط شعرك مادمت معك ! لن يصفف شعرك الا أصابعي »، ثم يعبث الهواء بشعرها الطويل فترفعه بيدها ، وقد رسمت السعادة في عينيها وشفتيها ، كأنها لم تعرف يوماً ألماً ، ولم تقر يوما بوجوده .

غير أنني كنت أعرف أن فرحا مثل ذاك لم يكن الا عصارة آلام كثيرة عانيناها سنوات ثلاثا . ولكن شيلا اليوم مرحة ضاحكة . والقارب ينساب يحمل حلمنا الجميل ، وفي يد شيلا كتاب الشعر ، وثوبها يرفرف حول ساقيها وينحسر أحيانا عن ركبتيها البيضاوين . فأضحك قائلا : « لن تقلع الالهة الصغيرة عن مداعبتك . »

فتقول : « انها تشاركنا الحب كما فعلت بنا الليلة الماضية . »

وتوقفت مستذكرة ثم أضافت : « لقد كانت ليلة غريبة يا جميل ! »

ليلة غريبة !

كنا خرجنا في المساء للمشي في جو رائق ، واذا العناصر تباغتنا . فجعل الهواء يهب في شيء من الشدة ، ثم انقلب الى ريح تمر بين الشجر على جانبي الطريق وتزأر في وجوهنا . وبعد قليل جاءنا المطر رذاذاً ، ثم راح ينهمر بشدة ، فلجأنا الى الاغصان تحتمي بها من البلل . وقالت شيلا :

ـ هذه الريح أنفاس آلهة صغيرة ماجنة · اني أخالها تداعبنا !

فقلت : « انها تشاركنا الحب · فهي تلتف حول كل قبلة تعطينني اياها · »

ـ لقد سكرت الآلهة الصغيرة من قبلاتنا · اصغ الى الرياح !

ـ ان فيها صقيع الأسى والألم ·

ـ لا تذكر الألم ! هذا لهاث الرقص بين شفاه الآلهة !

ـ ومن ادراك أن الآلهة الصغيرة لا تئن وهي ترفرف حول قبلاتنا ؟

ـ جميل ، قبلني قبلني ، ولا تذكر الا الحب · الرياح عاشقة · الامطار ولهى تراقص الارض · التراب كله نشوة · الاشجار تتثنى شهوة · وأنا كلي حب من الرأس حتى القدم · انظر ! ما هذه الطبيعة في الحقيقة الا أنا وأنت · · ·

ـ أجل يا شيلا · أنا وأنت نملأ الدنيا · أنت الريح وأنا الشجر ، أنت الثرى وأنا المطر · ولكن في صدري

أسى يا شيلا • ما ألذ شفتيك وما أرق ملمس وجهك المبلل ، وما أجمل شعرك تائها فوق عينيك • • • ولكن هذا الالم البغيض لن يزول •

ـ انك تغالط نفسك • ألمك رعشة الحب • اصغ الى هذه الشجرة والهواء يمرق من أحشائها • ماذا تقول ؟

ـ يا ويلتاه • • •

ـ كذب ! انها تقول : ما • • احـ • • لى الـ • • • حيا • • ة • • لقد انطلق شـعرك كشعر الملائكة الطائرة ! وشفتاك جمرتان •

ـ لتحترق منهما شفتاك • •

ـ يا حبذا الحريق !

ـ لنمش بسرعة • كان المطر يغرقنا •

ـ يا حبذا الغرق !

ـ شيلا !

ـ قبلني ولا تتكلم • قبلني ولنصغ سويا الى ثورة العناصر • جميل ، ان تتركني يوما ، أمت • ولست

أريد الموت ، بل الحياة • أريد الحياة ، برياحها وأمطارها ، وشمسها وحرها • أريد الحياة وأنت ، أنت معي • أن تتركني يوما أنت •

★

وانساب القارب على المياه الخضراء الرجراجة ، تحت فروع الصفصاف المتدلية ، وقلت :

ـ أجل ، كانت ليلة غريبة ، كأنني نجوت فيها من خطر مخيف • لقد عدت الى نفسك الحقيقة حينئذ، بعد أن رأيت فيك تغييراً خشيت عليك منه •

ـ لقد كنت شقيت جداً وأنت لا تدري • مسكين نورمن • أتظنه سيأتي اليوم الى كمبرج كما وعد ؟

فألقيت بعصا القارب نحو قعر النهر بعنف وقلت : « سيأتي ليرى هزيمته بعينيه » •

وهل من هزيمة أنكر لشاب في العشرين من عمره من هزيمة في الحب ؟

وذلك أن شيلا ، عندما تركتها في جامعة الجنوب ، كانت كالعادة محط أنظار كثير من الطلاب • وكان

من بينهم اثنان أو ثلاثة عرضوا عليها الزواج ، ولكنها رفضت • غير أن نورمن حظي بصداقتها ، وجعلا يخرجان معا للمقاهي والنزهة في الغابة المجاورة ـ حيث كنا أنا وشيلا نقضي ساعات طويلة كل يوم ـ وقد أخبرتني عن نورمن في رسائلها ، ولكنني لم أخش شيئاً في أول الامر • واذا بالصداقة بينهما تتطور في بحر أشهر قليلة ، وما كان علي الا أن أسرع الى مدينة «ك» حالما فرغت من امتحاني في كمبرج ، لأرى أن نورمن ينوي الزواج من شيلا، وأنه سيأخذها لقضاء الصيف عند أهله •

ولم يكن نورمن غريباً عني • فقد كنت تعرفت به قبل ذلك في عطلة عيد الميلاد • وأذكر كيف أننا مرة خضنا في قضية فلسفية ، فاستعرضت رأي أفلاطون فيها ، واذا هو ينظر الي مشدوها ثم يقول لي أمام شيلا : « لا بد لي أن أعترف باعجابي باطلاعك الواسع ! » وقد خجلت حينئذ من ذلك الاطراء ، لان اطلاعي لم يكن واسعاً كما تصور ، ولان المسألة كانت نسبية على الارجح • غير أنني عندما قابلته هذه المرة ، تذكرت اعجابه القديم ، فشعرت بالكثير

من الثقة ، ولم أشك في أنني سأهزمه في معركتنا من أجل شيلا ٠

ولكن عندما جعلنا ثلاثتنا نخرج معا ، هالني أن أكتشف أن شيلا تحب نورمن ، وانها تفكر في الزواج منه تفكيراً يقلق نومها ٠ وهي تقول أن نورمن سينضم الى الجيش في بحر شهرين أو ثلاثة ، ومن عادة الجنود أن يتزوجوا قبل دخولهم المعارك ، وانها « تعطف عليه » ٠٠٠ تعطف عليه ؟ ٠٠ وللحال أدركت أن نورمن أثر في نفسها لا بمقدرته وانما بضعفه ! لقد كان شابا جميل الوجه ، ولكن أقصر منها بقليل ٠ وبقدر ما كنا أنا وشيلا مغرمين بمسائل الفكر ، كان هو منصرفا الى الالعاب الرياضية ٠ فكانت شيلا تقول : « انك تخيف هذا الولد بمجادلاتك المنطقية ٠ ولكن نازله في ساحة كرة القدم ٠٠ »

وبقيت في حيرة من أمرها ، ولعلها كانت أكثر حيرة مني ، ونورمن يلح على أخذها معه عند أهلـه ، ويخشى ان أنا أبعدتها عنه أسبوعاً واحداً أن يفقدها الى الابد ٠ وكنا اذا تقابلنا ـ أنا ونورمن ـ يعامل الواحد الآخر بكل احترام ، كما يفعل « الجنتلمان » ٠

والغريب انني لم أحمل له أية ضغينة ، ولا أظنه كان يكرهني ، بل اننا اذا كنا وحدنا بدون شيلا نتصرف بمودة عجيبة • وحدث أن جلسنا نشرب في ظهر أحد الايام ، ونحن في انتظار نفس المرأة • فجعل كلانا يفصح عن خفايا عواطفه ولواعجه وقد انطلق لسانه بفعل الخمر ، حتى شفقت عليه وشفق علي • وقلت : « اسمع يا نورمن ، سنترك الامر لشيلا ، وعليها أن تقرر في الحال ، اما أنا أو أنت »•

ولما قدمت خرجنا نتمشى ، وهي في الوسط • وبعد قليل سألتها : « هل قررت على شيء ؟ »

ـ على ماذا ؟

ـ أنا أم نورمن ؟

فالتفتت الي ونظرت في عيني نظرة طويلة ملؤها الالم • ثم أدارت وجهها نحو نورمن وأطالت النظر في عينيه أيضا • ثم قالت في شبه حشرجة : « لست أدري • »

فقال نورمن : « يجب أن تبتي في الامر • »

قالت : « لا أستطيع • » قلت « يجب • »

فمدت يديهـا الى أطراف شعرها الجميل وجعلت تسحب به رأسـها بعنف يمينا وشمالا وتصيح : « لا أدري • لا أدري • لا أدري • » واتكأت على جدار قريب وراحت تبكي •

فوقفنا هناك ينظر بعضنا الى بعض كالبلهاء ، ثم قلت :

ـ اسمعي يا عزيزتي • سأتركك الآن مع نورمن لتتباحثا في الامر على حدة • ولكما أن تذهبا أينما تريدان • وفي الساعة السادسة تعودين ونخرج أنا وأنت لنتباحث في الامر على حدة أيضا • وغـدا تقررين • اما أن أعود الى كمبرج وحدي أو معك •

فهتف نورمن : « فكرة رائعة ! »

وتركتهما • وكانت الساعة حوالي الثانيـة بعد الظهر •

وبعد نصف قرن من الانتظار الاليم كانت الساعة السادسة • والتقيت بشيلا • واذا عيناها وارمتان من أثر البكاء •

وقالت : خرجنا على الدراجات في اتجاه البحر ، ولم

ينقطع نورمن عن الكلام لحظة واحـدة ، يحثني ويوبخني ويحذرني ويغريني ويحاضرني ، حتى انفجرت ببكاء انقلب الى ضحك هستيري مني لفت أنظار العابرين ٠٠ ثم ركبت دراجتي وعدت وحدي ـ اليك ٠ أتظنني أحبه يا جميل ؟

فأجبت بدون تردد : « طبعا لا ٠ ولكنني لن أفعل ثانية ما فعله نورمن ٠ لنذهب الى الغابة ، ولن نتطرق الى بحث هذه المسألة أبدا ٠ بل نتكلم عن كل ما ليس له بنا علاقة ٠ »

ـ يا ليت ! سنتكلم عن الاشـجار ٠ أرأيت بعض الزهور المتأخرة التي في أعلى التل ؟

ـ أين ؟

ـ قرب تلك الصنوبرة الضخمة ذات الجذع المشقوق ٠

ـ حيث قبعنا مرة ساعتين نرقب القمر وهو يصعد؟

ـ تماما !

ـ لنذهب اذن ٠ ولكن الزهور لن ترى في الظلام ٠

ـ سنتحسسها بأيدينا ٠٠٠٠

فأخذت ذراعها بيدي وقلت : « لن نعود حتى أملأ شعرك بالزهور . »

وكانت النتيجة أن اصطحبتني شيلا في الصباح التالي الى لندن ومنها الى كمبرج . وكان ذلك آخر مارأت من نورمن . غير انها بعد أسبوعين أو ثلاثة جاءتها رسالة بعنواني يقول فيها انه سيأتي الى كمبرج ليقنعها بوجوب عودتها اليــه . وعين مساء اليوم الذي سيجيء فيه .

وخرجنا ذلك اليوم الى النهر .

★

جعلت أدفع بالقارب ، وأنا واقف في مؤخرته وشيلا مضطجعة في مقدمته ، وكأنني أحمل غنيمتي الى حيث الامن والطمأنينة . ولسوف نجلس في غرفتي محاطين بالكتب ونقبل على خوض المسائل الفكرية، التي قد لا نحلها نهائيا الا بعد أن نخرج ثانية الى الشوارع المظلمة المهددة بالغارات الجوية ، أو في مقهى « دوروثي » حيث تتراجع المسائل جميعها ازاء دوران الراقصين وزمجرات الموسيقى .

ـ أتظن أن نورمن سيأتي كما قال ؟

ـ سيأتي ليرى هزيمته بعينيه ٠

وتهب نفحة بليلة من الهواء ، وتقلب شيلا صفحات كتاب الشعر وتقول : «اسمع ما أجمل هذه الابيات ٠»

واذ تبدأ بتلاوة الشعر ، أراها مرة أخرى يحملها الفرسان الغزاة على فرس جامحة ، وتتطاير خصلات شعرها في مهب الريح ، وأرى نفسي أركض وراءهم من بين الشجر ، وأتعثر على الاغصان الساقطة ٠

ولكن القارب ينساب ، والماء الرجراج يضرب جوانبه ، ولن تستطيع يد أن تعكر مثل هذا الصفاء الجميل ٠ فقلت :

ـ لماذا نخشى على الاشياء الجميلة ، نخاف عليها حتى من ظلنا ؟

ـ ماذا تعني ؟ أقصيدة أخرى ؟

ـ لا ، ولكن الجمال ٠٠ ما أسهل ما يتحطم بين أيدينا ٠

والقيت عصا القارب بعنف الى قعر النهر ٠

ولما عدنا الى البيت الذي كنت أسكنه وجدنا برقية باسم شيلا. ففضت غلافها بلهفة وقرأت بصوت عال:

« قررت ألا أجيء . أرجو لكما السعادة. نورمن . »

ثم ناولتني البرقية. غير أنني لم أقرأها ، بل كورتها في قبضتي وقلت : « مسكين نورمن . »

أما شيلا فلم تقل شيئاً ، اذ لفت ذراعها حول عنقي ، وعلى شفتيها ابتسامة ، وفي عينيها دمعتان براقتان.

نيران

لعل أحد الاسباب التي كانت تزيد من حبي «لشيلا»، أيام كنا في كمبرج ، هو انها كانت في الرقص أمهر فتاة عرفتها في حياتي. فقد كانت فيها خفة وانطلاق اذا ما راقصتها كخفة الريح وانطلاقها. وكنا في أيام غرامنا الاولى قد أكثرنا من الرقص الى حد الاسراف، ولكنه اسراف لا ينتهي الا الى اللذة ، كالاسراف في العلم : وذلك اننا كنا نبتدع الخطوات ونضبط دقائقها ، وقد أدركنا أن حركات الاعضاء انما هي

لغة أخرى نعبر فيها عن خلجات النفس • وكان هذا أبدا دأبنا : نحن لن يكفينا الشعر وصفا لهوانا ، ولا النثر الذي ملكنا ناصيته في رسائلنا الكثيرة ، لا ولا الموسيقى التي كنا نصغي اليها بكثرة ! لا بد من الرقص أيضا وصفا جديداً ، وصفا ينطلق الجسمان به في جو مملوء بالاحاسيس والنشوات ، كأنه جو صوفي يشعر المرء فيه بالاتصال بالقوى السماوية •• فاذا ما اشتدت الموسيقى في صدحها وتفننت في ايقاعها ، جعلنا ــ ونحن بين مئات الراقصين ــ ندور وندور كأننا زوبعة دوامة لن يوقفها شيء عن دورانها ، ثم نبطىء بالدوران ، ونجدنا رويداً رويداً قد انطلقت أرجلنا في خطوات متسعة ترسم بظلالها على أرض القاعة زخارف عجيبة •

قالت شيلا ، وبعض شعرها الطويل فوق عينيها : « لن يصدنا شيء عن الرقص معا ــ أليس كذلك ؟ »

قلت : « بلى يا عزيزتي ! »

ــ لا الاقارب ولا غير الاقارب ؟

ــ بلى ! بلى !

وومضت عيناها ذلك الوميض الذي ينم عن تصميمها الذي لا يتزعزع ، وقالت : « ولن تعير تلك الشقراء أي اهتمام ؟ »

فقلت متجاهلا : « أي شقراء يا عزيزتي ؟ »

ـ تلك الشقراء التي هي الآن ورائي ، ذات الاظافر الحمراء ٠

وكانت تلك الفتاة في الواقع تعرفني معرفة قليلة ، فهي تعمل في احدى المكاتب الكبيرة حيث كنت أبتاع أكثر كتبي ٠ قلت : « لا أنكر يا شيلا انها تزجي الي نظرات غريبة ٠ »

ـ نظرات غريبة ! من امرأة ؟ ليست تلك الا نظرات الشهوة ٠٠ نحن النساء نفهم مثل هـذه النظرات أكثر منكم معشر الرجال ٠

قلت ضاحكاً : « اذن فلتذهب الى الجحيم ! »

ـ وبئس المصير ! ولن تنظر اليها ثانية : ولا الى أي امرأة أخرى ! أنت لي ٠ فاهم ؟

ـ يا للأنانية !

ــ في كل شيء أؤثر الناس جميعهم على نفسي الا ـ فيك! فأنا فيك أشد الناس أنانية . جميل !

ــ أجل يا شيلا !

ــ أتظن أن أحداً عشق مثلنا ؟

ــ لا ، لست أظن أحداً يستطيع مثل كل هذا العشق. أتعرفين خبر « ابيلارد وهلويز » ؟

ــ نعم ، نعم . فقد اعتدى عــم هلويز على خليلها ابيلارد بصحبة أحد المجرمين ، وقضى على رجولته.

ــ ولكن هلويز لم تزدد الا تعلقا به .

ــ ولبست مسوح الراهبات حزنا عليه ، وكتبت اليه أجمل الرسائل الغرامية في الدنيا .. ولما مات بقيت وفية له أكثر من ثلاثين سنة .. ثلاثين سنة يا جميل! ولما ماتت هي أيضاً ...

ــ دفنوها في قبره . أتظنين سنخلص في حبنا مثلهما؟

ولم تتردد شيلا في جوابها الحازم : « بل وأكثر ، أكثر ! »

فضحكت وقلت : « أرجو أن يكون نصيبنا خيراً من نصيبهما . »

واسترسلنا في الرقص الصاخب ، واستشهدت شيلا بقول سليمان : « الحب قوي كالموت قوي كالموت • المياه الدافقة لا تطفىء الحب ، ولا تستطيع السيول أن تغرقه » ••

وذهبنا الى الغرفة المحاذية لقاعة الرقص حيث المرطبات ، واذا صديقي الهندي ، الكومار كمل سنغ ، مع صديقته مورين • وما أن وقعت عيناه علينا حتى دعانا الى مائدته •

وكنت أعرف مورين فحييتها ، وقام كمل بتعريف شيلا بصديقته ، ثم قال : « متى جئت يا شيلا ؟ »

ـ منذ حوالي أسبوع •

ـ ولم تزوراني طوال أسبوع بكامله ؟ متى كنت هنا آخر مرة ؟

ـ منذ أكثر من ثلاثة أشهر • أنسيت العشاءاللذيذ الذي دعوتنا اليه ؟

فضحك وقال : « كدت أنسى أشياء كثيرة منذ أن عرفت مورين • »

فضحكنا ، وقالت له مورين : « أرجو عفوك يا عزيزي اذا كان لي هذا الاثر السيء عليك . »

فسألني : « ما رأيك يا جميل ؟ أأعفو عن هذه المخلوقة ؟ »

كان كمل أميراً هندياً ، ولقب « كومار » الذي يسبق اسمه يعني ذلك . غير انه ككثير من أبناء طبقته الهنود ، كان يخفي ذلك عن أكثر معارفه ، كما انه باعتناقه المبادىء الاشتراكية في السياسة (وكان له ولع عجيب بها) كان يدعو الى الديمقراطية والتساوي المطلق . كانت له عينان دعجاوان ، ووجه متناسق التقاطيع خفيف السمرة ، ترتسم عليه ابتسامة سمحة تنم عن حبه المكنون للحياة والناس . أما مورين ، فكان قد وقع في هواها قبل عدة أسابيع . وكنت في أول الامر أشك في نواياها اذ تبدي له الود ، غير أنني أدركت فيما بعد انها كانت تبادله الحب . بيد أنني لن أنسى يوم جاءت الى غرفتي ذات مرة لتروّح عن نفسها بالبكاء ، لان كمل كان قد أهانها في لحظة من لحظات الغيرة . وكان من قبيل الصدفة أن جاء في تلك الآونة هو

أيضاً ، فلما رآها عندي أمتقع لونه ٠٠ الى أن أوضحت له في شيء من الصعوبة السبب في وجود مورين بين جدران غرفتي ٠ ثم تسامحا وتعانقا ، فسررت لذلك وقلت : « انكما الآن تستحقان شيئاً من الشاي ٠ »

تذكرت ذلك ، فالتفت الى شيلا وقلت ضاحكا :

ـ لم يقع كمل في أحابيل فينوس الا حديثا ٠٠٠

فقال : « ويا لها من أحابيل ! ولكننا نتمتع في عذابنا ، أليس كذلك يا مورين ؟ »

فاحمر وجه الفتاة المسكينة وقالت : « قل ما يحلو لك ٠ لن أعلق على ما تقول بشيء ! »

وفيما نحن كذلك ، سمعنا صوتاً لم نكن لنخطئه قط ـ صوت جون بيترز يقول : « يا لعصر الانحطاط هذا ! انظري كيف يتهافتون على المسكرات ، رجالا ونساء ! »

فاذا هو يخاطب صديقته « جين » على بعد قليل منا ٠ فلما دعوتهما الينا تقدم نحونا في شيء من الثمالة وقال : « انظروا كيف يتهافتون على الخمر ، ثم يجلسون لمطارحة الغرام وبحث المشاكل الفلسفية

معاً . وأكثرهم يفضلون الفلسفة على الغرام . يا للانحطاط ! »

وفي تلك اللحظة انفجرت « الجاز باند » بلحن عنيف الايقاع فأخذ جون بيد رفيقته وقال : « سأراكم فيما بعد » ، واندفع الى قاعة الرقص . وحذوت أنا وشيلا حذوه ، ورقصنا بحماس شهي ، حتى أخذ عرقي يتصبب على وجهي ، وشيلا تضحك مني لانها لا تعرق مثلي . وسألتني شيلا : « من مورين هذه ؟ »

فأخبرتها بأمرها مع كمل ، فقالت : « مسكينة ! »

قلت : « أجل ! مسكينة ومسكين كمل أيضاً . فالهندي في انكلترا ، مهما يكن ثريا ، من أشقى مخلوقات الله ، والويل له اذا أحب . »

ـ والويل للفتاة التي تحبه . فسوف يقاطعها معظم معارفها .

ـ كثيراً ما أرى في حب كمل ومورين رمزاً لضرب من ضروب الحب ، هو أكثرها بؤسا وأملؤها شقاء . هذا الحب بين جنسين من الناس مختلفين كل الاختلاف .

ـ ولكن حباً كهذا يختلف عن حب انكليزية لايطالي أو عربي مثلا ٠

فأدركت ما ترمي اليه من أن سمرة الهنود الشديدة هي العائق في هذا الحب ، غير أنني قلت : « بل حبنا أيضا ليس بالامر الهين ٠ »

فغضبت لذلك وقالت : « هراء ! ان أكثر صديقاتي يحسدنني عليك ، وأنا أفاخرهن بك وأتمنى لو أرى عيونهن تفقأ حسداً ٠٠٠ ولكنه تعصب أحمق تأصل في أكثر الناس ، اذ يظنون أن الشرقي من غير طينة الاوروبي ، وأنا لن أوازي عشرة أوروبيين بظفرك ٠ »

قدرت بها حين قالت ذلك دورانا سريعا لبضع لحظات، ثم عدنا الى البطء في الحركة وقلت : « ولكن ذوي وأهلي لا يعتقدون أن فتاة تحت الشمس تصلح لان تكون زوجة لي ، الا اذا كانت من بنات جنسي ٠ »

فقالت : « كلنا في التعصب والحماقة سواسية ٠ »

كانت هذه في الواقع المشكلة الكبرى التي علينا أن نحلها ٠ فأنا وشيلا عازمان على الزواج حالما ننهي

دراستنا ، ولكننا لسنا طليقين من كل قيد فنستطيع أن نفعل ما نشاء . فذويّ في بلادي غير راضين عن زواج مثل هذا ، تداخلهم في أمره الشكوك ، وفي رسائلهم الي يتساءلون : أتستطيع المرأة الانكليزية الحب حقاً ؟ (لا يخفى أن مقاييس الحب وان تتفق في جوهرها تتباين في بلادنا وبلادهم) . أتستطيع الاخلاص والوفاء ؟ أتعنى بزوجها في المرض ، أتجوع مع زوجها ، وترفو جواربه ؟ أو ليست قاصرة بهمها على ملاهيها وزينتها ؟ الى آخر ما هنالك من الاسئلة التي تفصح عن شكهم في أن زواجي من شيلا سيكون في صالحي ، أو صالحهم .

وأما من ناحيـة ذويها فالريبة ليست بأقل . فهم يقولون : من يدري كيف يتصرف الناس هناك ؟ ألا يحملون الخناجر على خصورهم ، ويخفون الحريم في أعماق بيوتهم ؟ وكيف تسعدين وليس حولك من ينطق بلسانك الا زوجك ؟ ليس الزواج أن تقيم المرأة مع زوجها فقط ، بل أن يقيم كلاهما في وسط ملائم لهما .. الخ الخ .

أما نحن فكنا واثقين من أن هذه المخاوف ليست الا

أوهاما يختلقها ما في الجماعتين من محافظة وكره لما هو أجنبي عنهما • فكلنا ــ كما قالت شيلا ــ في التعصب والحماقة سواسية • وانى للأهل أن يدركوا حدة النيران المندلعة في صدرينا ، واللذة الجارفة التي تجتاحنا كلما كنا معاً ؟ وهل يأبهون للمشاعر الفتية التي جعلت تترعرع في نفسينا ، حين أخذنا نرى ما في الحيــاة من روعة ، وما في الطبيعة من سحر ؟ بل خيل الينا أن كلا المجتمعين لو استطاع لمنع عنا تلك المشاعر ، ولاغلق عيوننا قسراً عن تلك الروعة وذلك السحر •

وعندما عدنا الى المقصف كان جون بيترز كدأبه يتدفق حماسة وهو يتحدث الى كمل ومورين • وسمعته يقول :

ــ هؤلاء الراقصون ، الذين تراهم يتصببون عرقا وعاطفة ، في استطاعتهم أن ينقلبوا في طرفة عين الى وحوش ضارية • الناس اذا تكتلوا في مكان واحد لينحدروا من انسانيتهم نحو الحيوانية •

فسألته : « هل اكتشفت نظرية جديدة ؟

فأجاب : « غير ضروري ! انما آنا أطبق النظرية القديمة كل يوم تطبيقا جديداً . لقد توصلت الى حقيقة لا مفر منها : المجتمع أقبح ما خلق الله على الارض ! »

فقالت مورين : « أتقول ذلك ، وأنت لا تستطيع أن تحيا ساعةواحدة بعيداً عن الحفلات والمجتمعات؟»

فقال : « أنا ياعزيزتي ضحية أهوائي . انني أعشق ما أكره . لقد كتب علي أن أجد لذة حين أتمرغ في الاوحال التي أزدريها .. »

فضحك كمل وقال : « انه من حسن حظك ان لم تسمعك جين . »

فقال جون على الفور : « أو تظن أنني كنت أتعلق بها لو لم أكن أشتهي أن أدق عنقها بيدي ؟ » ثم سدد نظرة سكرى الى شيلا وقال مداعباً : « أرجو يا شيلا انك لا تتعلقين بجميل لانك تكرهينه ؟ »

فأجابت : « أوه .. اني أكرهه .. ولكن كيف أتخلص منه ؟ »

فضحكت قائلا : « ولو تخلصت مني ، لما تخلصت

من طيفي الذي يلاحقها • اسمعوا : ما رأيكم في الهرب من هؤلاء الوحوش الضارية الى غرفتي ؟ »

فسألني جون : «اذا كان عندك شيء من الخمر ...»

فقلت وقد قاموا تلبية لدعوتي : « لست أظننا سنموت من العطش • »

★

لما تم لنا الجلوس في غرفتي كان جون ــ وقد ازداد انطلاق لسانه ــ ما زال يتحدث عن المجتمع •

قال : « طبعا من الخطأ أن نطلق كلمة (مجتمع) على جمهور من الراقصين • فأكثرهم رعاع ، لا يعرفون من الحياة الا بضع غرائز • ماذا تظن يريد الواحد ــ أو الواحدة ــ منهم سوى مضاجعة زميله لو تيسر له ذلك ؟ طبعا لن يقر الرعاع بذلك • ولكن بارك الله فيهم ! انهم ملح الارض • انهم يحافظون على نقاوة غرائزهم ، ولا يشوهونها بالفلسفات والمسائل الذهنية • وهكذا يحافظون على بقاء الانسانية • الانسانية ؟ يا للكلمة الخرقاء ! شيلا ، بربك لا تتهميني بعينيك الجميلتين ! »

فضحكت شيلا قائلة : «ولكنك ياجون تناقض نفسك ٠ انك تمدح وتذم في آن معاً ٠ »

فرفع يديه الجميلتين مستدركا وقال : « اني أمدح الرعاع حين أقيسهم بما سميناه بالمجتمع ٠ المجتمع ياعزيزتي بما فيه من آباء وأمهات ، وأجداد وجدات، وأعمام وعمات ٠٠٠ المجتمـــع المبني على تقاليد ولدتها الخرافات ٠٠ المجتمع بما فيه من قوانين غير مدونة ، المبني على التكتل ضد الفرد المسكين ٠٠ المجتمع بما فيه من بوليس وقضاة ومحامين ٠٠ هذا البناء المتراكم على بعضه ، والواقف في وجهي ووجهك ووجه جميل وكمل ومورين كأنـــه يقول : أنطح برأسك جدراني اذا شئت ، لن تحطم الا رأسك ! هات يا جميل ما عندك من كونياك ٠ »

وناولته كأساً كما ناولت الآخرين كؤوسهم ، والكومار كمل يقول : « أأنت ابن الجزر البريطانية تقول هذا ؟ فماذا اذن أقول أنا عن مجتمع آخر ، تحجرت فيه العادات ، ونخرت في عرق حياته الخرافات ؟ ان مجتمعكم ما زال فتيا اذا قيس بالمجتمع الذي ولدت أنا فيه : ومازال في حياتكم متسع كثير للنمو والتغيير،

لان فيها مرونة الشباب · ولكن من أين لنا نحن هذه المرونة ، وحضارتنا تقادم العهد بها حتى بلغت من العمر أرذله ؟ اننا في بلادي في شيخوخة مريعة » ··

فقلت متحمساً « هون عليك يا كمل ، لا تيأس · مجدكم القديم هــو الوعد بحياة جديدة · ففكرة البعث من الموت فكرة شرقية قديمة ، بل هي من صميم الشرق : انه يموت ليحيا ثانية ، وحياته الجديدة أروع من حياته السابقة · »

فانبرى جــون الى القول بصوته الجميل : « آه ، العنقاء ! ذلك الطير الذي خلقه خيال العرب ·· يشيخ ثم يحرق نفسه ، واذا به ينتفض من رماده ويبعث فتيا قويا ، ويحلق به جناحاه نحو الشمس ! ولكن طريقة اعادة الشباب في هذا العصر أقل جمالا بكثير ، يا جميل لا يحرق الشيخ نفسه ، بل يركّب لنفسه غدد القرود على طريقة فورونوف ، فيبقى شــكله على ما كان من غضــون وترهل ووهن ، ولا يتنشط الا بأعضائه التناسلية · هاها ! »

فقال كمل : « وأخشى ألا يعود الشباب الى الشرق

الا على طريقة غدد القرود ـ هـذا اذا أتيح لـه ما يكفيه منها ! ولكن صاحبنا جميل لن يؤمن الا بالعنقاء • أما أنا فلا أؤمن الا بما قاله شبنغلر : ليس لامة من الشباب الا فترة واحدة ، ولا بد لكل أمة من الشيخوخة بعدها • واذا شاخت ، فلن يكون لسان حالها الا : الا ليت الشباب يعود يوما •• ولكنه لن يعود ، ياجميل ، لن يعود ــ الا اذا وقعت معجزة من ربك ، وعصر المعجزات قد زال • »

فقالت شيلا ، وكأنها تدافع عني : « ان شباب الامم في أفرادها • فالناس بمجموعهم قد يشيخون ، ولكن هناك أفراداً في استطاعتهم أن يلهبوا الصدور بالحياة ، ويقضوا على موت الشيخوخة • حينئذ تنبعث بجسد جديد ، ولربما باسم جديد أيضا • »

فأجاب كمل : « ولكن الماضي يا شيلا ــ الماضي يأبى أن يموت • ولن تنبثق الحياة الجديدة الا اذا نسي الناس الماضي بمجده وأكاذيبه • وما دام مجد الماضي ماثلا فليس لقـوة أن تقضي على تلك الشيخوخة القبيحة •• لشد ما أحسد البريطانيين ، الذين كلما ذكروا الماضي ، لم تذهب أنفسهم حسرات ، لانهم

يرون الماضي في أسفل السلم ، ويرون أنفسهم في أعلاه • أما نحن يا شيلا • فكلما نظرنا الى الماضي رأيناه في أعلى السلم ، ورأينا أنفسنا في أسفله • »

فقال جـون : « أتحسد البريطانيين وهم في أعلى السلم ؟ أليس معنى ذلك انهم على وشك الانحدار؟ أما أنا فأقول : ليتني كنت بدائيا لا ماضي له •• ليتني كنت في عصر الغزوات الجرمانية ، أو على الاكثر في القرون الوسطى : تلك كانت حياة الفرد وغرائزه الطليقة • هل من حياة في الشرق أجمل من حياة البدوي بنقاوة فطرته ؟ لنذهب جميعا الى البادية ، ولنبدأ الحياة من جديد ! »

فضحكت ملء شدقي وقلت : « روسو آخر ! لنعد الى أحضان الطبيعة ! لنعد الى شمس البادية •• أما أنا فأقول : لنوسع المدن • »

فأوقفتني مورين عن الكلام قائلة : « لحظة يا جميل! »

وأرهفت السمع • ولكن لم تكن ثمة حاجة الى ارهاف السمع ، فقد انطلقت صفارات الانذار في جو النيل ، تولول بصراخ رهيب ، وان هي الا لحظات حتى

كانت المدافع المضادة ترسل بقذائفها الى الاجواء الرحاب ، وهمهمة الطائرات الالمانية تسمع ، كالنذير بالدمار ٠

فقالت مورين بعد صمتها الطويل : « أجل ياجميل، لنوسع المدن لكي تحطمها القنابل ٠٠ »

فنهض جون على قدميه وقال : « سنعود الى البادية شئنا أم لم نشأ ٠ ستحطم القنابل المدن ، وتدكها دكاً، وتتركها قاعاً صفصفا ٠٠ هنا تصدق خرافتكم العنقاوية يا جميل ــ أو لعلها تصدق ٠ »

واذا بانفجار يدوي هبطت له قلوبنا ، وبدا الفزع على وجوهنا جميعا ٠ فاستأنف جون كلامه : « هذه العنقاء تحرق نفسها ٠٠ وداعا ٠ علي أن أكون في الدار في حالة الغارات ، فالواجب يدعوني كما تعلمون ٠ العنقاء تحرق نفسها ــ هاها ! واذا ما مزقت جسمي الشظايا ، انطلقت من أشلائي روح جديدة في جسم فتي جديد ٠٠ »

ودوى انفجار آخر ٠ « ويحلق الجناحان بها نحو الشمس ٠٠ يا لحماقة البشر ٠٠ » وخرج ٠

أما أنا ففي الحال تلفت نحو شيلا ، وأمسكت بيدها ٠

فنظرت الي بعينيها الواسعين نظرة اختلط فيها الحب واليأس والشجاعة ـ غير أن الخيالات القديمة عاودتني ، فرأيتها مرة أخرى تراكض ظبية في حقل مزدهر قرب النهر ، واذا جماعة من الفرسان يهاجمونها ، ولعلهم يضربونها بالسياط ، ثم يحملونها على فرس وقد تدلى رأسها ، وشعرها الذهبي مسترسل في الفضاء ٠٠ وتوالت حينئذ انفجارات قريبة وبعيدة ، فتمتمت :

ـ شيلا ، لا تخافي ٠ لن تقوى كل طائرات الالمان على تحطيمنا !

فقالت مبتسمة : « اني لا أخاف ، ولكنني أكره هذه الغارات التي لا تنتهي ٠ »

وقالت مورين : « لقد تهدمت البلدة التي أتيت منها ، حتى ما عدنا نعرف أين كانت الشوارع وأين كانت البيوت ٠ »

وأرسلت المدافع المضادة حممها الى الاعالي مدوية ، وقال كمل :

ـ هذه الغارات الجوية أشبه بالقوى المدمرة التي تهاجم الانسان من حيث لا يريد ٠ فالانسان مهما

فعل ، ومهما كان صالحا ، لا بد أن تفاجئه قوى معادية تبغي القضاء عليه ، ماديا أو روحيا . »

ثم ضحك وأردف : « ولكنك لن تسمح لقوى الشر أن تقضي عليك يا جميل ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « من يدري ؟ غير أنني أشعر بأن ليست هناك قوة على الارض تستطيع أن تدمرني روحيا . ففي روحي عناد الجبابرة . »

ولما قلت ذلك أحسست بفورة فجائية من الحماس ، غير انها لم تدم طويلا حين أرسلت بصري حولي في الغرفة ، ورأيتنا أربعة جالسين لا نستطيع رد شظية صغيرة لو أرادت أن تستقر في أحشاء أحد منا . فسخرت من نفسي صامتا ، ولا أعرف ماجال في أنفس جلسائي من خواطر .

لم يقل أحد منا شيئاً يذكر . وبعد قليل بطلت الانفجارات ، وتنفسنا الصعداء حين انطلقت الصفارات معلنة مغادرة الطائرات المعادية .

★

بعد حوالي سنة بلغنا نعي جون بيترز : فقد قتل في طائرة أثناء غارة جوية على احدى المدن الالمانية .

فعلت الموسـيقى فعلها في نفسي · لقد أقلقتني ، وأثارت خواطري ، وألقت بذهني في خضم من أشتات الاحاسيس · وكانت شيلا في تلك اللحظة في قيلولة الظهر، وقد استلقت على الفراش وهي في ثيابها ، ولعل الموسيقى تسربت اليها من غرفة الجلوس التي كنا فيها ، وتغلغلت الى أغوار وعيها المعتمة ، ولعلها ـ حين توقف جون بيترز عن العزف ـ شعرت بأمواج السكون تعود فتغمرها ، وذلك سـكون أعمق من السبات نفسه · أما أنا فقد أقلقتني الموسيقى ، وذلك قلق أرحب به : فقد شعرت بيدي تتحرق الى القلم ، ومهما كتبت حينئذ فاني كنت واثقا أنه سيكون في منتهى الروعة · لقد أدركت أن ذلك اللون من الاضطراب ليس الا نسمة الوحي الاولى ، وها قد مرت أشـهر منذ أن نعمت بنشوتها ـ وما أشبهها بالحمى ! ذلك الشعور في الرأس ، في اليدين ، في الرئتين ، وتلك الازمة في أنسجة الجسم ، وذلك التركيز العصبي العجيب ، كنت أعرف معناها حق

المعرفة · فقلت لنفسي : يجب أن تبقى شيلا نائمة ريثما أصب الافكار المتراكمة في ذهني · الافكار ؟ لا ، بل الاحاسيس · أيمكن للمرء أن يحول بريق الشمس الى فكر ؟ أو جمال شيلا ؟ واذ رأيتني أحاول أن أضفي شكلا على ما يتردد في نفسي ، قلت :

ـ أرجوك يا جـون أن تعزف تلك السوناتة مرة أخرى ·

وبينما راح جون يعزف سوناتة بيتهوفن على البيانو ثانية ، خيل الي أن رؤاي أخذت تتبلور · فقد ظهر لعيني مشهد للجمال الفطري جعلني أقول لنفسي : هذا هو شعر الحياة ، وعلي أن أنظم أبياته الآن قبل أن تذبل فيه المعاني وتموت · ان الذكرى والحلم والشهوة لتلعب فيه أدوارها ، كأن تلك البغي التي ندعوها الحياة ، ما زالت تحتفظ بآثار من البراءة على جسم نظيف جميل يوحي بذلك كله !

عندما صحت قائلا : « جون ! سوف أكتب كتابا عجيبا · واني لاراه الآن منتشراً أمامي ، صفحة إثر صفحة من حكمة العقل وثورة الحس · فكأنه تجارب البشر في موجز لا يتعدى حفنة اليد · عنف الشباب واستسلام

النساء الحسان .. انظر يا جون . فكما تعالج أنت مفاتيح البيانو بأصابعك العارفة بأسرارها ، هكذا سأعالج أنا مفاتيح الافكار والاحاسيس . وسأبدأ الآن ، حالا . فاذا أفاقت شيلا أخبرها بالذي يشغلني . قل لها انني أكتب كتابا لن يقضي عليه الزمان.. واياك أن تضحك مني ، الا اذا عجزت عن خلق هذه التحفة في بحر شهرين اثنين ! »

ولكن جون لم يلتفت الي ، بل استمر في عزفه . فقمت واتجهت نحو الغرفة حيث كانت شيلا ما تزال نائمة . ووقفت بالباب أنظر اليها تتنفس بلطف ، فيعلو صدرها وينخفض كموجة صغيرة ، وقد انفرجت شفتاها قليلا كأنها على وشك الابتسام وبدا وجهها أبيض صقيلا تشوبه حمرة باهتة . فتقدمت منها على رؤوس أصابعي وانحنيت فوقها وقبلت فمها برفق (ولعلها أحسست بالقبلة غير انها تظاهرت بالنوم) وتراجعت كما دخلت وعدت الى مقعدي في غرفة الجلوس ، وجون ما زال يعزف نائيا بفكره عني .

غير أنني لم أستطع أن أمس قلما بيدي . فقد ازدحمت

في نفسي الفكر والاخيلة والاحاسيس ، فلم أر الا خليطا من الذكريات والاحلام والشهوات التي عجزت عن فرزها وحصرها ، فاستسلمت لها وللموسيقى معا ـ ونسيت في الحال ما قلتــه لجون • على أنني لم أستطع البقاء في كرسيي طويلا ، واذا أنا أقوم وأنزل الدرج بسرعة الى الشارع وأمشي في اتجاه النهر ، لاخفف من حدة ما يعتورني من «حمى الابداع» •• انى لي أن أكتب شيئاً متصل الاجزاء ، كامل الجوانب ، وأنا مصاب بهذا القلق في حبي لشيلا ، وبهذه النفس الموزعة وهذا الصدر الواجف ، فلا أنا في انكلترا ولا أنا في بلدي ، ولا أنا أفهم مشاكلهم حق الفهم ولا أنا أستطيع العودة الى مشاكلنا لمـا فيها من الذل وخيبة الجهد ؟

وما كادت عيناي تقعان على النهر ، وقد استكانت أوزة على صفحته ، حتى كان أول بيت من أبيات قصيدة جديدة قد اكتمل في ذهني • والشعر غير النثر ، لانــه شخصي بحت ، ولا يعنى الا بعاطفة أنانية عابرة •

ولما عدت الى شيلا وجون ، وجدتهما يهيئان أواني

الشاي • وقـال جون : « انظري يا عزيزتي الى (نور آسيا) يعود فيشتت ظلمات حياتنا •• »

فقلت : « آسف يا جون • فقد عدت هذه المرةمتخبطا في الظلاممثلكم ، لا أحمل الا بضعة أبياتمن الشعر • »

فصاح : « اذن هاتها ! » ، فقلت :

« حفنتا ثلج جناحاها ، وقد انطويا
على صمت ناصع حيث لا نوم ولا حلم ،
وقد سال منها وعيها الى الماء
فتهامسا ، وانطوى جناحاها
على ثلج جاءنا صيفا مع الورود ،
ثم لفها الليل في آزاره وراح بها
الى حيث الارواح مع الافاعي تتلوى • »

ورأيت عيني شيلا تطفحان بالحزن ، لانها أدركت ما رميت اليه من معنى ، مهما كان غامضا ، وقالت: « ليتك لم تذكر الافاعي يا جميل ، ليتك أبقيتنا مع ثلوج الصيف والورود • »

فقال جون : « ان أمثال جميل لا يقنعون بالجمال الا اذا أثار فيهم الالم والشعور بالمأساة • ولعله

أقرب الىحقيقة الحياة• هلا أعدت تلاوة القصيدة ؟»

ولما أعدتها قالت شيلا : « كنت أود أن تجعلها هكذا :

ثم لفها الليل في أزاره وجاء بها
من حيث الارواح مع الافاعي تتلوى ،
واذا حفنتا ثلج جناحاها وقد انطويا
على صمت ناصع حيث لا نوم ولا حلم ،
وقد سال منها وعيها الى الماء
فتهامسا ، وانطوى جناحاها
على ثلج جاءنا صيفا مع الورود •• »

فقلت : « شتان ما بين القصيدتين • ففي قصيدتي مغزى الالم والموت ، وفي قصيدتك مغزى النجاة والحياة • »

فقال جون : » أما أنا فأفضل قصيدة شيلا ، وان أكن أعلم حق العلم أن قصيدتك أقرب الى الروح الجرمانية المتشائمة• هاك قدحاً من الشاي ، ولنفتح الراديو • كفانا تشاؤما ! »

وانطلقت من الراديو ألحان الرقص الصخابة • ولما جعلنا نضحك نسيت الوحي والالم ، وقمنا أنا وشيلا

ترقص في الغرفة الضيقة الى أن تعثرنا بالكراسي ، وجون يقول ساخراً :

ــ ما أحلى الشباب بأحزانه ، وما أسعد المحبين بآلامهم !

وَرادفت شيلا : « يسكرون من الشاي ويعانقون أوز الجحيم ! »

وقلت : « وينفهم الليل في إزاره فيرون الورد ناميا فوق الثلوج .. »

فقال جون : « من رأيي أن تجعل قصيدتك هكذا :
حفنتا تراب جناحاها وقد انطويا .
على ضجيج قان حيث الرعب والشبق ،
وقد عاد اليها وعيها من الماء

فتآمرا ، وانطوى جناحاها على تراب جاءنا كل يوم مع الشهوات .

ثم لفها الليل في ازاره وراح بها .
الى حيث الاجسام على الاجسام تتلوى ...
... أو ليست هذه أقرب الى الحقيقة ؟ »
فصاحت شيلا : « انك ساخر مريع ! »

فقهقهجون قائلا : « من الواضح أن الاوزة في قصيدة جميل رمز من رموز الحب • وما هذه الرومانسيات المفعمة بالرموز الا تهرب من حقيقة التراب التي يخشاها الناس • غير أن هذه الحرب قد عادت بنا الى ما كنا تهربنا منه • والبارع من استطاع تصويرنا ونحن نتمرغ في التراب من جديد • اننا على أبواب قرون مظلمة ، ولكن غير تلك التي عرفناها منذ الف سنة • ان القرون المظلمة الجديدة ستنيرها الكهرباء ، وتسليها السينما بقصص الاجرام ، ولكنها لن تشعر بالخطيئة كما كانت تشعر القرون المظلمة السابقة ، ولذا ستكون حياتها أمرا يرثى له : اذ كيف يستطيع الانسان أن يتمتع اذا لم يستشعر الخطيئة ؟ اذا كانت كل امرأة تضاجع كل رجل تلقاه ، لانها لا ترى في ذلك ما ينافي العرف الجديد ، أنَّى لانسان أن يجد لذة في الحب أو آلامه ؟ أجل يا عزيزتي ، حفنتا تراب جناحاها ، ليس الا ! »

فقالت شيلا حانقة : « انك بسخريتك تحطم كل شيء مقدس • ولكنك في الواقع تخاف من الحياة وتطورها ، ولذلك تعزو الى التطور كل ما هو شرير ، لكي تبرر خوفك • »

فأجاب : « انك مصيبة • لانني أمشي وعيناي مفتوحتان ، أرقب كل ما هو حولي • وقد رأيت بذور الشر تنمو ، ورأيت البعض يكافح من أجل اقتلاعها • الا أن أكثرنا رأيتهم يقتلعون بذور الخير ويحتضنون الشر • »

ولم أعجب أنا لآراء جون ، لانه ليس في الوجود ما يسره أكثر من القاء القاذورات ، ذهنيا ، على معتقدات الناس وأساليبهم • ثم ان « جين » تلك الحسناء الفارعة القد الخضراء العينين ، التي كان مشغوفا بها ، هجرته وعادت اليه عدة مرات • وقد رآها مرة بعينيه تقبل رجلا في احدى الزوايا ، فأدرك انها لن تخلص له مهما ادعت هواه • غير انه لم يعد يهتم بمثل هذه الامور ، بل جعل منها أمثلة توضح نظرياته في الحياة •

قلت : « أغلب الظن انك ستشعر بأشد الخيبة لو نظرت حولك فلم تر الا بذور الخير • تصور حياتنا لو كانت نهاراً متواصلات • فالخير والشر يقابلهما النور والظلام ، الجمال والقبح ، الطهر والخطيئة ، السماء والجحيم •• والازواج المتضادة كثيرة ،

ومعانيها كلها متقاربة . وهي رموز لتجارب الانسان بأجمعها . ومن الواضح انه ليس لرمز من هـذه الاضداد معنى اذا لم يكن له ما هو نقيضه . وما الذي تبغيه من المرأة أن تكون ؟ عفافا لا ينتهي ونوراً لا يخبو وجمالا لا يذبل ؟ »

فهتف مقاطعا : « معاذ الله ! ولكن ما أخشاه هو أن تصبح المرأة خطيئة لا تنتهي وظلاما لا يستنير وقبحا لا يتراجع ! »

فقلت : « اذن ما رأيك في تلك الرقعة الواقعة بين النـور والظلام : فترة الغسق ، أو تلك الرقعة القصيرة من ساعات ضوء القمر ، عندما يكون القمر في منتصفه ويكاد يغيب ليسدل على الدنيا ستار الظلام الحالك ؟ تلك هي فترة عدم اليقين ، فترة الدهشة والعجب . انها الفترة التي تبدأ فيها هواتف الشر تخالجنا من بعيد ، فشمس الحق ليست هناك ، ولا ظلمة الجهل أو حلكة اليأس . اننا لنتأرجح فيها بين الاضـداد ، فنلمح الفراديس لحظة وهاويات الجحيم لحظة أخرى ، ونكاد نلمس العفاف بيـد والدنس باليد الاخرى ... ان المحظوظين القلائل

منا يعيشون في فترات من الغسق متوالية • أما الاكثرية »

ــ وماذا يهمنا أين تعيش الاكثرية ؟ انها تتخبط في كهوف الليل الدامس ، ولعلها تنتظر أن يجيء اليها من حيث لا تدري رجل يشعل عود كبريت ، فتمتع نفسها برؤية النور دقيقة واحدة ثم تعود الى ظلامها ! وعلى كل ، فليس لهذه « الاكثرية » أن تعرف الحب ، حتى ولو كحفنتين من تراب •

فقالت شيلا : « وما الذي يهم الاكثرية من نظريات الحب ، وقد بسطها لهم نبيهم الجديد فرويد ، فأصبحت المسألة مسألة « كبت » أو « اطلاق ما هو مكبوت » ؟ ان ملايين الناس يغنون كل يوم أغاني الغرام التي يفرضها عليهم الراديو وممثلو السينما، وبقدر ما يلوكون هذه الفكرة يجهلون حقيقتها • »

فقلت : « أخشى يا عزيزتي انك عدت الى نظرية جون من حيث لا تدرين ! »

وضحك جون ضحكته الخبيثة • غير أن شيلا ابتسمت اذ أعادت خصلة من شعرها بيدها الى الوراء ، وقالت:

ـ لعل جون لم يدرك أن الحب كان منذ القدم ولا يزال للاقلاء فقط • أنا لا أنكر أن أكثر الناس يغلفّون عواطفهم الرخيصة في غلافات زاهية الألوان ، فيوهمون أنفسهم آنهم مشوا ولو مرة في حياتهم برفقة كازانوفا ، أو بايرون ، أو المركيز دي ساد • ولكن الواقع أن الحب نظام سري من أنظمة المتصوفة ، يجب أن يرافقه الالم وتعتوره المصاعب ويلهبه الخيال الخلاق • ومثل هذا الحب للفئة الخاصة دون العامة ، واذا لم تعرفه يا جون ، فقد غابت عنك نصف الحقيقة !

فقال جون : « أتمنى لو كنت أعرف مثل هذا الحب ، ولكن من أين لي ذلك ، وكلما تعرفت بامرأة جديدة تحرك عواطفي ، رأيتها في الحال تنظم لي مصيري وترتب لي مستقبلي في كنفها ؟ فليست المسألة « اطلاق الكبت » فحسب ، بل هي ارتباط لمدى الحياة ، ينفي المصاعب الملهمة ويقتل الالم المبدع • أريد من الحب أن يكون بركانا يتفجر ، وتريد النساء منه راحة وطمأنينة • وما أقرب الطمأنينة من الموت ! »

*

اذن كنا بعيدين جـدأ عن الموت ، لاننا لم نعرف الطمأنينة ولو من بعيد٠كنا نعيش ليومنا ، فنعيش بعنف وشدة وقلما شابه اليوم اليوم السابق٠ورغم الهدوء الذي يبدو مرفرفا فوقطرقاتكمبرج القديمة ونهرها الاخضر ، فقد كنا نشعر أن حوادث العالم ، قديمها ومعاصرها ، تلتقي خطوطها في غرفة كغرفة جلوسي ، فلا يستطيع أحد أن يتجاهل ما في التاريخ من حماقة وبؤس وجرائم تتكرر كل يوم في شـــكل جديد لئلا ينجو من فعلها أحد ٠ ولكننا كنا هناك بين يدي كل ما هو جميل ورائع أيضا ، ولن يعمى أحد منا عما يقدمه المبدعون كل يوم للحياة ٠

ولعلنا كنا بعيدين عن الطمأنينة لان حياة الطلبة مصطنعة ، وعواطفهم مستقاة من ملايين الكتب هذه التي تجعل من أنفسنا ســاحة استعراض لاسفاف الانسان وعظمته معاً ٠ ولذلك كنا نرى حتى في حبنا حقارة الانسانية وسموها ، رقصها المأخوذ عن قصور القرن الثامن عشر ، وجرائمها الشهوانية المأخوذة عن مدن النهضة الايطالية ٠ والى ذلك كله علينا أن نضيف مظاهر الدماثة الانكليزيــة التي

بدونها لا يعد المتعلم مثقفاً . ولما كان تفكيرنا يرتبط بمآسي الاغريق ومآسي شكسبير بقدر ما يرتبط بظلمات دستويفسكي وأحزان الشعراء المعاصرين الذين نظموا شعرهم في خنادق الحرب بين الاشلاء ـ فقد كنا نتغزل بالالم ونخجل من كل ما هو براق لما نجد فيه من سخافة . ولكننا ، نتيجة لذلك أيضا ، كنا نجد في الضحك لذة أخرى ، ولكنه ضحك صادر عن الاحشاء المتوجعة . وفي العلاقات الغرامية كنا نرى مصائب الدنيا تتخاذل حولنا ، اذ تلمس الايدي فورة الحياة ، وتنطق الشفاه بشعر يلهمه الجسد النابض ، حتى اذا ما تراجعت موجة الشهوة ، انتصبت الدنيا بمآسيها من جديد فوقنا ، ودفعتنا من جديد الى النهر أو الحقول أو المقاهي أو المكاتب الرازحة تحت وقر العلم .

أما الطمأنينة فلم نعرفها قط .

ولذلك قلت لشيلا ذلك المساء :

ـ أتعرفين كيف كنت أعيش في البيت قبل مجيئي هنا؟

ـ لقد حدثتني عن الفقر الذي عانيته في السابق .

ـ ولكنني جبنت عن أطلاعك على الحقيقة كلهـا فالفقر درجات ، ولم أخبرك أنني عرفت من درجات الفقر أدناها ٠

ـ ذلك غير مهم الآن ٠ المهم هو حاضرنا هـذا ، والمستقبل ٠

ـ صحيح ، ولكن الماضي كثـيراً ما يلاحقنا ، كما يلاحق الامم بالضبط ٠ لقد كنا عائلة من سـبع أنفس ، نسكن غرفة واحدة ٠ وكنا ننام جميعا على الارض ٠ ولم تكن في غرفتنا كهرباء ، بل قنديل نفط لعين الرائحة ٠ ولم تكن لنا نوافذ تطل على أشجار وزهور ، بل فتحات في الجدران تكاد تكون على مستوى أرض الزقاق ، فلا نرى الا سيقان المارة، فنعرفهم من سيقانهم ٠

ـ وكيف استطعت أن تدرس في مثل ذلك الجو ؟

ـ لم أجد صعوبة في الدرس لان كل كتاب قرأته كان بعيداً عن الحياة التي أحياها ٠ فامتلأ رأسي أحلاما جميلة ، حتى جعلت لا أفرق بين الكتب والحياة ٠ فكانت الكتب تغذي خيالي فاستمد من مظاهر الفقر

التي حولي شيئاً من الجمال يصد عيني عن القبح المنتشر في كل مكان ، ويمنعني عن التمرمر واليأس . اليأس ؟ ان الفقراء لا يعرفون اليأس مطلقا ! اليأس من كماليات ذوي المـال والمساكن الضخمة والحياة المعقدة . أما الفقراء فلا يتطلعون كثيراً الى الاعلى وكل تحسن يطرأ على حياتهم ، مهما كان طفيفا ، يجيئهم كنعمة من الله . ولما لم أعرف اليأس ، كانت المطالعة مصدر قـوة لي وفرح لا ينتهي . وكثيراً ماكنا نخرج ، أنا وبعض أصدقائي الذين في مثل حالي ، فنذرع الطرقات رائحين غادين نتحدث عن الثورات الفكرية والادبيـة التي سنقوم بهـا في المستقبل . ثم نعود الى بيوتنا ونأكل ما لا يحسد أحد عليه ، وننام على الارض والكتب ما زالت بين أيدينا ، وعيوننا مترعة بالرؤى الهنية .

ـ ألم تكن تلك خير تربية لك ؟ لقد نبتت شخصيتك من تراب الارض نفسها ، ولم تعرف الحياة الهينة التي لعلها كانت ستضعفك وتمنعك عن استـغلال قواك بأجمعها . أو لا تنام في هذا الجو الرقيق البعيد عن مشاكل الحياة ، وعيناك مترعتان بالرؤى أيضا؟

ـ بلى ، ولكن أية رؤى ؟ اذا لم تكن رؤى الحب ، فهي رؤى الخوف والقلق . لقد تعلمت هنا كيف يكون الخوف على الحياة ، وكيف يكون القلق على الانسانية . فقد غيرت الكتب دورها في حياتي ، فعلمتني من ناحية أن أخشى على الانسانية ، وعلمتني من ناحية أخرى أن الانسانية لا تسوى قشة واحدة اذا لم ينتصر الفرد لرأيه ولم يتح له التمتع بما أوجده المبدعون من قبله . لقد تعلمت الكآبة بقدر ما تعلمت النشوة . وفوق هذا وذاك ، فان دراستي هنـــا قسمتني على نفسي ، فأصبت بعدوى المرض الاوروبي ، مرض فاوست .

ـ نصف يتشبث بمسائل الروح العلوية ، ونصف يتمرغ في أوحال المادة ...

ـ وهذا هو العذاب الجديد .

فقالت : « الآن فهمت ما رميت اليه اذ قلت :

ولفها الليل بازاره وراح بها

الى حيث الارواح مع الافاعي تتلوى .

انك لا ترمز الى الحب بقدر ما ترمز الى النفس .

لقد فقدت النفس سذاجتها . فغزتها ظلمة من الالم.
وطرحت بين الافاعي . »

★

لم أستطع النوم تلك الليلة ، فقد عاودتني ذكرى صباي بين قومي في الوديان والتلال ، والمدينة القديمة ، واستسلمت لصور الازقة التي كنت ربيت على حبها ، ووجوه عشرات الرجال والنساء الذين كانوا يملأون الغرف الصاعدة النازلة حول مسكننا .
وخيل الي أنني عدت ثانية الى ذلك المسكن العتيق المنخفض السقف ، فاراني أتحدث ، واذا الجيران يضحكون من سخافتي وراء ظهري ويقولون : أهذا هو العلم ؟ لماذا لا يشتري لـه سريراً ينام عليه ، ويشرب شيئاً من العرق كل مساء ، ويفتح الراديو ليسمعنا آخر أغاني الافلام ؟ انهـم يذهبون الى أوروبا ، فيعودون لا نحن نفهمهم ولا هم يفهموننا .
أهذا هو العلم ؟ ما الذي يهمنا اذا كان الحب حفنتين من ثلج أو تراب ، وهذه الثرثرة عن المسائل الفكرية التي لا تطعم أحداً خبزاً ؟ لماذا لا يتزوج وينجب الاولاد ، ويقتني شيئاً من مظاهر الجاه التي تليق

بالمتعلمين ؟ وتجتمع نسوة الحي بأمي على مقربة مني ويجتذ بنني الى حلقتهن وهن يشربن القهوة ، وتتبرع واحدة منهن بقراءة فنجاني . لها وجه عتيق البشرة، وعلى شفتها السفلى المشققة قشور بيضاء ، وشعرها كجزة صوف لم يغسل من زمان . وتقول لي وهي تدير الفنجان بين أصابعها ، ان هناك شقراء تحبني، وسمراء تغار علي ، ورجلا قصيراً يكرهني ، وستأتيني مكاتيب فيها أخبار سارة ، وسيكون في أحدها مبلغ كبير من المال ، وان هناك طريقين مفتوحتين أمامي وثالثة مسدودة . وتصيح احداهن: أين خطيبتك الانكليزية ؟ وتضحك الاخريات ، وتقول واحدة ان بطنها يوجعها منذ ثلاثة أيام . وأهرب من بينهن الى الزقاق المليء بالاطفال ، واذا زوايا مملوءة بمخلفات بطونهم ، وعزيز الاعمى جالس على عتبة أحد الابواب يدق على العود ، ويرفع عقيرته مغنياً : يا ليلي يا ليلي يا ليل ...

★

وفي صباح اليوم التالي التقيت بأصدقائي في مقهى « دوروثي » وقد لبست شيلا قميصا أصفر مفتوح

العنق حتى أعلى نهديها ، وجـون بيترز في سترته الصوفية العتيقة بكوعيها المرقعتين بالجلد ، ومعه صديقتــه جين ذات العينين الخضراوين الواسعتين والشــفتين المضمختين بالاحمر الفاقع ، والكومار كمل سنغ مع مورين ، وكلاهما يتألق سعادة لانهما سيتزوجان عن قريب ، وقد بادرني جون بالسؤال لكي يسمعه الجميع :

ــ هل شرعت في كتابك الخالد ؟

فقلت متجاهلا : « أي كتاب ؟ »

ــ ذلك الذي سيحوي تجارب البشر في موجز لايتعدى حفنة اليد ٠

ــ أجل أجد ٠٠ لقد بدأت به الليلة الماضية ٠

فقالت جين : « ابدأت بتأليف كتاب ؟ عظيم ! »

فأجبت : « نعم ٠ لقد قضيت طيلة الليلة الماضية في الكتابة ، فأنجزت عشرين صفحة ٠ ولكنني عندما راجعتها ، والشمس تطلع ، مزقتها جميعا ٠ فقد أدركت أن المرء اذا أراد أن يكتب ، يجب أن يكون دافعه الاول الاعجاب بشيء ما ، أو على الاقل الايمان

بشيء ما • ولكنني وجدت أنني لست معجبا الا بكل ما هو بعيد عني• اني معجب بالاشياء التي لا أعرفها ولا تمت الي بصلة ، فكيف أكتب عنها ؟ أما الاشياء التي أعرفها ، واختبرتها بحسي ، بيدي وعيني وعضلاتي ، فلا أجد فيها الا الخيبة والمهانة ••• »
فتضاحك كمل ، وهو يلقي نظرة جانبية الى شيلا ، وقال : « وهل ينطبق ما قلت على الحب ؟ »

فقلت : « لسوء الحظ لم يبق لي الا الحب موضوعا للكتابة • ولكن من لم يسأم هذا الموضوع ؟ »

فقال جون : « لم يسأمه أحد بعد ، ولكن عليك أن تجعل منه شيئا ترابيا ، شيئا تمسه باصبعك فيتفتت• ذلك هو الموضوع الحقيقي • وكل ما عدا ذلك فخرافة يعرفها الجميع • »

ـ وسآخذ بنصحيتك يا عزيزي جون ، لاننا في عصر مصاب بالسكيزوفرنيا • لقد انقسمت شخصيتنا الى شطرين متناقضين ، فنحن اذ نتمتع بفعل شيء ما ، يعجبنا عند الكلام عنه أن نهاجمه• اننا نقول عكس ما نفعل ، ونرتأي عكس ما نشتهي • اننا نكره

ما نعشق ، ويلذ لنا لذلك أن نحطم ما نحب ، حتى صار يلذ لنا في النهاية أن نحطم آنفسنا • وهـذا موضوعي الجديد •

وتذكرت في الحال أزقتنا القديمة ، والنساء المهلهلات الثياب والصبية يتعاركون تحت الاشجار الغبراء ، واذا شيلا تمشي وسط ذلك كله حافية القدمين ، وقميصها الاصفر ممزق عن نهديها ، وليس هناك لا خيل ولا خيالة ، لا غابة ولا عشاق قرب الجداول • لم أر الا بيوتا صاعدة نازلة ، وفتاة جميلة ، هائمة بينها ، وجارنا عزيز الاعمى يدق على العود ، وأنا متكيء على الجدار المهـدم قرب النافذة ، وفي يدي الكتاب الذي كتبته ـ فاقلب الصفحات ، واذا هي بيضاء خالية ، لان كل سطر فيها قد امحى •

وعند ذلك عزفت موسيقى المقهى ، وجعل البعض يرقصون ، فقمنا وحذونا حذوهم •

الرجل الذي كان يعشق الموسيقى

هذه قصة غريبة يكاد المرء حالما يسمعها يقـول : ان قصتك يا هذا مستحيلة • ولكنني صدقها القارىء أم لم يصدقها ، لا أحجم عن روايتها ثانية • وسأرويها لك كما رويتها لغيرك ، ولك أن تصدق أو لا تصدق •

بطل القصة رجل كغيره من الرجال الذين تراهم وتصطدم بهم كل يوم في شوارع المدينة • لا يفرقه عن غيره من الناس جمال ، أو اناقة ، أو بهاء طلعة • انـه رجل بدأ حياته فقيراً ثم أثرى • وكغيره من

الناس سعى في طلب الثروة ليل نهار ، ولعله لم يحجم في كثير من الاحيان عن التدليس والخداع في سبيل ذلك • فالذي أعرف هو أنه ولد معدماً ، ولم يبلغ الاربعين حتى كان قد أصبح من أرباب الاموال • ومع ذلك ، كما قلت ، لو رأيته في الشارع لما ميزته عن غيره • تراكمت ثروته في المصارف ، غير انها لم تمس حياته بشيء يذكر • فقد بقي عائشاً وحده في منزل متواضع في المدينة • ولم يحاول قط أن يستغل الثراء في سبيل الجاه • ولم يأبه يوما لما يقوله الناس عنه عندما علموا بثروته •

غير أن اثنين أو ثلاثة من المقربين اليه بحكم الاعمال التي درت عليه أمواله هذه ، كانوا يترددون عليه في منزله • ولم يكن عنده في المنزل ما يلفت النظر الا مجموعات من الاسطوانات الموسيقية التي كانوا يعجبون لعنايته بها • بل انهم كلما تحدثوا عنه ، وعن بساطته في العيش واهماله لشؤون الحيـــاة ، كانوا لا ينفكون يلهجون بدهشتهم من أن رجلا مثله ، لم ينل من الثقافة العالية شيئاً ، يهتم بالموسيقى هذا الاهتمام الكبير • ثم يتعجبون أكثر فيقولون :

وكيف يستطيع رجل ، أولع بهذه الاصوات التي تحطم السمع أحيانا بعنفها ولذتها . أن يستمر في أعماله المالية ، بل يصبح ذا ثروة طائلة كثروته ؟ عهدنا بالفنانين يؤثرون عرائس فنونهم على الدنيا ومقتنياتها ، واذا حاولوا العمــل يوما كانوا من المخفقين .

مهما يكن من أمر ، فان صاحبنا لم يجد من متعة في الحياة ـ كما يبدو ـ الا اذا جلس في غرفة امتلأت بالاسطوانات ، ليستمع على غرامفون كهربائي الى قطعة اثر أخرى من آثار الموسيقيين : وما أكثرها ! عليك بفهرست من فهارس مصانع الاسطوانات ، تعجب للعدد الهائل الذي يمكنك أن تقتنيه منها ، لو كنت تستطيع أن تغترف من أموال كثيرة كأموال بطل هذه القصة .

ولكن حدث ذات يــوم أن اختفى صاحبنا فجأة من المدينة ، فظن البعض انه ربما منح نفسه اجازة لاول مرة في العمر ، فذهب الى ايطاليا أو سويسرا ليقبل على لذائذ الحياة ، وظن البعض الآخر انه ربما سجن نفسه طائعا في أعماق بيته ليستمع الى الموسيقى

دون انقطاع : فكنت ترى البعض أحيانا يلصق أذنه بفجوة في باب داره لعله يسمع نغمة من داخله، ثم يتراجع مقسماً بأنه سمع نغمة موسيقية أشبه بالصدى من مكان بعيد ..

غير أنه في حقيقة الامر ذهب بصحبة أحد المهندسين الى مكان في الجبال الشمالية ، يبحث عن بقعة على رأس قمة شاهقة يبني عليها داراً لنفسه .. وان هي الا سنة أو أكثر بقليل حتى تم له ما أراد . فعاد الى المدينة ، ورآه الناس بين ظهرانيهم من جديد . فكان يحيي الجميع ، ولكن في كثير من التحفظ ، كأنه يخشى أن يتقربوا إليه أكثر مما يود . واذا هو ذات صباح ينقل صناديق خشبية عديدة (قيل انها رزم فيها اسطواناته التي لا تحصى) الى سيارة شحن ضخمة ، وتنطلق به السيارة الى مقره النائي بين المرتفعات الصخرية السامقة التي كثيراً ما تستقر عليها الغيوم .

وهناك بعيداً عن الناس بآلامهم وأفراحهم ، بعيداً عن المنازل المتراصة بعضها فوق بعض ، والشوارع المزدحمة بباعتها ومتسوليها وسياراتها ، هناك بين

أوكار النسور ، عزم صاحبنا أن يعيش ، لا يرى حوله الا رؤوس الجبال المدببة ، والصخور الجرداء ، والهاويات الرهيبة : قريباً من السحب وجارا للنجوم .

ولم يكن البيت الذي ابتناه هناك مجرد كوخ بسيط . بل كان أشبه بالقصر رغم صغره ، عامراً بأسباب الراحة وكمالياتها ، وفيه مولد للكهرباء لكي لا ينقطع عن استعمال غرامفونه الكهربائي الدقيق التركيب .

وفي هذا المكان القصي وقف صاحبنا حياته على الموسيقى . وكثيراً ما كان القرويون على السفوح يرون في الليل ضوءاً بعيداً يشع من على رأس الجبل فيقولون : انه لم ينم بعد ... وبعد بضعة أسابيع جعل بعض القرويين ممن كانوا يضطرون الى تسلق جزء من الجبل يقولون : انهم يسمعون أنغاماً حتى عن ذلك البعد السحيق ! فظنوا أن ذلك ليس الا وهماً منهم . فقد غدا صاحبنا موضوعا للتخرصات والاقاويل . غير انهم جعلوا يخرجون جماعات ويصعدون على رابية قريبة ليستوثقوا الامر ، فاذا

الانغام لا مريـة في وجودها : انها لتنحدر من على الصخور المنيفة وتنبث في الاودية ·

والحقيقة هي أن صاحبنا لم يكتف بمـا فعل ، بل أحضر عدداً من المكبرات الصوتية الضخمة ، وركبها في أماكن مختلفة من الجبل · فاذا ما عزف اسطوانة ، انطلقت الموسـيقى في أرجاء المرتفعات الفسيحة ، وجعل الهواء يلعلع بالالحان ، كأن مئات الملائكة قد هبطت من السماء بمعازفها ، لتعزف له وهو يتجول بين الصخور ·

وفي يوم من الايام وضع في الغرامفون الآلي اسطوانات كثيرة للموسيقى « يوهان سباستيان باخ » ـ وكان هذا أحب الموسيقين الى قلب صاحبنا ، ويرى في توالي أنغامه الهندسية التركيب بحث النفس الانسانية عن الخلود والازلية · (يقولون أن الموسيقى كثـيراً ما ترمز الى مثل هذه الاشياء الغامضة ·) ثم خرج صاحبنا من المنزل ، وقد أعمل المكبرات الصوتية كلها على أعنف ما تكون ، وراح يركض بين الحجارة على شفا الهاويات والاخاديد ، وشعره يتطاير في الهواء العاصف ، والعواطف تتلاطم في صدره ، تسوقه الى

البحث عن ذلك الذي كان يسعى في طلبه طيلة حياته وهو لا يدري : الخلود • وشعر أن الانغام تساعده وتؤازره ، وانه يحصل بهـا على تلك القوة التي سيجابه بهـا الزمن منتصراً ، فلا تحول نفسه ولا تتغير ، وتبقى في نشوة أبدية • وبينما كانت الجبال والسماوات تتجاوب بالالحان المدوية ، القى صاحبنا بنفسه في أخدود عميق على صخور ناتئات الاطراف ، فمات في الحال ، وانطلقت روحه الى الفراديس العلوية •

وقد سمع القرويون الذين كانوا في أسفل منحدرات الجبل ذلك اليوم موسيقى عجيبة ، استمرت مـدة طويلة دون انقطاع • غير انهم في الايام التالية لم يعودوا يسمعون ألحاناً مما أثار دهشتهم ، ولم يعودوا يرون النور يشع من أعلى الجبل في الليل ، فظنوا أن صاحب المكان لعله غادره • غير أن خشخشة غريبة لم تنقطع لايام كثيرة غدا الجو مشحوناً بها أثارت فضولهم وتساؤلهم • كانت خشخشة مزعجـة ، صبروا عليها بضعة أيام على مضض ، وهم يلغطون بأعجب التقولات والتعليلات بشأنها • الى أن تشجع

نفر منهم ، وعزموا على الصعود الى قمة الجبل ليعرفوا سر ذلك الصوت ، وليروا القصر عن كثب •

لقد قضوا في تسلقهم زهاء يوم كامل ، ولم يبلغوا هدفهم الا قبيل غروب الشمس • فرأوا منزلا جميلا مشرع الابواب ، دخلوه بادىء الامر متهيبين ، وقد أثار الفضول أعصابهم ، كأنهم يدخلون بيتاً للجن • بيد أنهم وجدوا الجدران مكسوة برفوف محملة بالاسطوانات ــ وفيما عدا ذلك ،لم يكن هناك ما يفرق الدار عن أي دار مريحة في المدينة • وفي وسط أكبر الغرف وأجملها رأوا صندوقاً كبيراً ، اقترب منه أحدهم بحذر شديد ، ثم فتحه • واذا هو مملوء بقصاصات ورقية صغيرة ملونة ، دهشوا جميعا لوجودها هناك ، واذا أحدهم يصيح فجأة : « جنيهات ، جنيهات !! » •

كانت تلك قصاصات جنيهات ، وكان الصندوق العميق مملوءاً بها • فلما غمسوا أيديهم في ذلك المال الممزق ، وجدوا غلافاً مفتوحاً فيه رسالة • ولم يكن بينهم من يعرف القراءة الا فتى واحداً ، ناولوه الرسالة فراح يقرأ على مهل : « قضيت عمري في

جمع هذه الاوراق ، وهي كل ما تبقى لدي بعد أن أنفقت ما أنفقت ٠

« ــ وقد احتقرتها ، وكنت دائماً أحتقرها وأحتقر الذين يقضون حياتهم مثلي في ملاحقتها ٠ وها أنا أمزقها لكي لا تكون طعماً لاحد من جديد ، وسبباً في شقائه ٠

« وحالما أنتهي من تمزيقها سأخرج مع أنغام « باخ » الى الصخور التي لم يلطخها طمع البشر ، ولن أعود، لانني سأقدم نفسي طعاماً للنسور ٠ وسوف تحلق النسور أبداً عند أذيال ثوب الله » ٠

أما الخشخشة فقد اكتشفوا انها صادرة عنمكبرات الصوت المنبثة في أنحاء الجبل ٠ لقد كانت متصلة بالغرامفون حيث كانت الابرة مستقرة على نهاية اسطوانة تدور وتدور ، فتطلق ذلك الصوت الخادش العاتي ، ولسبب ما لا ترتفع الابرة عنها ٠ واتفق انهم ما كادوا يكتشفون المولد الكهربائي حتى كان مافي خزانه من بترول قد نفد ، وللحال توقف المولد عن العمل ، وصمتت المكبرات ٠

السعر : ٨٠٠ ق.س

مطابع الف باء ـ الأديب ـ دمشق